مركز محمد سعيد العباسي الثقافي

أسير الجبل

أسعد الطيب العباسي

Dr.Binibrahim Al-Abbasi

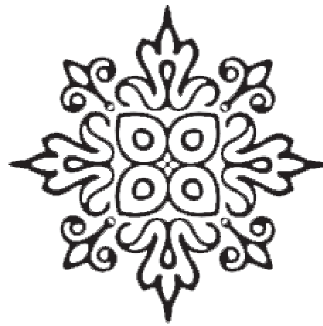
أسير الجبل

تصدر عن مركز محمد سعيد العباسي الثقافي

رواية

أسير الجبل

أسعد الطيب العباسي



الإهداء

إلى روح شقيقي المغفور له بإذن الله المهندس «الزبير الطيب العباسي» سمي جده البطل «الزبير باشا» كنت أسنُ من الزبير وكان أكبر مني. لذا عزمت أن أهدي روحه هذا السِفر.

أسعد الطيب العباسي
١٥/ يوليو/ ٢٠١٥م

الفصـــل الأول

النبوءة الصادقة والفراق المر والرحلة المفزعة

(١)

بدت جزيرة (واوسي) - التي تقع شمالا لخرطوم ــالبحريّة بنحو خمسين ميلاً في ذلك الزمان؛ وقد مضى ثلث القرن الثامن عشر وزاد قليــلاً - بائسةً بمنازلها البدائية المتفرقة، قطاطي من القش و(درادر) أسافلها الدائرية من طين يستوي عليها خليط الزبالة من روث البهائم وبعرهــا، بنيت سقوفها المتحدرة بجرائد النخيل وسعفه، وأعشابــالتبس وسيقانه، وشقائق أشجار الدومــو جذوعها. هي منازل تفتقر إلى الأسوار، وتضربها في المواسم القاسية سافيات الرياحــو هجير السموم. كان «رحمة منصور العباسي» - أحد قاطني تلك المنازل - رجلاً تتملكه البساطة في مظهرهــو عيشه. كان نحيفاً، مربوع القامة، هادئاً ومسالماً، يمتهن الزراعة شأنه شأنــأهل جزيرة واوسي، يسكره دعاش المطر، ويطربه شميم الجــروف.

كان الرجل راضيــاً برزقه، سعيداً مع زوجته «شمة بت فتاحة ولد النيل»، التي عدها رحمة أحد أروع أقدارهــو أنصبته في الحياة. لم تكن حياتهما خالية من الأحزان، فقد توفي صغيرهما عبد الرسول، فبكياه مر البكاء، وشاركتهما ذلك البكاء بنتاهما عائشة وفاطمة وابنهما بطران. كان رحمة يهرعــإلى النيل الملتف حول واوسي من كل الجهات، وينظر إلى أمواجه التي لم تعد بناظريه إلا قبوراً تستثير تفجعه، ولكنه كان يحتمي بإيمانه وصبره، فقد علمه والده منصور ودعلي - العالم الأزهري - أن يلوذَ بالصبر عند الشدائد والأحزان. كان يمتاح منه ذلك، فقد كان معلمه الأولــو مرشده في الحياة. يعود رحمة إلى منزله فتهرع صغيرتاه، فاطمة وعائشة، إلى أحضانه، ويودع بطران كفه الصغيرة داخل كفه المعروقة، فيودعون في قلبه حبهم إلى الأبد. وعندما يسترقــالنظر إلى زوجته شمة يرى في عينيها حبــاً ومودةً، فينسى آلامه ويسلو أحزانه.

كانت السماء صافية زرقاء وسحب بيضاء تتسابق فيما بينها، ونسيم عليل يداعب أشجار النخيل ويحرك سيقانــالذرة، وتبرق خضرتها مع تخلل أشعة ال

شمس بينها التراقص على وتيرة نغم واحدة. امتدت أشعة الشمس لتنير حقول الذرة التي استحالت رؤوسها صفراء اللون في تساوق وانسجام مع النسائم المتعاقبة، فصار كبقعة كبيرة مضيئة، وغدت حبيباته نبراساً يكاد يعمي الناظر. منظر خلاب قذف بالسعادة إلى قلب رحمة، وبالبهجة إلى روحه، وهكذا تستمر الحياة وتعمر المطامير وتمتلئ بالذرة، فيحس الجميع بالاطمئنان فيعود رحمة إلى أنسه الجميل مع شمة، بعد أن يداعب أطفاله وينامون، وعندما يناديها كانت تقول له:

– يا أبو بطر انا أنا ماكت بقولك تناديني بي بت الملوك، وللا بخلا نعلّي بيها في شان رضيت الجية والعيشة معاك فوقا لجزيرة دي.

يبتسم رحمة ويقول لها:

– طيب أدني مني جاي يا بنت الملوك.

(٢)

لم تكن شمة تقو لإلا حقا، فهي تنتمي للملو كــا لمتمة، و منهم جدها الملك إدر يس أبو دريع، و جدها الملك عبدالله و دسعد.

بحيــاءٍ بالــغٍ تقترب شمة من زو جها رحمة و تقول له متلعثمة، و قد بلغ بها الحياء قمته:

- شن بتدو رمني يا أبو بطر ان..؟!

ماكان تحت أنف رحمة منشــارب، كان يسمح له مع تلك الابتسامة العريضة التي بدت فو قو جهه أن يداعبه بزهو و هو يقول لها:

- شيخي ما بغباك يابنت الملوك مو؟

- اللهم أنفعنا بي جاه سيديو د البشير السماني، بس يا أبو بطر انــأنا ماشفتو عليك الله و صفولي و حدثني عنو.

قال لها و هو يرنو نحو الأفق في ذلك الليل الذي تحمل سماؤه نجو مــاًو أقماراً، و هو يتخيَّر بديع اللغة، إذ يحدثها عن شيخه الأثير:

- سيديــأحمد الطيب صو في بارز، وولي صالح، و عالم فقيه، نادر زمانه، و فريد أو انه، و غرة دهره، و شمس عصره، البحر المحيط الكبير، و الحبر المدقق الشهير، العلامة الألمعي، و الفهامة اللو ذعي، من دانت له قطو فــا لحكمة، و دنت له علو مــالعبارة، و تناهت إليه دقائق الإشارة، المدقق السختيت، و الرباني الخريت، الداعية المجدد.

- ده كلو بعر فو.. شكلو كيفن؟

- طويل القامة،ذو هيبة وجلال،حسن الوجه،له شعاع كأنه شعاعـــ الغزا له،أصفر اللون،باين العنق،ضخم العظام،حلو النطق،عريض الصدر و الظهر،طويل الزندين،أملس القدمين،بعيد ما بين المنكبين،أقنى العرنين، كث اللحية،لحيته ما بين الخفة و الكثافة و هو يخضبها،و يحف شاربه،و اسع الـ ـجبين،حسن العين و الأسنان.

- أهاشن بلبس؟

- يلبس القميص و من فوقه الثوب،و لا يلبس تحتهما السراويل، ويلبس ا لطاقية الحجازية و عليها عمامة بيضاء،و تارة (أم قرين)،و نعله رضي الله عنـ ـه هي النعل الحجازية و يأخذ في يده عصا.

(٣)

كان «رحمة» يدين بالولاء للطريقة السمانية التي أسسها الشيخ أحمد الطيب ود البشير، راجل أمرحي، وكان رحمة يكثر من زياراته لأرضـ أمرحي في الأعياد والمناسبات الدينية ليلتقي بمرشده الروحي الشيخ أحمد الطيب ود البشير، وكانت روحه تتوقد وماً لهذه الزيارات، فيقفز إلى مركب ويقطع صفحة النيل وينحو جنوباً، بعد ابتعاده قليلاً من جزيرة واوسي، ويرسو على شاطئ النيل الغربي ليترجل فوق اليابسة وهو يشدو بالمدائح والأوراد المسجوعة، وعندما يصل إلى الزحام عند خلوة شيخه أحمد الطيب، تشتعل الغيرة في قلوب الرجال من أحباب الشيخ الطيب، فهم يعلمون كم هو أثير لديه، فقد كان يفسح له في مجلسه، وينظر إليه بعين الرضا، ويعامله معاملة خاصة. تلك الغيرة دفعت بالجرأة إلى صدور البعض، فسألوا الشيخ الطيب:

- شيخنا القطب..مالك بتميز رحمة ده مننا..شايفلك فوقو شوف؟ الزول مزارع هوين..لا ليهو في العير ولا في النفير؟

لم يكن أحد من الحضور يتوقع ما قاله الشيخ الطيب عن تلميذه رحمة، فالمقولة صارت نبوءة وتحققت، وتناقلتها الأجيال وحكت بها الأزمانُ للأزمانِ.

بهدوئه وصلاحه ووجهه المشرق وصدقه العميق، قال لهم:

- رحمة..رحمة زولًا مبروك، يحمل في ظهره ملكاً سيجيء به فارساً وصالحاً يضيء المشرق والمغرب..!

صمت الجميع، فقد رد عليهم شيخهم رداً حملهم من شواطئ الغيرة

إلى شواطئ الاحترام، وهكذا ظلت مكانة رحمة ترتفع، وصار موضعه في قلوب أحباب الشيخ الطيب في موقع المودة والاحترام. ولما بلغت أخبار النبوءة رحمة، استحال كيانه حبوراً وفرحة، وأيقن أن الله سيعوضه عن فقد ابنه عبد الرسول خيراً، وهذا ما أسر به في تلك الليلة لزوجته شمة بلطف آسر:

- أكان إنتي يا شمة بنت الملوك أنا أبو الملك.

- إن شاء الله ربنا يديك الفي مرادك يا أبو بطران، وفي الباقي لي بطران ده شبهو شبه الملوك.

- بطران ربنا يخليهو..لكن بشروني بي ولد حا يكون ملك وفارس وصالح يضيء المشرق والمغرب.

- والبشرك ده منو؟

- بشارة ما بتقع واطة، دي بشارة سيدي أحمد الطيب ود البشير.

بصعوبة استطاع رحمة أن يضع كفه على فم زوجته شمة التي شرعت في إطلاق زغرودة مجلجلة، فوأد بعضها..! ثم همس قائـــلاً:

- مالِك بتدوري تصحي الشفع وناس الجزيرة؟

- فرحتا يا أبو بطران والله فرحتا.

بعد أن اطمأن رحمة إلى هدوء منزله والجزيرة من حوله قال لشمة:

- هسع يا بت الملوك عاجباك الشقوق الفي كرعيني ديل وجسمي المغبش ده، ما تشوفيلك زيت تمسحيني بيهو؟

قالت له ضاحكة:

- إنتا بتدور الزيت.. وللا بتدور تفتش على الملك بتاعك..؟!

(٤)

تجاوزت الشمس أفقها الصباحي بقليل، وتسللت أشعتها إلى داخل الدُردُر، ولسعت شمة فنهضت مذعورة، وقد تناهت إلى أسماعها أصوات متفرقة. ثغاء شياه، نهيق حمير، وخوار أبقار، وأخرى بشرية لمزارعين وأطفال يلعبون. ميزت بينهم أصوات ابنها بطران وابنتيها فاطمة وعائشة. فأيقنت أن النشاط قد بدأ في الجزيرة، فنظرت إلى جانبها فرأت أن زوجها وصنو روحها رحمة، لا يزال نائماً، فحز في نفسها أن الجميع قد نشطوا عداها وزوجها رحمة فقد سرقهمـــا النوم، قالت لنفسها:

- والله جنس خمالة..هسع يا ربي الشفع ديل شربوا الشاي وين؟

ومرقوا بتين؟ وأنا لا حلبت ولا ولعت لي نار.

الخواطر ألهبت صدرها وأخجلتها، وعندما تخلصت منها وضعت كفها فوق صدر زوجها وربتت عليه برفق وهي تقول:

- قوم يا العشا الوكت روح والفجر فاتنا والناس فوق الزراعة وسرحـــوا بـــى بهايمـــن.

أفاق رحمة ومسحة من القلق ترسم ملامح وجهه وهو يقول لشمة:

- لعلك طيبة يا بت الملوك أصبحتي كيف؟

- ماني طيبة يا أبو بطران، زعلانة من روحي ما صليت ولا حلبت ولا ولعتا لي نار، النوم الله يقبحو.

- البارح السهر أخدنا بالحيل.

- كلو منك الليل كلو تفتش..!

(٥)

من أغوار رحمة البعيدة بدأت ابتسامة تشق طريقها بصعوبة وتستقر مرهقة على وجهه، وسرعان ما قتلتها تلك الاختلاجات القلقة فقال:

- الإبريق يا شمة.. ضارب الخلا أتجمر وأتوضأ.

- لا لا يا أبو بطران، بلزمك بعد الخلا البحر، إتحمم في الأول عشان تستعد سمح لي صلاتك. رد عليها وقد استدرك:

- نوم ونسيان اللهم ألطف.

عاد رحمة من النهر وصلى صلاته وتــلا قرآنــاً وقرأ أوراداً، وقد أضاء درده بنجمتيه وقمره، وقد عادوا من ملاعبهم. أعدت شمة للجميع الإفطار الحليب والعصيدة. هم بعدها رحمة بالمغادرة إلى الأرض والزراعة..إلى مهنته التي لا يعرف سواها، غير أن شمة استوقفته بعد أن حررته من أيدي الصغار، وقالت له وهي تتقي حرارة الشمس بكفها:

- والله يا أبو بطران ما بقدر أصبر، حدثني كويس بي كلام سيدنا الشيخ الطيبوالله تعبانة.

- لا تشغلي روحك.. وكلام شيخي زي ما بقلك ما بتقع واطة.

- ربنا يحقق القالو.

- هسع بدور ألحق الزراعة ودعتك الله.

- ودعتك لي أمين الوداعة.

(٦)

ضرب رحمة بمعوله كثيراً على الأرض، فأحس بالتعب وبعض الرؤى ترهقه، فدنا من جذع شجرة استطالت وسط أرضه يطلب عندها الاسترخاء، فأسند إليها ظهره واضعاً معوله بجانبه، وعندما لفحت وجهه نسائم الخضرة والنيل، أغمض عينيه فقد بدأ يداعبهما الوسن، غير أن دمعة رفعت جفنه المسدل وتسللت برفق وسالت على وجهه، وبهدوء قبض عليها قبل أن تهرب إلى الأرض، فقد أيقظ هديل القماري في نفسه حزنــاً قديماً متجدداً، فقد تذكر شيخه أحمد الطيب، شيخه الذي فارق الدنيا قبل سبع سنوات، تذكر ذلك التشييع المهيب وتلك الدموع، وكيف أنه بكى في ذلك اليوم كما لم يبــكِ من قبل.. نادته الأرض فبدأ ينهض ليستأنف عمله، أراد أن يحمل معوله بكف ناعسة حزينة، فإذا بها في ناب حية رقطاء لدغته بقسوة وهربت، فغاب نعاسه تماماً. نهض رحمة بألمه وهو يمسك كفه الملدوغة بكفه الأخرى، ويسير مترنحاً، فرآه بعض الزراع وعندما سقط هرعوا ناحيته، فقال لهم بصوتٍ واهن:

- أنا اتلدغت.

حملوه بسرعة وساروا به نحو دردره في تلك الجزيرة. كان الهدوء والتوتر يلف الرجال، ولكن الأمر تبدل إلى صخب وصراخ عندما دخلوا برحمة الملدوغ وهم يحملونه فوق الأيادي إلى داخل الدردر، خاصة عندما رأت شمة ذلك المشهد، فقد كان الزبد يخرج من فم رحمة، فزادت في صراخها صرخة وقالت:

- ووب عليّ.. أبو بطران مالو..؟!

- رحمة لدغو دبيب.

استحالت شمة إلى كيان من العطف، ونظرت إلى عيني رحمة بهدوء وصبر، باغتها في تلك اللحظات دون أن تحتسب، رغم أن قلبها كان ينتفض بعنف وقالت تخاطبه، وهي ترى بياض عينيه يغالب سوادهما:

- ما تغمد عينيك يا رحمة.

ثم التفتت إلى الرجال وسألتهم:

- مصيتو ليهو محل اللدغة؟

- أيوه يا بت فتاحة.

- الظاهر ما مصيتوه كويس، إنتو بتخافو من السم وللا شنو؟

أخذ الجميع يترقب بيأس خطوة شمة التالية، فرفعت كف رحمة الملدوغة وهي تحذره للمرة الثانية ألا يغمض عينيه، وأخذت تضع على الكف والساعد جروحــاً بمديته الحادة التي استلتها من أعلى ذراعه، ووضعت مكان اللدغة في فمها وأخذت تمتص منها السم أو بقاياه وتقذف من فمها لعابها الذي اختلط به السم والدم، وفعلت مثل ذلك في تلك الجروح التي أحدثتها في الساعد، ثم مزعت من طرف ثوبها قطعة ربطتها بإحكام أعلى الساعد. بقلب مفطور أخذت شمة تنظر إلى عيني الملدوغ وسط صمت وترقب الحاضرين، وأخذت تخاطبه بما أملاه عليها ذلك الخاطر المباغت:

- يا العشا ما في باقي بركة.

رد عليها بصوتٍ واهن يكاد لا يبين، صوت أعلى من السكون وأقل

من الهمسة:

- تلقيها في صرة فوق المشلعيب.

فهمت رده وأشارت بعينيها بذلك المغزى، فتبرع أحد الرجال وأحضر بركة الشيخ الطيب التي كان رحمة يحتفظ بها بعناية، فتلقفتها شمة بلهفة وأخذت تنثر تلك الحفنة الترابية فوق الرباط، وهي تدعو ما شاء لها مـن الدعاء.

الجزيرة لا تغيب عنها الأحداث والأخبار أبداً، فهي تضم مجتمعاً صغيراً ومفتوحـاً، لذا بدأت جموع النساء تتقاطر على دردر رحمة ليقفن على حالته، ولما غابت الشمس قالت شمة:

- خلاس يا جماعة رجال ونسوان.. كتر خيركم.. بعد دا بندور نسلب رحمة السليم من هدومو، ونمسحو وندق ليهو الصفايح، بس يقعدن عماتو وخالاتو.

في ذلك الزمان كانوا يطلقون على الملدوغ لقـب السليم تفاؤلًا، ولا يتركونه ينام مطلقاً، لـلاعتقاد الذي كان سائداً بأن المتأثر بالسم إذا نام أو أغمض عينيه، فإنه سيصاب بالعمى، لذا كانت مهمة شمة ومن معها من النساء أن يبقين رحمة مستيقظـاً الليل كله، فأخذن يشغلنه بالدهن والحديث والضرب على الصفائح الفارغة التي تحدث صوتاً مزعجاً لا يدعه ينام أو يستسلم لغفوة، وهكذا استمر ذلك الليل وكانت الناس تسمع الأصوات وتتمنى ألا تتوقف، فتوقفها يعني موت السليم. صار ليل السليم جزءاً من أدب العاشقين، فيقول العاشق: ليلي بعدكم صار كليل السليم. أي أنه قضاه سهراً.

وقتها كان رحمة مشغول الفكر بشيخه ونبوءته، ويخامره إحساس بأنه

لن يموت حتى تنجب له شمة الابن البشارة، وعزم أن يقضي أياماً حال أن يتعافى بممرح الطيبية قرب ضريح شيخه الراحل. في الصباح كان رحمة قد استعاد كثيراً من عافيته، فهدأت زوجته شمة وعاد أطفالهم الذين توزعهم الأهل في الليلة السابقة، فهشاشة قلوبهم لا تحتمل ذلك المشهد. أخبر رحمة زوجته بما عزم عليه فردت عليه قائلة:

- قطع شك زيارتك للضريح ما بكون فيها إلا الخير والبركة، بس يا أبو بطران جسمك يا الليلة بمرح فوقو السم، ارتاح لك زمن وسافر في شان تقدر تجدف.. سواقة المركب مي ساهلة. لشهر أو يزيد ورحمة يحلم بزيارة ضريح شيخه بممرح الطيبية، حلم كان يقلق منامه ويجعله في ترافق مع السهر، وفي فجر أحد الأيام جـدَّ منه العزم على السفر، غير أن صوت صغيرته عائشة وهي تتحدث إليه بصوتها الطفولي أزعجه، فقد فهم منها قولها:

- أمي عيانة يا أبوي.

وجدها تتكئ على ظهر الدردر من خارجه، تتقيأ بألم فنظر إليها فابتسمت وقالت:

- البنية يا أبو بطران مطرطشة ساكت، أنا ماني عيانة.

- إنتي بتدوري تطمنيني ساكت في شان عارفاني بدور أسافر.

- لا والله يا أبو بطران، سافر وودعتك لي الخالقك، بس أمش جيب لي طينة بحر أنا بتوحم ..!

(٧)

لم يكن يخالج رحمة أدنى شك بأن الملك هو من يتحرك داخل أحشاء زوجته شمة، لذا كانت دواخله تمور بسعادة لا توصف، عبر عنها بأهازيج طروبة وهو يتجه بمركبه غرباً نحو أرض ممرح الطيبية. كانت نفسه تحمل عبارات ثناء ووفاء، قرر أن يناجي بها قبر شيخه أحمد الطيب. وصل إلى هناك بمشاعر متباينة ومختلفة تمتزج فيها أحاسيس الفرح بأحاسيس مؤلمة ومحزنة. أحاسيس الفراق المر، فقد فرق الزمان بينه وبين شيخه، فظل يتذكر مجلسه وتختال في رؤاه إيثاره وعطفه. يبكي أحيانـــاً، وطوراً يبتسم. غير أن ما كرس الفرحة في قلبه، تلك المكانة الرفيعة التي ظل يحتفظ بها في قلوب أحباب الشيخ الطيب وخليفته ابنه الشيخ نور الدائم، فظل في معيته عشرة أيام، يبادله وداً بودٍ، ووفاءً بوفاءٍ، حتى ناداه صوت شمة، فأسرع بخطاه نحو النيل وبدأت عودته إلى جزيرة واوسي. أحس رحمة طوال أشهر حمل زوجته بأشياء لم يكن يحس بها من قبل، وكانت تنتابه أحاسيس حسب أنه قد نسيها، إذ تضاعفت مودته وتعمق حبه لشمة، فكانت تقول له أحياناً:

ـ يا العشا أنحنا كبرنا شغل الصبيان ده خلو..!

حديثها كان يزرع الابتسامة في وجهه، فهو يعلم أنها تتجمل ولا تعني ما تقول.

كانت الأرض تهش تحت معوله، والماء ينساب رقراقـاً إلى زرعه الذي لم يهاجمه الجراد في ذلك الموسم، ولا غشيت الأمراض سنابله، ففاض إنتاجه حتى تصدق ببعضه، بنى قطية ودردراً آخر وأحاط منزله بالصريف، وصار كوجهاء الجزيرة في ذلك الزمان. تعثر رحمة في ثوبه

بقلب خافق وهو يهرول في ليلة من ليالي شهر يوليو الممطرة قاصداً قطية نائية تقطنها التاية أم شموم، تلك المرأة البدينة السمراء، وعندما أدركت فيه لهثه ابتسمت وعاجلته قائلة:

ـ شمة بتتوجع يا رحمة مو؟

ـ آي والله متألمة شديد حصليها.

التاية تدرك عملها جيداً وملمة بطبائع نساء الجزيرة وأحوالهن. حملت حبلها وتبعتها ابنتها شموم، التي ورثت بدانتها وترغب في وراثة مهنتها.

أراد رحمة أن يتبعهما فمنعته التاية برفق وسارت في طريقها. ظل هذا اليوم محفوراً في ذهن التاية إلى أن توفاها الله بعد خمسين عاماً. كانت فخورة بيديها طوال هذه الفترة، وتردد في مجالسها فخراً بأن يديها أول يدين تمسان جسد الزبير ود رحمة. وقف رحمة يتلفح الظلام خارج منزله، والقلق والترقب يأخذان بتلابيبه، والطين يلطخ حذاءه. كان يكثر من الدعاء بصوتٍ عالٍ، كأنما يريد أن يُسْمِع به السماء. طال قلقه قليلاً وعندما سمع الصرخة اشرأب بعنقه فوق الصريف وأخذ يصرخ:

ـ ولد يا التاية مو.. ولد مو؟

لم يسمع رداً، فعاود السؤال بصوتٍ أعلى، فجاءه رد التاية وفقاً لحدسه:

ـ آي ولد يا ود منصور، ولداً حسِين وزين.

وأضافت شموم:

ـ ولدك أصابعينو طوال يا رحمة..!

تخلص رحمة من الصريف وخر ساجداً يشكر ربه، ثم انفجر باكيــاً بوجه امتزج فيه الطين ويقول:

ـ أريتك يا شيخي لو كنت حضرتو، الله يرحمك يا الشيخ الطيب..ألف رحمة تنزل عليك يا شيخي.

بدت شمة بت فتاحة في ذلك اليوم الوعاء الذي حمل هدية جزيرة واوسي إلى العالم بمشرقه ومغربه، هدية للدين والوطن والإنسانية. كانت تتأوه بآلام المخاض العسير ولكنها كانت تكتم آهاتها بخِرقة دستها بين اللسان وباطن الفك. إنها كهذه الجزيرة التي صمدت في وجه الأعاصير وضربات أمواج النيل، قبل أن تنهزم وتتثاءب وتلفظ أهليها لما وراء النيل، محتفظين باسمها إلى اليوم. حبيبات العرق كانت تغطي شمة من أعلاها حتى أخمص قدميها، والحبل القديم بقسوته يشدها إلى أعلى. عندما بدأ مولودها يغادر بطنها بدا كلؤلؤة من محار لا يجود الزمانُ بمثلها إلا مرةً واحدةً كل ألف عام.. وما أن صرخ صرخته الأولى حتى انسابت إليها كنغمة ممو سقة ترددت كقافية موزونة طروب، فانزاحت معاناتها وارتسمت على شفتيها ابتسامة تهزأ من ذلك الحبل وتستخف بكل ألم. قيل أن الزهر في ذلك اليوم قد نبت في غير موسمه، وأن سماء الجزيرة جادت بمطر غير مسبوق في ذلك الشهر الذي كانت تلهب سمائمـه الوجوه. حدث هذا والقرن الثامن عشر يقبر من أعوامه واحداً وثلاثين عاماً، وعرف ذلك المولود كيف يتمسك جيداً بثدي أمه ويرتشف بنهم، ولا ندري أكان ذلك حليبــاً صرفــاً أم أنه ممزوج بماء الفروسية والتقوى والفحولة والأمارة. لم يكن فجر الثامن من يوليو كأي فجر آخر في حياة أهل جزيرة واوسي وأسرة رحمة ود منصور، كان فجراً كالبشارة لم يغشَ الزراع أراضيهـم،

إنما شدتهم إلى منزل رحمة صراخه وبكاؤه الليلي، حضروا إليه زرافات ووحدانــاً، وفي عقلهم الجمعي نبوءة الشيخ، بعضهم كان يكتمها في صدره زمانــاً، وبعض الذين كذبوها غابت عن أذهانهم ونسوها، ولكنهم جميعاً في ذلك الفجر أخرجوها من صدورهم وتذكروها وتحلقوا حول رحمة مباركين ومهنئين، وكم كان رائعــاً احتفالهم بهذا القادم المنتظر، إنهم قوم تتحرك مشاعرهم وتعتمل قلوبهم البيضاء بالفرحة والسعادة لكل مناسبة سعيدة مهما صغرت، فما بالك وهم اليوم يستشرفون البشارة، كانت أرض الجزيرة - كل أرض الجزيرة - مسرحــاً للأهازيج والمدائح والشعر، كان يوماً مشهوداً وحدثاً أسطوريــاً لم تشهده الجزيرة في تاريخها، وعندما طار الخبر لأرض ممرح الطيبية، تحركت المراكب بالأحباب والنساء والأطفال صوب جزيرة واوسي، منضمين هناك لأهل القرى المجاورة، فنُحرت الإبل في فضاءات الجزيرة جنبــاً إلى جنب مع الأبقار المذبوحة، والخراف معلقة بعد ذبحها على فروع الأشجار مستسلمة للسلخ، فتعطرت أجواء الجزيرة بروائح الشواء، كانت الإبل ترزم، والخيول تثير النقع، والنساء يطلقن الزغاريد، ورحمة يدمع وشمة تبكي وبعض الأطفال يضعون إكليــلاً تاجيــاً من الزرع الأخضر على رأس المولود. اقترب أحدهم من رحمة وهو يقول له:

ـ دي ما حصلت قبال كدي يا ود منصور، ما ترى النسوان فوق جزيرتنا دي وفي غيرا من الحلال بلدن كل يوم.

ـ يا أخوي كل زولًا في الدنيا دي بجي بي نصيبو.

ـ أها شن بتدور تسمي جناك ده؟

ـ من غير أحمد الطيب شن بدور أسميهو؟

من خلفهما انطلق صوت قبل أن يضع صاحبه كفه على كتف رحمة:

ـ لا لا يا رحمة.. اسمو محفوظ في اللوح، اسمو الزبير يا رحمة، سمو الزبير يا رحمة بكون زي الزبير ابن العوام.

نظر رحمة خلفه فأدرك أن محدثه غريب الوجه، هيئته كهيئة الدراويش، وقبل أن يرد عليه كان جليسه يهمس له قائـلاً:

ـ أقسم لك الزول ده نبي الله الخضر..!

وكم كانت دهشة رحمة عظيمة عندما استدار بوجهه ناحية الدرويش، فلم يلفه، فقد اختفى الرجل وكأن الأرض قد انشقت وابتلعته، فعاد بدهشته ونظره إلى رفيقه، فأدركه مبتسماً ويصرخ قائـلاً:

ـ أبشر يا أبو الزبير.. كمان أبشر يا أبو الزبير.

أحالنا الحدث إلى ما قاله الزبير باشا نفسه عندما شارف على الثمانين من عمره، ولم يتبــقَ له من القبر إلا خطوة أو خطوتان: وعندما شارفت الخامسة والعشرين تزوجت بابنة عم لي واخترت التجارة لتكون مورداً لعيشي، وخيِّل إليّ أنني بذلك قد انتهيت من تحديد أمر مستقبلي ومن تعيينه، كما أهوى وأختار، ولكن كم كنت واهماً..! وأنني لا أنفك أتساءل حتى اليوم، عـلى الرغم من أنني شارفت على الثمانين، ترى ما الذي نملكه من أمر أنفسنا؟ وإلى أي مدى نستطيع بآمالنا أن نتحكم في مستقبل لا يملكه إلا الله..؟!

(٨)

في تلك الأجواء الأسطورية المفعمة بالروحانيات والمتسربلة بالصوفية ولد الزبير. بعث ذلك المولود البشارة سحره في أرجاء الجزيرة الخضراء، وتنامــى الدفء في كل ركن من أركان منزل والده رحمة ود منصور، وبدأت والدته شمة تتخير الأساليب الخاصة التي تناسب هــذا الطفل، لا تمييزاً عن إخوته، إنما تفاعلاً مع تلك البشارة الكريمة التي أشاعت ما أشاعت في النفوس. كانت نفس شمة تنطوي على حب عظيم لهذا المولود، مخفية تفضيلها له وإن كانت تغني له برؤية ثاقبة:

ولدي حجر الصاقعة الرزم..سكاهم سكة غنم..وجاب وشوشهم سجم..

لم يكن والده ينظر إليه إلا كما ينظر المرء إلى أعز هدية، أو إلى أفضل ما يملك في الحياة، وبدأ عزمٌ يقوى في كيانه: الزبير لا بد أن يتعلم. خلوة الفكي محمد تناسبه عندما يبلغ الخامسة. كان يعد الأيام والشهور ليبلغ هذا الهدف، وهو يعلم أن الأمر لن يتحقق إلا بهجره لهذه الجزيرة. ولكن كيف يهاجر من دمه..؟! لقد ارتبط كيانــاً وروحاً بهذه الأرض، ولكن من أجل الزبير يهون كل شيء. لم يستطع أن يخفي عزمه عن صنو روحه شمة، فوضعت يدها وجلاً فوق صدرها وقالت:

- كيفن بنسيب الجزيرة ونمرق منها.

- إنتي يا بت الملوك ماك شايفة عويناتو ببرقن كيفن..؟

- أكان ماك أبوهو كت بقول عليك بتدور تسحروا..!

– لا لا، بس بقول يخش الخلوة في الجيلي وإنتي عارفة أخواني قاعدين فوقا، يعني الجيلي مربعنا زي ما واوسي مربعنا، كلنا أهل بس الواطة وسعت بينا والرزق شتتنا، وأنا والله ما هين عــليّ أفارق واطاتي.
الصمت الذي ران على شمة أنبأ رحمة أنها قد غرقت في تفكير حتماً سينقلها للموافقة على الانتقال بعد سنوات قليلة إلى الجيلي، ولم يطل تفكير شمة واتخذت قرارها:

– الجيلي مي بعيدة، وأهلك الناعماب والجميعاب والشهيناب ياهن زي أهلي، ومعاشرتن سمحة وزينة، وفيها خلوة الفكي ود عيسى، نمش ندّو الزبير.

– آي والله محمد ولد عيسى ولد أبو سكيكين عالم مشكور وإيّاهو البعلم الزبير.

عادت شمة إلى صمتها ولكن الصمت لم يكن وحيداً هذه المرة، فقد كانت تطوف حوله الأشجان. نظر إليها رحمة فأحس بوخزة تشبه تلك الوخرة التي تهاجمه كلما تذكر طفله المتوفى عبد الرسول. نهض قبل أن تفضحه دموعه وغادر الدار يجوب أرض الجزيرة، كأنما يودعها متملياً ميادينها ورمالها ومياهها التي كانت ملاعب طفولته، تلك الملاعب التي كانت مسترفداً لخياله ومنبعــاً لذكرياته. طائر الجنة يحل في الخريف يتبعه السمبر الأسود والقطا والجبركل والدباس وطير البقر. هذه شجرة سدر وتلك شجرة أراك، تلك أرضي، هذا زرعي وأنين الساقية يتساوق وغناء الأورتي وآهات الثور..هنا لدغتني الحية..تلك مركبي كم تأرجحت بي على صفحة النيل. طيور الرهو والخداري تتخذ في الأشجار أعشاشــاً وأوكاراً، تغدو في الصباحات وتأتي عند الأصائل محملة بالغذاء لصغارها، إنها مثلي وقد علمتني سعيها. نظر رحمة إلى السماء كانت صافية ولكن في موسم الخير ستتوشح

بالسحب السوداء، وسيتراقص فيها البرق بخفة ولمعان يتبعه الرعد. حينها ستثغو الشياه وأذنابها مرفوعة وآذانها منتصبة، لتنذره بالقادم من السماء..يا إلهي سأرحل عن كل هذا رحماك يا ربي. اتخذ رحمة من النيل مرآةً بعد أن غسل وجهه من مياهه، فقد رغب في العودة إلى شمة وصغاره بوجه لا تبدو عليه آثار الحزن. قبل أن تقع أشعة الشمس على الصريف وتتسلق الدردرين والقطية، كان رحمة ينهض من فراشه ثم يصلي، وعندما يصل لأرضــه يغني لها فتطرب ويضربها فتئن وتصرخ ثم يعود. الشمس تشرق وتغيب ويغيب معها يوم ويدور الزمان ويأذن لعام أن يمضي بغير عودة، وآخر يبدأ في الدوران والزبير يكبر ومخائل الذكاء فيه تزداد وضوحاً، وعيناه تلمعان أكثر.

(٩)

بدا الزبير قبل أن يصل للخامسة طفلًا يقوى على صحبة والده وشقيقه بطران إلى الأرض والنيل، يسعد برؤية الشياه ويلاعبها حتى حفرت حادثة أخدوداً عميقــاً في نفس رحمة ونفس الطفل الزبير معاً. يا له من منظر بشع ذلك الذي وقع على أعينهم، فقد بدا لهم ذلك التمساح الضخم الذي بدأ يشق سطح النيل مسرعــاً كالشهاب أو كمركب تدفعه أمواج عاتية، وفي لمح البصر اختطف شاة عزيزة على نفس الطفل الزبير وعاد بها بقسوة بالغة حاملها بين فكيه إلى جوف النيل، ودم أحمر قانٍ يختلط بالماء العذب ويرسم لوحة مرعبة على سطحه.

بكي الزبير بكاءً مراً وأخذ رحمة يواسي طفله الصغير، أخذه بين أحضانه وبقوة لم يتوقعها الأب تفلت الطفل وتخلص من تلك الأحضان، وهرول صوب النيل وقذف بجسده الصغير فوقه. أسرع رحمة خلف طفله يبحث عنه بين طيات النيل لينقذه من غرق يكاد يكون محققاً، حتى انتشله ثم قال له لائــماً:

- إت مجنون يا جنا؟ شن السويتو ده؟

رد باكياً دون أن يسيطر على دموعه:

- بدور أكتل التمساح ده الأكل معزتي..!

بمساعدة ابنه بطران استطاع رحمة العودة إلى داره بطفله الزبير، الذي استحال بريق عينيه إلى حُمرة ولا يفتأ يضرب بكفه الصغيرة ساقه - صارت هذه عادة لازمته طيلة حياته - بكى طويلًا بين أحضان أمه شمة، تلك الأحضان التي قال عنها الزبير عندما صار تاجراً كبيراً،

وملــكاً عظيــماً وهو ينعم بوسائد من ريش النعام:

- حضن أمي كان أنعم من هذه الوسائد.

نام الطفل بعد أن أخرج من صدره تنهيدات حارقة وزفرات حرى. قال رحمة وهو يستعيد تفاصيل الحادثة ويحكي بها لشمة وفرحة غامضة تهز كيانه:

- الجنا قلبو حار يا شمة.

- ربنا يحفظو ويكفيهو شر العوارض.

تلك الليلة كانت فوق ذلك تحمل نذراً حارقة تنذر بالرحيل، فقد أزف وقته وبلغ الطفل الخامسة. تحدثا كما يتحدث الهاربان من موعد تتآلف فيه الحتمية والأحزان، وبدت الجزيرة كشيءٍ عزيز يوشك أن يتسرب من بين أيديهما ويذهب، قال لها:

- سنرحل.

- ووب عليّ أنا من الرحول.

- الخلوة في انتظار الزبير وأنا رسلتا للفكي محمد وحدستو.

- متين السفر؟

- باكر.

- واطاتك ومطمورتك شن سويت فيهن؟

- أجرتهن.

- يعني خلاس باكر باكر؟

- أيوه يا بت الملوك.

- وناسك؟

- بودعهم الصباح، بس إنتي والعيال خليكم مستعدين..السماني ود جاه الرسول بجيب الجمل والتور في شان يخت فوقهم حاجاتك ويوديهم المركب. عندما أحس رحمة بمشاعر الأسى تعتمل فوق وجه زوجته شمة، قال لها:

- أهلنا الناعماب والشهيناب يا شمة فرحانين بينا وبقابلونا في المُشْرَع بي حميرم أول ما نقطع في شان يودونا لي منزلتنا في الجيلي.

صمتت شمة ثم أطرقت برأسها إلى أرضية الدردر وأسقطت عليها دمعة، وعندما تخلصت من صمتها قالــت:

- خلني الليلة براي يا أبو بطران بدور أبكي..!

(١٠)

بدا فجر الرحيل كئيباً، كأنما قد ولد من رحم ليلة ضاجعتها أشباح الظلام..نشط المودعون والمودعات وتنافسوا في إبداء أساهم وحزنهم، وتحرك الجمل والثور يقودهما السماني ود جاه الرسول متجهاً بهما محملين بأغراض أسرة رحمة صوب النيل والمركب الراسية قرب شاطئه، ليفاجئــه الطفل الزبير بإصراره اعتلاء ظهر الثور..! وصل الركب إلى الشاطئ لم يتخلف في صباح الوداع سوى القلة من أهل الجزيرة..الصغار كانوا فرحين وهم داخل المركب، ورحمة يمسك بمجداف والسماني يمسك بالآخر:

- يا السماني بعد ده المركب دي هولك وبيتي هولك.

- بعرفك يا عمي راجلًا جنب كريماً أجرب وربنا يوصلكم بالسلامة، وأنا ما بصد للجزيرة إلا أسلمكم أهلنا الناعماب والشهيناب.

بينما كانت شمة تعاقر أشجانها والمركب يسير على صفحة النيل والصغار يترجمون فرحتهم ضحكاً ولعباً، كان الطفل الزبير صامتــاً ينظر بعينين ملأهمــا الغضب إلى النيل، وتدوران على صفحته الممتدة كأنما تبحثان عن شيء، وفي مخيلته الصغيرة شاته العزيزة التي نزفت دماءها وهي بين فكي ذلك التمساح.

لم يخطر على بال الزبير أنه بعد سنوات عديدة في مجاهل نهرية موغلة في الخطورة والتوحش سيأخذ بثأره ويقتل حفيد ذلك التمساح، وترتاح نفسه من غلها، وينقذ رجاله ونفسه من جوع كاد يهلكهم، فكانت ضربة بضربة والبادئ أظلم..!

هبط ركب رحمة ود منصور وأسرته على الشاطئ وأسعدهم ذلك الاستقبال الذي وجدوه على اليابسة من قوم نبلاء كرماء، فقد استقبلوهم كما يستقبل الأعراب في البيداء صوب الغادية..تعالت أصواتهم بالترحيب، حتى حميرهم نهقت، وجمالهم أرغت، وأصدرت نياقهم حنينها، وحركت كلابهم أذنابها. فأحسوا بالاطمئنان والأمان، وتحركت الوجوه بالابتسامات، والشمس تبعث بنورها من وجه شمة الوضاء..الأطفال أخذتهم فرحة غامرة، وبدأ جاه الرسول يجدف ويبتعد موغلًا بمركبه داخل النهر وهو يعود بدموعه للجزيرة.

كانت عينا الزبير تتحركان يمنــةً ويسرةً وهم على مشارف الجيلي غير البعيدة، كأنما كان يريد اكتشاف هذا المكان، ولم يكن يدري أن اسمه ذات يوم سيرتبط بهذه البلدة ارتباطـاً سياميـاً، وسيصير أشهر أعلامها وسيعمرها بالقصور ويرفد أهلها وهم آلـه، بالبر والإحسان، ويبادلهم حباً بحب، وبعد عقود من الزمان سيموت في أرضها ويقبر فيها بعد تشييع مهيب.

بدأ رحمة يصيغ علاقته بالناس والأشياء من حوله، وعندما تم له الاستقرار اتجه بطفله الزبير إلى خلوة الفقيه محمد ولد عيسى ولد أبو سكيكين:

- ليك اللحم ولينا العضم.

ما زال الطفل الزبير يجوس بعينيه ووالده لا يترك كفه الصغيرة، وعندما وقعت العينــان الذكيتــان على السوط قال:

- أنا ما بخاف من السوط..! ابتسم الفقيه في وجه الطفل الزبير، وهي ابتسامة لم يكن يمنحها لأحد من تلاميذه إلا نادراً، فقد هجس له هاجس أن الطفل الذي يقف الآن أمامه طفل متميز، وقد قالت الناس

إن الفقيه محمد مثل والده تماماً من الأصفياء أصحاب الكشف. نظر إليه الزبير نظرة عميقة فرأى في عينيه أبوة حنونة وصادقة، فتخلص من كف والده وتقدم نحوه بحلمه العزيز وأمنيته العذبة، اللتين كرسهما في عقله والده، وهما امتلاك لوح خشبي يكتب عليه ودواية تفيض بالعمار يغرس فيها بوصته. فانتحى الفقيه بوجهه إلى رحمة وهو يضع كفه فوق رأس الزبير ويقول:

- خلاس يا ود منصور إنتا أمش.

لم يشعر الزبير بالوحدة أو الوحشة بعدما غادر والده المكان، فرفع رأسه إلى أعلى يبحث عن ابتسامة الفكي محمد فوجدها حيث هي، فخامره فرحه الطفولي وشيخ محمد يقول له مدعماً قوله بالإشارة: أمش ألحق الأولاد في الخلوة. انطلق الزبير وانضم هناك للطلبة بتوق عظيم، لم يشف منه إلا بعد أن امتلك لوحاً ودواية، لتبدأ منذ تلك اللحظة رحلته الفقهية والعلمية الباذخة التي أهلته بعد سنوات طويلة أن يفلح في إقامة دولة تحكم بالشريعة الإسلامية، وأن يلعب دوراً في نشر اللغة العربية والإسلام في أرجاء جنوب السودان، وأن يضع اللبنات المهمة لتطور البلاد وتمدينها، وأن تصير قصوره في مصر دُوراً للمنتديات الدينية والعلمية والأدبية، يؤمها الأدباء والعلماء والصفوة وعلية القوم. لم يكن تفاؤل الشيخ الفقيه محمد ود عيسى كافياً ليصل به إلى أبعد من توقعاته، بتميز الطفل الزبير الذي فاجأه بعد وقت قصير بمقدرة تفوق الوصف في الحفظ والفهم، وكان أول تلامذته الذين يغسلون لوحهم كنايةً عن حفظه، ليعود ويستكتبه من جديد سورة جديدة. ولعل تشجيع رحمة ود منصور لابنه الزبير في حفظ القرآن الكريم كان له أثر إيجابي فعال، فقد كان يهديه في كل مرة يضع فيها شيئاً من القرآن الكريم في صدره شاةً أو معزةً، وكانت هذه السوائم أول أملاك الزبير في الحياة، ومع هذه الأملاك استبان شيء لرحمة، فقد

أدرك أن الطفل الزبير لا ميول له نحو الرعي أو الزراعة، إنما كانت نفسه تميل به إلى حب التجارة والفروسية، فقد باع الطفل الزبير ما امتلك من سعية وادخر ماله لدى أمه شمة التي سألته:

- شن بتدور بالقروش يا الزبير؟

- بوريك يا أمي بعدين. وصل الطفل الزبير الذي اقتربت سنه من السابعة إلى دار والده من الخلوة ذات نهار، كان صامتاً لم يقل شـيئاً، وخرج عصراً يلعب مع أترابه ويستمتع بالنظر كعادته لشباب البلدة وهم يعتلون صهوات خيولهم، وعاد قبل مغيب الشمس وطلب من والدته أن تعيد إليه أمواله ففعلت بـاستغراب. ساعة العشاء كانت ساعة سمر وسعادة في دار رحمة، الابنـان بطران والزبير يتلاطفان، والبنتـان عائشة وفاطمة تخدمان الدار بسرور مع أمهما. أهل البلدة لا يعرفون السهر، فآوى الجميع إلى فراشهم، لم يهدأ للزبير بال في تلك الليلة، وترافق مع السهر كثيراً، ثم قرر الخروج من الدار. أحست أمه بخروجه وكانت تظن أنه خرج لقضاء شيء لا يجوز فعله هنا، ثم أخذت تترقب عودته، ولكن ترقبها طال ولم يعد الزبير، فأصابتها خفقة وصادها خوف، فتخلصت من جوار زوجها النائم ويممت وجهها شطر باب الدار، وخرجت هائمة على وجهها في طرقات البلدة تبحث عن فلذة كبدها، وتوغلت في الظلام حتى صارت قطعة من ذلك الظلام الذي زاده الهدوء رهبة. هدوء صافٍ لا يقطعه سوى نهيق حمار، أو مواء قط، أو ثغاء شاة. البلدة أغلب مبانيها طينية تفوح منها رائحة روث البهائم. لم تهتم شمة بتلك الأجواء الباردة التي انتظمت تلك الليلة، فما كان في كيانها من لهيب كان كافيـاً لمنحها دفئـاً كاذبـاً. كان يصحبها طيف ابنها الزبير الذي غاب أثره، فأوصلها البحث قريبـاً من النيل، حيث زرائب السوائم، وهناك وجدتْ الزبير فاندفعت نحوه بقلب خافق ولهفة عظيمة:

- شن الجابك هنا يا ولدي؟

- بفتش على زريبة الفضل ود موسى.

- شن بتدور بي الفضل؟

- بدور أشتري منو الباسلة.

كان الفضل عندما يجوب البلدة بحصانه الأشقر، تتبعه مهرته التي أسماها الباسلة التي وقع الزبير أسيراً لهواها، وكان يمني نفسه بـامتلاكها. كان منذ صغره ينظر إلى الأشياء الكبيرة وينمو في كيانه عشق الفروسية حتى باتت الخيل والليل والبيداء تعرفه:

سموك الزبير فارسـاً تشد الحيل..وسموك الزبير فارسـاً تصد الخيل..وسموك الزبير صالحـاً تقيم الليل..وسموك الزبير بتغير هوية ليل..

ضمت شمة ابنها الزبير إلى صدرها بحنو بالغ وهي تقول له:

- يا ولدي هسع خلاس الفكي محمد أجازك وأبوك بدور إوديك لي كتاتيب الخرطوم، في شان تتعلم أكتر وتبقى زولًا كبير، بعدين لمن تجي تعال اشتري الشيء البتدور تشتريهو.

بدأت نفس الزبير تمور بمشاعر جديدة، وآمال أخرى بدأت أطيافها تطوف حوله، فعاد مسروراً مع والدته إلى الدار ونام نومـاً لا قلق فيه ولا اضطراب. في اليوم الأخير من أيامه في خلوة الفقيه محمد ولد عيسى، سمع الزبير وأقرانه منه قوله: خلاص الشيء الكتير الحفظتوهـو ده لازم تجودوهو كل يوم في شان ما تنسوه.

تبادل الزبير وابن عمه محمد عبد القادر حبيب الله نظرات تعني الانطلاق إلى

ملاعبهمـا الأثيرة قرب النيل. كانا صديقين زادتهمـا الخلوة محبة والتصاقاً، وكان الزبير يدخر لصديقه وابن عمه محمد رواية تحكي تفاصيلها عن مغامرته الليلية بغرض شراء الباسلة. هناك قرب النيل اجتمعا يراقبـان الزراع وهم يحصدون ما زرعوا بهمة ونشاط. أصاخ محمد إلى رفيقه الزبير وهو يورد التفاصيل بدقة ثم يسأله بشغف، ولكن ثمة أصوات دفعت بهما إلى دائرة الصمت والترقب، أصوات قابلها المزارعون بصمود وشجاعة، كان أصحاب تلك الأصوات المزمجرة - وبعضها أعجمي أجش - غرباء يركبون فوق جياد قوية ويحملون العصي والسلاح، ويلبسون الطرابيش ويسألون الجميع بفظاظة عن الضرائب.

قفل الزبير ورفيقه محمد عائدين يملأهما الأسى، ولا يرتد طرفاهمـا عن النيل. ينظران إلى هذا الكائن الأسطوري ولا يعرفان من أين أتى وإلى أين سيذهب، ولم يدريا أنهما ذات يوم سيركبان سطحه بأمواجه العاتية، وثبجه العالي في رحلة طويلة تحفها المخاطر ويسطرها التاريخ وتردد تفاصيلها الأجيال.

بتلك المشاعر افترقت خطى الصديقين الصغيرين وعاد الزبير إلى داره مصطخبـاً بالأسئلة، كبحر يجيش مواره بالزبد. عاد رحمة متعبـاً بعد أن ألقت الشمس بدمائها فوق أفقها الغربي:

- أبي لماذا تأخرت؟

- أنت تعرف. لقد رأيتك هناك مع محمد ابن عبد القادر وقد رأيتم كل شيء.

- الترك والمصريين ليه بشيلو حقكم، ومالم قاعدين يكوركو كده؟

- أنت صغير لن تفهم.

- سأفهم يا أبي.

- إذن تعال فسأحدثك عن الأمر.

(١١)

جلس الزبير وأخذ يسمع من والده ما أشكل عليه فهمه، حتى أدرك أنهم تحت سلطان الباب العالي، وأنهم رعية الدولة الإسلامية التي يجب طاعتها وطاعة خليفة المسلمين وخديوي مصر المفوض من الأستانة، وأن الضرائب التي يجمعها الأتراك والمصريون إنما هي أموال لصالح الدولة الإسلامية. في ذلك اليوم غرس رحمة في نفس ابنه الزبير بذرة الولاء للدولة الإسلامية، وكانت أسماء الولاة والباشوات التي تخرج من فم والده تبدو له كأسماء نجوم بعيدة في السماء، ولم يدر بخلده أنه في يوم ما سيجري في قرن مع أولئك الباشوات والولاة، ويصير مثلهم، يهاديهم ويهادونه، يأكل في موائدهم ويأكون في مائدته، إنه بحق أمر عصي حتى على الخيال. غير أن ما تكرس في نفس الزبير هو طريقة جباية الضرائب والإسراف فيها، وعد الأمر قسوةً وظلماً، وحلم كما يحلم المتمني بزوال تلك القسوة وإزالة هذا الظلم. لم يستغرق الطفل في التفكير كثيراً، فقد فاجأه والده بالاستعداد للسفر في غده للخرطوم بغرض الالتحاق بمدرسة الكتاب. قبل أن يتسلق الزبير جبلًا آخر في رحلة مجده الأثيل، ساقته خطى الفرحة فجراً إلى أترابه وبينهم صديقه ابن عمه محمد عبد القادر، وأخبرهم بعزم السفر، فأشعل في أنفسهم ما أشعله من نيران الغيرة التي استحالت في مقبل السنوات إلى وفاءٍ وتقدير عظيمين، بلغ حدهما التضحية بالأموال والأرواح.

في تلك المدرسة وأجوائها الجديدة التي تناغمت مع روح الزبير الوثابة للعلم، أجاد الزبير القراءة والكتابة، وبرع في مبادئ الحساب وعلوم الدين والجغرافيا والتاريخ والطبيعة. وقبل أن يكمل الزبير عامه الثاني بقليل في تلك المدرسة، ضربت أذنيه أحاديث طرب لها وجدانه، وفرح

لها كيانه. حدثوه عن خلاوي الغبش العرماب بالنيل الأبيض، وفيها خلوة الفقيه العالم محمد أحمد أبوقرين السماني.

السمانية طريقة صوفية كان لاسمها وقع السحر في قلب الزبير، ولم يكن خافياً عليه أن والده سماني وفي للطريقة السمانية، وأن علاقته بمؤسسها الشيخ أحمد الطيب ابن البشير يعرفها القاصي والداني، لذا قرر الزبير أن يضحى سمانيـــاً كوالده، ومن شابه أباه فما ظلم. كما كانت روحه تتوق بشكل مستمر لـــلاستزادة من العلم وتجويد القرآن الكريم، فأخذ يعد نفسه للهجرة للنيل الأبيض لينخرط هناك طالباً في خلاوي الغبش العرماب.

عندما أكمل عامه الدراسي الثاني، كان قد بلغ التاسعة من عمره وتمسك بدرب الهجرة وهو يفتح بابـــاً نحو الصبا، ويتبع هذا النيل الذي بدا له كأفعى أسطوري ضخم لا ذيل له ولا رأس. بدأت رحلة الزبير نحو مبتغاه في مناحي النيل الأبيض، بعدما أغرى رفيقين من أقرانه بالمدرسة لصحبته. كان هنالك حب من نوع آخر يترعرع في نفس الزبير، وهو حب التجارة التي اتخذها فيما بعد مورداً لرزقه، وما فتئت أن حملته نحو المجد، لذا اختار أولًا وهو يغادر الخرطوم أن يشق أسواقها، وشهر ديسمبر من عـام ١٨٤٠م ينفث برده بقوة، وزمهريره يلفح وجوه الصبية الثلاثة بقسوة. نظر الزبير حواليه فبدت له إحدى أسواق المدينة كبيرةً تمور بالقوافل، والمتاجر، ووجوه تتباين سحناتها، أرمن، وهنود، ومصريـــون، وأرناؤوط، وأتراك، ويونانيـــون، وشركس، وسوادنة، وفرق من الجيش تغدو وتروح. في أرفف المتاجر كان يرى الأقمشة، والخردوات، والخرز، وسن الفيل، وريش النعام، والعطور، واستعاذ بالله وهو يرى بينها خموراً. وعندما حانت منه التفاتة أخرى، رأى بعض الفتيات السود وهن شبه عاريات، يعرضن للبيع في سوق النخاسة، إحداهن بدا عليها سأم من تسربل الضيم في

دمها، وهي تجرجر جسداً أبنوسياً فاتناً مصلوبـــاً على شهوة الأحداق وشبق الآهات..يتحسس أصحابها جيوبهم استعداداً للشراء، فأشاح بوجهه بامتعاض وسارع يجد في سيره يتبعه رفيقاه. الزبير منذ أن خُلق إلى أن توفاه الله، لم يكن يخلع ثوب العفة إلا ليلبس ثوب الطهارة، بل حتى عندما زوجه الملك كوريام ابنته ذات السبعة عشر ربيعاً، وكانت حسناء عطوفة متوددة، وزُفــت إليه في كوخه وبقيت معه ثلاثين ليلة، لم يقربها، لأن الزواج لم يتم وفقاً للشريعة الإسلامية.

بعد تلك الرحلة وصل الزبير إلى مقر خلاوي الغبش العرماب وانخرط مع الطلبة، وبدأ ذلك الذهن المتقد في حصد والتهام ما أمامه، حتى أذهل فقهاء تلك الخلاوي وطلابها. لم يمر وقت طويل حتى تفقه الزبير في علوم الشريعة الإسلامية على مذهب الإمام مالك، وإرشادات الطريقة السمانية، وأعاد حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب بعدة روايات، وصار سميره ومتعلقاً به. في تلك الخلاوي بدأ بدراسة الفقه المالكي ودواوين العشماوية وحواشيها، والعزية وشروحها، ونظم ابن عاشر، ومختصر خليل ابن إسحق الجندي. كما استوعب كل ما ألقي عليه من علوم النحو والصرف والإعراب، وحفظ متون الأجرومية والدرة البهية وشروحها، وقطر الندى وبل الصدى، وألفية ابن مالك. انعكس ما تعلمه الزبير مـــن علوم الدين واللغة على واقع حياته، فأصبح ملتزمـــاً التعاليم، فاهماً أبعادها ومراميها، مجيداً لاستخدام قواعد لغة الضاد كتابــةً وخطابــةً. وكان المستمعون إليه في ندواته الدينية الراتبة التي أقامها إبان وجوده بقصره بحلوان، يلحظون ذلك بسهولة، لا سيما وبينهم جهابذة العلماء والأدباء. ترك الزبير خلفه خلاوي الغبش بعد أن نهل منها ما نهل، ليعود للجيلي مثوى أحبته، ونبع صباباته، وماضي طفولته. عاد وهو يحمل عقل فقيهٍ، وقلب متدين. عاد بشوق لأقرانه ولربى لهوه البريء، ووجهه تتنازعه موجات الصبا ونذر الرجولة. فرح به شقيقه بطران واحتضنته فاطمة

وعائشة، ونظر إليه والده بفخر. أما شمة التي غاصت أساريرهــا، وشابت نواصيهــاَ، قبلته في النحر والخد والحشا.

حلم التجارة ينمو ويتعملق في كيان الزبير، فارتادها ببساطة ضاربــاً صفحـاً عن رعي أو زراعة، ومع ذلك لم يشأ أن يحبس علمه في صدره ولم يعرض عن كل راغب فيه، فيجلس إليهم ويعينهم على حفظ القرآن الكريم وفهم نصوصه ومعانيه. ورغم إجازته في الطريق السماني إلا أن الزبير لم يقم بدور المشائخ الذين نهلوا من المورد الذي نهل منه، فالقدر كان يهيئ له أن يلعب دوراً آخر.

الفارس في أعماق الزبير يناديه ويهتف إليه هتافــاً قويــاً. الفروسية عشق قديم وحلم عزيز منذ زمن الطفولة الباكرة، هؤلاء هم بنو عمومته وأصدقاؤه من شباب الجيلي، يا لهم من آل وأصحاب، التقاهم بالشوق كله، ولاقوه بالتجلة والاحترام، ومن بينهم أقربهم إلى قلبه ابن عمه محمد عبد القادر، ولكنه بزهم في الرياضة ومهارات الجري والسباحة وألعاب القوى الشعبية والقنص والصيد في البراري وفنون الفروسية، سباقاً واستعراضاً، حتى أضحى فارســاً لا يبارى ولا يجارى، فارســاً قوي البنية، متحملًا وصابراً ومثابراً. ذلك التفقه وهذه الفروسية جعلت من الزبير فيما بعد رجل حرب وجهاد، وبنى مجد عز مجد دين، وصان المجد بالصم الحداد. قال عن نفسه: كنت رجل حرب وكفاح، وكان الجهاد وحده هو هدفي من العيش، ولقد استغرق هذا الهدف كل وقتي، فلم يترك لي زمانــاً يتيح لي الاستماع إلى أحلام الحالمين وفلسفة المتنبئين، الذين يلتمسون الرزق في الادعاء بأن السماء تتحدث على ألسنتهم، وتأمر عن طريقهم.

(١٢)

قضى الزبير سنوات في الجيلي يتاجر ويترافق مع أقرانه، ويمنـــح علمه وفقهه لمن يريد. وعندما تخطى العشرين بانت وسامته أكثر، وفاضت رجولته ســـمتاً ونفســـاً. فاز كعادته في أحد سباقات الفروسية التي كانت تقام في المناسبات، فنظر إليه من كان معجباً به وصاح: حدباي يا هو الفارس. منذ تلك اللحظة صار اسم حدباي لقبـاً له، ترافق فيما بعد مع ألقاب كثيرة. حدباي من أحدب، أي المقوس الظهر كناية عن الرجولة. بدا الزبير فارع الطول، رشيق القوام، أسمر البشرة، وسيم وسامة الرجال، وكانت الحرائر العفيفات يعجبن بفروسيته وصفاته النبيلة، ويتحدثن عنه سراً، وكل منهن تتمناه فارساً لأحلامها، وعندما تتواثب حوافر حصانه في طرقات البلدة، أو إذا ما مر بالطريق بقامته المديدة وخطاه المتئدة التي تضرب الأرض ضرباً، تشرئب الأعناق وتتزاحم العيون عليه سراً، وهو يدرك أن هناك عيونـــاً ترصده، وقلوبــاً تهفو إليه. غير أن الزبير ما كان يلقي بالًا لــكل هذا، فقد قرر أن يكمل نصف دينه ويتخذ لنفسه زوجة. قال لوالده رحمة:

– بدور أعرس بت عمي عائشة بت منصور. برقت عينا رحمة بالفرحة ورد على ابنه الزبير قائـلاً:

– منصور ود محمد علي راجلًا بستحق يناسبوه.. وإت يا الزبير كان دقيت باب أي راجل في البلد دي وبتدور تناسبو مافي زولًا بخليك تصد مكسوف، وربنا يتمملك بي خير. يا بنت الملوك تعالي في خبراً زين بدورك تسمعيهو. أسرعت شمة الزوجة الصالحة لتلبي نداء زوجها رحمة، وكان إذا ما ناداها لباءة النداء. كان النداء المقرون بالبشارة يدفعها أكثر إلى حيث زوجها وابنها الزبير، فكادت تتعثر في

مرطها. قالها لها رحمة وشفتاه غارقتان في ابتسامته:

- ولدك الزبير بدور يعرس يا بنت الملوك.

- جيت لي وجيت ليا، أزغرد يا أبو بطران؟

- أصبري شوية يا بنت الملوك، وفي الأول أعرفي الزبير بدور منو.

- ما بسألو، الزبير نجيض.

- الزبير بدور عائشة بت منصور.

- أمانة عائشة ما بت السرور وست البنات لا حدهن.

لم تكن خطبة الزبير لعائشة حدثاً عادياً، إنما كانت حدثاً فوق العادة، وذاع أمر هذه الخِطبة وبلغ المدى وارتادت أخبارها الجزيرة وكل بقاع الجوار، وعندما بدأت احتفالات الزواج كانت شمة أكثر الناس سعادة، وفاجأت الجميع عندما وضعت في جيدها شفاً محلياً بتسع قطع من الذهب، والأذن يتدلى منها نصف هلال ذهبي كبير، ومسيرتان من شعرها تسترسلان، وشعرها الممشوط مع الجورسيه يبدو طويلًا أسوداً يتخفى ويبدو تحت ثوب الزراق، وملأت الأفق زغاريدَ وأهازيجَ. بدت تفاصيل هذا الزواج واضحة في ذهن الزبير عندما دارت الأيام دورتها وهو يعاني ويلات النفي بجبل طارق المتاخم للأراضي الإسبانية، وتقوده مشاهده إلى واقعة مؤلمة ومحزنة، فعائشة قد أهدته من الأبناء ثلاثةً، تُوفي اثنان منهما في صغرهما، وبقي له منها ابن هو سليمان، ما أن بلغ الخامسة عشر من عمره حتى اصطحبه معه إلى جنوب السودان، وعجم عوده وخلفه وراءه في الحكم عندما غادر إلى مصر، ولكن الإنجليزي «جسي» أعدمه..! يا لها من ذكرى أليمة في الثلث الأخير من عام ١٨٥٦م.

(١٣)

ذات عام زواجه من عائشة حدث أمر عجيب غير مجرى حياة الزبير. قال لزوجته عائشة في وقت مبكر من فجر ليلة رافقه فيها الأرق:

- يا بت منصور بدور أمرق.

- الشمس لا هسع ما ورتنا عينها، ولا مرقلها حمار وين بتدور تمش؟

- قلقان على ود عمي محمد.

- محمد جنا عبد القادر؟

- أي ياهو.

- شن خبرو يا حدباي؟

- البارح اتأخر ما بعرفو رجع لي أهلو وللا لسع. كنا رفاقتو منتظرنو ما رجع لينا.

- قول بسم الله يا حدباي محمد شديد ولضيض ما بتجيهو عوجة تب بإذن الله، بس انتظر نسويلك شاي وصلي الفجر بعدين أمرق.

- لا لا، بشرب الشاي وبصلي في بيت ود عمي محمد، كان لقيتو جا راجع، منو بتراوح على السوق أشوف شغلي. وضع الزبير على نفسه جلبابه وكان به القليل من المال، وتوضأ وحرص كعادته أن يضع داخل جيب جلبابه المصحف الشريف الذي لم يكن يفارقه مطلقاً، فقد كان سميره، ثم طلب من زوجته عائشة أن تأتيه بقلمه ودفتره

الورقي الذي كان يسجل عليه حسابات تجارته البسيطة، فقد نوى بعد أن يطمئن على ابن عمه أن يذهب إلى عمله في البيع والشراء. بدأ الزبير يسلك طريقه راجــلاً نحو منزل أسرة عمه عبد القادر حبيب الله منال، بقصد الاطمئنان على صديقه الحبيب. في الطريق أدركه أذان الفجر فأدى صلاته في قارعة الطريق وسأل الله أن يكون محمد بخير. في دواخل الزبير كان هناك شيء مبهم حال دون تفاؤله بالاطمئنان على صديقه محمد، وقفزت إلى ذهنه أقوال كان يرددها له محمد:

- يا الزبير أخوي تراكا ماشي في درب التجارة والفقه وتعليم المحتاجين، وترا ربنا أداك العلم وأنحنا تبعنا أبهاتنا وبهايمنا وبقينا ترابلة ورواعية متلهم، وإت عارف من وكتاً طويل سعيتنا وزراعتنا وخيرنا كلو ماشي للأتراك والمصريين، هلكونا بالضرائب يا الزبير أخوي أتعبونا تعب شديد.

- عاد شن بتدور تسوي يا محمد؟

- أخليلم البلد دي يا الزبير.

- تخليها تمش وين يا محمد أخوي؟

- أرض الله واسعة يا الزبير، امكن ربنا كاتبلي رزقاً في بكاناً تاني.

هذه الأحاديث كانت تختلج في صدر الزبير ولم يتوقف اختلاجها إلا بعد أن وجد نفسه أمام منزل أسرة عمه عبد القادر، الذي استقبله بوجه قلق فأصابه بوخزة حادة:

- عمي إن شاء الله ما في عوجة؟

- كدي خش لا جوه يا ود أخوي رحمة، ثم أخذ يصيح:

- الشاي يا أم محمد لي حدباي ود رحمة.

(١٤)

كان الزبير في ذلك الوقت يتفرس في وجه عمه عبد القادر، وكأنه يبحث فيه عما يطمئنه، وعندما فشل في ذلك أعاد عليه سؤاله السابق:

- إن شاء الله ما في عوجة يا عمي، وأخوي محمد وين؟
- فاقدنو من البارح يا الزبير وأصلو ما انخبرلو بلد.
- وبعد ده بتدوني أشرب الشاي؟، لا لا أنا بمرق.

خرج الزبير من منزل عمه سريعــاً لا يلوى على شيء ولا يأبه لصوت أم محمد وهي تصيح: الشاي جاهز يا الزبير.

بدأ الزبير يجوب أنحاء البلدة بحثــاً عن صديقه محمد ويسأل عنه الجميع، في وقت كانت الشمس قد ألقت بنورها الصباحي على الدنيا، وقبل أن يتملك اليأس قلب الزبير كانت خطاه تقوده نحو النيل، وهناك رأى صبيــاً فسأله عن محمد، ووقعت إجابة الصبي كالصاعقة على رأسه:

- جيت بدري لاعن هنا كت بدور أتفرج على مراكب ود عموري المصري الرسن هنا مغرب أمبارح، والله فيهن جنس خلق وجنس حاجات، ولما خلاس بدورن اتحركن شفتلك محمد ود عبد القادر راكب معاهن كوركتلو: وين ماشي يا محمد، نهرني وقال لي: أسكت يا جنا.

(١٥)

هنا أدرك الزبير أن صديقه وابن عمه قد أبحر متسللًا مع قافلة التاجر المصري المشهور علي ود عموري متجهاً إلى الجنوب، فعاد بقلب حزين إلى منزل عمه عبد القادر وفي كيانه عزم للحاق بمحمد بأي وسيلة وإعادته للجيلي. تحلقت أسرة عبد القادر حول الزبير وهو ينقل لهم خبر محمد، فرأى دموع والدته تجري على خديها وحزنـاً عميقـاً قد بدا على وجه عمه عبد القادر، وبعد صمت قال عبد القادر للزبير:

- خلاس يا الزبير ولدي محمد ضاع، الجنوب ده ما فيهو غير المصايب والكتل، أكان بتقدر ألحقو وجيب ود عمك راجع.

صادف طلب أسرة صديقه محمد عزمـاً نما في كيان الزبير، فرد على عمه قائـلاً:

- أيوه يا عمي بالحيل بلحقو وبجيبو راجع، وما بتأخر بمش أكلم بت منصور وأبوي وبسافر الساعة.

- ربنا يوفقك يا ود أخوي.

(١٦)

الذي حدث بعد ذلك لم يكن في حسبان أحد.. بدأت في حياة الزبير قصة مختلفة ومثيرة غيرت مجرى التاريخ والجغرافية! لم تستبشر السيدة عائشة بنت منصور خيراً وزوجها الزبير يعود للدار مبكراً بوجه يفتقد الابتسامة، وزفرات حرى تنطلق من صدره، فتوجست أن مكروهاً قد حدث. أرادت أن تسأله ولكنه أجهض السؤال في فمها عندما قال لها دون أن يتخذ لنفسه مقعداً:

- محمد أخوي روح..!

- وين قبل يا الزبير نعلو ما غرق في البحر..!

- لا لا سافر مع أبو عموري المصري ركب معاهم في مراكبو المقبلة على الجنوب.

- الجنوب..؟ ووب عليّ..!

- بس أنا حالف أرجعو.

- ووين بتلقاهو؟

- بتعجل وبباري البحر لامن ألم فوقم.

شيء من الخوف والاضطراب أصاب عائشة، وقد رأت عزم السفر يطوف بوجه زوجها، فتحسست بطنها المتكورة وكأنها توحي له بألا يتأخر فابنه في انتظاره. بلسان أغرقه التلعثم قالت له:

- أفكلك ريقك، نسويلك تفطر يا حدباي قبال ما تمش مني.

- لا لا ما عندي نفس بسافر طوالي.

- ودعتك لي أمين الوداعة، وإن شاء الله تجي راجع بالسلامة وتفرح أهل محمد.

الزبير الذي لم يكن لديه زاد أو مال كافٍ لم يعد لعائشة إلا بعد عام ونصف العام وكانت عـــودة ظافرة ومدهشـــة، فعندما خرج من داره نهاراً لا يحمل سوى دفتراً وقلماً ونسخةً من القرآن الكريم، عاد بمركبين محملتين بالعاج والعرديب والصمغ، وبرفقته مئتان وأربعة عشر شخصـــاً، أربعة وستون شمالياً ومئة وخمسون من السود..!

(١٧)

امتدت رحلة الزبير لمدة ثلاثة أيام في عرض النيل يوغل ناحية الجنوب الجغرافي بحثاً عن قافلة ود عموري في عرض النيل والهواجس تقلقه وخوفه على ابن عمه يعصف به. ما كان يريد له مصيراً مأساوياً، فقد يستقر في فك تمساح أو في بطون أكلة لحوم البشر، أو قد تخترق رأسه رصاصة أو يستقر بقلبه سهم. خفق قلب الزبير بشدة وهو على مشارف قرية «ود شلعي النيلية» قرب «الدويم» بالنيل الأبيض، عندما رأى المراكب ترسو هناك، قال لنفسه يرويها بالأمل: لا بد أنها قافلة التاجر علي ود عموري. وصلها بقلبه الذي اشتد خفقانه وأخذ ينظر ويبحث بداخلها، وفرح كثيراً حتى كاد قلبه يسقط تحت قدميه عندما رأى صديقه وابن عمه محمد في المركب الرئيس، فأسرع واعتلاها وطار إلى ابن عمه بالعناق. كادت الدهشة تحيل محمد إلى نثار وهو بين أحضان ابن عمه الزبير، إنه أمر لا يصدق. الشوق والفزع يعتملان في أغواره، فقد أفزعه مجيء الزبير كخوف الزبير من اختفائه المفاجئ. انتابته شكوك عظيمة لا بد أن الزبير وهو يعرفه جيداً من زمن الطفولة قد أتى باحثاً عنه ليعود به إلى الجيلي ليبقى مزارعاً وراعياً للأبد، يسومه الأتراك العذاب. لا لن أعود فأنا الآن حارس التاجر العظيم ود عموري، ملكني بندقية وسيعطيني من المال الكثير. كان كبير القافلة علي ود عموري يشهد وقائع هذا اللقاء الذي أثاره، ولفت انتباهه هذا الحنين وتلك المشاعر الصادقة في الود والإخاء، غير أن مصلحته التجارية وسلامته الشخصية كانت فوق كل شيء، فأضمر في نفسه شيئاً. عندما تخلص الرجلان من المشاعر التي امتلكتهما بعد اللقاء، استطاع محمد أن يتخلص برفق من أحضان الزبير ووضع ذراعه فوق كتفه وسار به ناحية ود عموري وقال:

- ده ود عمي وصديقي الزبير جنا رحمة ود منصور. بتأفــفٍ واضح نظر ود عموري إلى هيئة الزبير البائسة التي زادها بؤسـاً إرهاق السفر والرؤى الآسية. لم يكلف ود عموري نفسه عناء التحية إنما أشاح بوجهه والتفت إلى مكان قصي كأنما يبحث عن شيء أهم. لم يأبه الزبير لهذا التصرف، فهو أصلًا قد جاء ليأخذ ابن عمه ليعود به لأهله ولا مطمع ولا مطمح عنده لدى ود عموري التاجر الشهير الوافد من نجع حمادى، وهي مركز في محافظة قنا بمصر. كان اسمها في العهد البطلمي (خنوبوسكيون)، وتعني أراضٍ تربية الأوز، وتقع على الضفة الغربية للنيل على مسافة ثمانين كيلومتراً شمال غرب الأقصر. ود عموري ليس تاجراً يجوب أعالي البحار ويستحوذ على العاج والعبيد فحسب، إنما كان مغامراً وشجاعاً تزيده هيبة جثته الضخمة وأزياؤه الفخمة وصوته الجهوري ولكنته الصعيدية وأوامره الحازمة والمتصلة. كان يحمل فوق وجهه سمات عربية وتقاطيع صارمة، وتبدو لديه شراهة للمال والاستحواذ والامتلاك. تنعكس شخصيته القوية في أعين رجاله وبحارته وحراسه، غير أن الزبير لم يأبه لكل ذلك، إنما كان له هدف واحد أتى به إلى هنا، هدف لا بد أن يحققه، فالجيلي وكل أهل الجيلي ينتظرون عودته وفي معيته ابن عمه. ترجرج وجه محمد بالحرج وامتلأت نفسه بالأسف، وفكّر أن يتخلص من هذه المشاعر بإكرام ضيفه العزيز، فأخذه إلى ركن من أركان المركب وهناك قال له:

- أغديك سمك يا ود عمي، الظاهر عليك جيعان وشك مختوف.

- الجوع ما بهمني يا محمد، بهمني ترجع معاي لي أهلك، لا أنا لا هم ما بندور تحصلك عوجة. هذا ما كان يحذره محمد، فمنذ أن رأى الزبير أفزعه هذا الهاجس. ما كان يريد لأحد أن يحد من طموحه أو يكبل آماله بإفساد تسلله وابتعاده عن الأهل وأرض الأجداد. اتجه برأسه إلى السماء كأنه يطلب منها أن تعينه على الإجابة. أشعة الشمس

ترسل خيوطاً فاترة في آخر الأصيل، تنبئ عن تثاؤبها ورغبتها في النوم، والمركب يتأرجح في مرساه بلطف المد والجزر، ومحمد تلفه مشاعر لا يعرف لها كنهاً ويقول:

- الزبير أخوي أنا والله مما مسكت البندقية دي المهانة الجواي دي اتفتفتت، وما بدور أشعر بيهـــا تاني، دحين خلني يا الزبير:

- إت يا محمد ماك خابر المحل الماشيلو ده فوقو شنو، محلًا كعب وصعب.

- صعب هو ولا صعب شغل الأتراك ديل، المزارعين مهانين يا الزبير، نحنا لا حكام لا موظفين ولا علماء ولا فقهاء ولا مشايخ، فرد خطوة ونبقى رقيق الناس.. تعبت يا الزبير كتلوهم وخوزقوهم، قطعوا ضكورم والنسوان قطعوا شطورم، في شان كده الناس قامت وزعلت والكتال حصل من زمن جية الناس ديل لا هسع، من زمن رجب ود عدلان والملك نمر.

نظر الزبير إلى ابن عمه محمد نظرة استجداء وهو يقول له:

- كلامك صاح يا محمد، وذكرتني بي عمايل الدفتردار وشن سوى في أهلنا، بس بقولك يا محمد وما تنسى، أنحنا محكومين بي الخلافة الإسلامية، نصلح الكعب، وما نهرب في شان كده أرجع معاي، أهلك راجنك يا محمد وعشمن فوقي كبير ما تخذلني.

- بتعرف يا الزبير مما قمنا ما كسرتلك خاطر، بس المرة دي أعفالي.

نظر إليه الزبير نظرة حادة ورمى عليه أقوى أسلحته:

- ما بخليك تموت براك في الجنوب والصقور ياكلن جدتك يا ود

عمي، وعــليّ بالطلاق وتحرم عــليّ عاشة بت منصور، كما رجعت معاي إلا أسافر معاك.

وقع محمد في حيرة عظيمة، ففي قرارة نفسه لا يود العودة مطلقــاً واكتنفه الأسف العميق أن يكون هو السبب في التفريق بين الزبير وزوجته، خاصة أنه قد أدرك مشاعر ود عموري تجاه الزبير، وربما لا يسمح له بمرافقته. ظلت الحيرة تعتمل في كيان محمد وهو عاجز عن الرد والظلام بدأ يغزو المكان ليظهر في ذات اللحظة ود عموري ويقول:

- محمد شوف شغلك.

لم يرد محمد على ود عموري، إنما نهض وحمل سلاحه وقال للزبير:

- الحليلة دي فيها عشاك يا الزبير، صلي واتعشى ونوم الليلة معانا في المركب، والصباح اتراوح أهلك وطمنن عــليّ.

(١٨)

ذهب الزبير إلى فراش بائس داخل المركب بعد أن صلى العشاء وقرأ قرآنـاً على ضوء القمر، وعندما داعب الوسن عينيه المتعبتين كان الأمل يحدوه بموافقة ابن عمه على العودة معه في الصباح، فهو ينتوي التحدث إليه أكثر لإقناعه بالعودة.

عند الفجر أراد الزبير أن يقوم إلى صلاته، فلاحظ أمراً عجيبـاً ومريبـاً يحدث، تلك الليلة التي قضاها الزبير بمركب ود عموري كانت ليلة قاسية، أفزعه فيها حلم مرعب، محمد ابن عمه وأحب أصدقائه إلى قلبه يسبح بقوة ويطارده تمساح في عرض النيل وهو يصرخ ويستنجد به:

- حصلني يا الزبير أخوي..!

مد له يده وهو داخل المركب وكادت أن تلامسه، فإذا بيد ود عموري تمنعه ومحمد يغيب بصحبة التمساح داخل بقعة حمراء من الدماء.

أعاد له الحلم ذكرى قديمة ومؤلمـة من زمن الطفولة، عندما اختطف ذلك التمساح شاته العزيزة. أفاق من نومه وهو يقول لنفسه: اللهم اجعله خيراً. وقبل أن يعود إلى النوم مرة أخرى رأى ود عموري يبتعد ويلتحم بظلام المركب، غير أن ضوء القمر الآفل أبان له أن ود عموري وقف بهيئته الضخمة ناظراً إليه من بعيد. لم يكن هذا جزءاً من الحلم، ولم يأبه الزبير بتلك النظرة حتى فاجأه ود عموري بالعودة من عمق الظلام قائـلاً له:

- في الصباح خذ ابن عمك واذهب به، إني أسمح له بذلك ما دامت هذه رغبة أهله.

تهلل وجه الزبير بالبشر وعندما غادره ود عموري أغمض عينيه ونام نومـاً عميقـاً لا قلق فيه ولا اضطراب.

(١٩)

ود عموري الذي كان يدير شؤونه داخل المركب وخارجها بقوة وحزم ودقة، كان في تلك الليلة يخطط لتنفيذ ما أضمره في نفسه ما يستلزم تأكده أن الزبير هذا الوافد الغريب على مركبه لا يزال نائـــماً. منذ أن رآه لأول مرة رأى ذلك البريق في عينيه وأعجب بطول قامته وبجسده القوي الذي لم يستطع جلبابه أن يخفيه. فعزم على ضمه إلى رجاله دون أن يفصح له أو لابن عمه محمد بذلك، فهو يعلم أن الزبير قد جاء معتزماً أخذ محمد والعودة به، وعليه أن يفسد هذا العزم. الزبير المرهق والنشوان عادت له أحلامه الجميلة والساعات تقترب من الفجر، وهي أكثر ساعات الليل إظلامــاً. في تلك الساعات وبعد أن اطمأن ود عموري على عودة الزبير للنوم، بدأ يصرف أوامره لحراسه ورجاله من البحارة بـــالإسراع في تحرير المراكب من مراسيها وإطلاق أشرعتها إيذانــاً بالإبحار والسفر تجاه الجنوب. أراد محمد أن يوقظ ابن عمه الزبير ليغادر المركب التي ستتحرك، إلا أن ود عموري منعه بحزم:

– اتركه سنأخذه معنا. أذعن محمد لأمر ود عموري، فأوامر هذا السيد يجب أن تطاع، غير أن محمد لمح في هذه الصحبة حـــلاً لذلك القسم الغليظ الذي أثقل به الزبير دواخله. إذاً فالزبير إن رافقهم فهو في حل من تطليق زوجته. يا له من مخرج سحري. بدأ الجميع يعملون كخلية النحل، وبدأت القافلة تتحرك ومركب ود عموري تبحر وتوغل في النيل.

ومع الفجر واهتزازات المركب بدأ الزبير يفيق من نومه ليستعد لصلاته، وأخذ ينظر حواليه، فبدا له مع أشعة الشمس الأولى أن

الشاطئيــن متباعدان، فأدرك أن أمراً عجيباً ومريباً يحدث، فالمركب متحركة وغزته مشاعر المختطف، فاعتملت في دواخله ثورة ذهب بها إلى ود عموري الذي كان محاطاً برجاله وحراسه، فقال له غاضباً:

- ما الذي تفعلونه إلى أين تأخذوني؟

رد عليه ود عموري قائلاً:

- اعلم أنك قد أتيت لتأخذ معك ابن عمك، ولكننا قررنا أن نأخذك معنا، والآن بإمكانك أن تستمتع بصحبتنا وبالرحلة..!

تمنى الزبير في تلك اللحظة لو كان بيده سلاحــاً ليلقن به هذا المصري ورجاله درســاً لن ينسوه أبداً. عندما أبعد الحراس الزبير عن سيدهم أخذ يعترض ويحتج ويجادل، فلم تجد اعتراضاته أذنــاً ولم تغــنِ احتجاجاته ومجادلاته فتيــلاً، وود عموري صاحب السيادة المطلقة على مركبه اكتفى فقط بما قاله للزبير ثم تركه يرغي ويزبد.

(٢٠)

ظلت هذه الحادثة محفورة في عقل ووجدان الزبير، فقد كان قبل ذلك اليوم صعب قياده، غير أن هذه الحادثة التي تمت بغتة فيما يشبه الغدر، اتصلت بعد أعوام طويلة بحادثة مشابهة أحزنته وآلمته في العمق، فبعد ثلاثين عاماً وفي صيف عـــام ١٨٨٥م والثورة المهدية تستفحل في السودان، كان يقوم بزيارة إلى مدينة الإسكندرية وحل ضيفاً هو وعائلته على نسيبه الشيخ عمر السنوسي في قصره، وبينما كان يهنأ بتلك الضيافة استأذن أحد الضباط البريطانيين أصحاب القصر ليسمحوا له بالدخول لمقابلة الزبـــير، وعندما سمحوا له ضرب الأرض بقدمه وحيا باشا تحية عسكرية ثم قال له:

- يسعدني ويشرفني يا سعادة الباشا أن تقبل دعوتنا لك ولعائلتك الكريمة لتناول الشاي معنا هذا المساء، على سطح السفينة (إنديانا) الراسية الآن بميناء الإسكندرية.

- يسعدني أن ألبي هذه الدعوة الكريمة. انصرف الضابط بعد أن حيا الزبير مرة أخرى.

في الموعد المحدد وصل الزبير باشا بزيه المميز بصحبة عائلته تتبعه حاشيته إلى السفينة، واعتلى ظهرها حيث استقبله مضيفه قبطان السفينة بكل تجلة واحترام، وبدأت أباريق الشاي الفضية تفرغ محتوياتها على الكؤوس الأنيقة، وأحاديث لطيفة تجري على الألسن، وفجأة بدأت السفينة تتحرك، فنظر الزبير باشا إلى قبطان السفينة نظرة وجلة متسائلة، فرد عليه قائـــلاً:

- أنت ضيفنا وأسيرنا يا سعادة الباشا، وسنقودك منفياً إلى جبل طارق وفقاً للأوامر الصادرة إلينا..!

فما أشبه الليلة بالبارحة.

(٢١)

لم يكن الزبير- الذي استسلم لقدره داخل المركب - يدري ماذا يريد به هذا المصري الذي يدعى علي ود عموري، وقد بدا يزدريه ويستخف به من جديد. قال الزبير عندما خط مذكراته بعد عقود من الزمان يصف حاله في أيامه الأولى على ظهر مركب ود عموري:

- بدوتُ مسكيناً وفقيراً كالعبد يقاسمني ابن عمي طعامه وموجات من الازدراء والاستخفاف يدفعها نحوي ذلك السيد الآمر الناهي، وينظر إليّ كمجرد راكب غريب في قطاره..! تلك كانت خطة ود عموري التي أضمرها، وهي السيطرة على هذا الشاب القوي والذكي وتسخيره لخدمته ولكن هيهات. الزبير الذي لم يكن لديه سوى قلمه ودفتره ومصحفه الشريف وجلبابه الذي عليه، ولا يستطيع أن يستبدله. أخذ يسجل على دفتره مشاهداته عن المناطق التي تمر عليهم، ويقرأ من مصحفه كثيراً دون أن يفعل شــيئاً خلاف ذلك. أخذ ود عموري يستمرئ الاستهزاء به ويقول له:

- هل معنا في هذا المركب مبشر ديني؟ ألا تجيد فعل أي شيء سوى قراءة القرآن يا رجل؟ يبدو أننا أخطأنا حينما صحبناك معنا، إنك رجل عديم الفائدة. كان حراس ود عموري ورجاله على أتم استعداد لسحق الزبير إن تجرأ ورد رداً خشناً على ود عموري، لذا كان الزبير يصمت ويقول لنفسه:

- إذاً لِمَ أخذتني أيها المعتوه؟

(٢٢)

بدأت الطبيعة تقسو، رياح ومطر وبرق ورعد وأصوات وحوش، وما أن تسكن السماء والأرض حتى تهاجم أسراب البعوض الجميع، ويبدأ الهرش على الجلود حتى تدمي. كانت الوحدة والوحشة تكبلان الزبير داخل مركب ود عموري. إنه سيد لا يعرفه، ولا يعرف ماذا يريد به أو منه. هناك مئة رجل أو أكثر من الحراس والبحارة والعبيد لا يعرف فيهم أحداً. وحدة قاسية ووحشة عظيمة تدفعان إليه في تلك الأجواء القميئة حنيناً جارفاً، وشوقاً صارخاً، وتنقلان إليه وجوهاً طالما أحبها، وجوه أهل كرماء وأحبة أعزاء: أتراك يا عائشة بخير؟ أما زال ابني يرفس جدار بطنك؟ وأنت يا أمي شمة كيف حالك من بعدي؟ عائشة وفاطمة أختاي كيف حالكما وأزواجكما وأبناؤكما؟ أبي أعز أب في الوجود، يا من علمتني ومحوت جهلي، يا من هاجرت من دمك لأجلي، هل لا تزال تقوى على رفع المعول؟ أخي الحبيب بطران أين أنت، ليتك معي الآن لأستقوى بك وبعطفك.

هذه الرؤى كان ينقذه منها دائماً ابن عمه محمد، ويبدد وحدته ووحشته، فعندما تنتهي نوبة حراسته يجالسه ويؤانسه واضعاً بندقيته إلى جواره وتمر الأيام. كل يوم كان أقسى من اليوم الذي ودعوه فيه، حتى مست أنامله ذات نهار بندقية ابن عمه التي كانت تتلألأ تحت أشعة الشمس، فأحس بشيء يغزو كيانه، فسرت فيه قشعريرة انتفض لها كل جسده، أحس بعلاقة معها عنيفة عميقة الأثر، فبدأ يمرر كفه عليها كأنما يغازلها ويلامسها، فكاد يسمع لها صوتاً وغنجاً كغنج أنثى شبقة، فيخفق قلبه وتشب الحرائق في صدره، فنظر إلى ابن عمه محمد بقلبه المستهام وقال له:

- أريد أن أمتلك بندقية.

- السلاح يملكه ود عموري، وهو الذي يسمح به لمن يثق فيه ويعرف كيف يستعمله.

هب الزبير واقفاً واتجه مسرعاً إلى ود عموري، ففاجأه المصري بما لا يحب. كان ود عموري في مقدمة المركب ينفث من غليونه وينظر إلى السماء الصافية ويسرج خيوله نحو أحلامه التي لا تنقطع، في الوقت الذي كان فيه الزبير يشق طريقه نحوه من مؤخرة المركب، وعندما وقع ظله عليه بعد أن أزاح عن طريقه عدداً من الرجال، التفت إليه برأسه ببطء شديد، وعندما أدرك أنه الزبير قال له:

- ماذا تريد أيها العاطل..؟!

ود عموري كان ذكاؤه يخبره دوماً أن في أعماق الزبير طاقة لا حدود لها، ويملك قلباً لا يعرف الخوف إليه سبيلاً، ولا بد من استفزازه ليخرج ما في أعماقه، وعندما رد عليه الزبير قائلاً وهو يكظم غيظاً:

- أريد بندقية.

مد ود عموري غليونه إلى عبد من عبيده ثم التفت بكل هيئته ناحية الزبير وقال:

- بندقية..؟ أتريد أنت بندقية؟ وماذا سيفعل رجل مثلك ببندقية؟

- لديك مائة رجل من الحراس يحملون بنادق، ماذا يضير

لـو صرت مثلهـم؟

صمـت ود عمـوري صمتـاً أقلـق الزبـير، فبـدا كعاشـق أمـام عذولـه، وكان الصمـت يذهـب بـود عمـوري إلى آفـاق التقديـر، ولكنـه سـعد بخاطـره الـذي يـزوره دومـاً ويقـول لـه هـذا الرجـل قـوي وشـجاع وذكـي، ولكنـه اسـتمر في تمنعـه ومكابرتـه، وقـال للزبـير منهيـاً ذلـك الصمـت:

- المركـب بهـا العديـد مـن الأعـمال لـن أجـبرك عـلى فعـل شيء منهـا لأنـك لسـت عبـدي.

وعليـك أن تختـار منهـا مـا يناسـبك إن كنـت ترغـب في أن يتـم توزيـع الطعـام عليـك بانتظـام. قبـل أن يديـر الزبـير رأسـه التـي ارتفعـت إليهـا دمـاء الغضـب، نظـر إلى ود عمـوري نظـرة حـادة ثـم سـار عنـه، ومقلتـا ود عمـوري تسـافران خلفـه، فألفتـاه قامـة مديـدة وكتفـان عريضـان ورأس مرفوعـة تحملهـا رقبـة قويـة وقدمـان تضربـان الأرض ضربـاً فصـاح:

- قف يا زبير.

وقـف الزبـير ثـم اسـتدار دون أن يتحـرك، وود عمـوري يقـول لـه: تعا ل .

- ماذا تريد من رجل جائع مثلي..؟!

ابتسم ود عموري وهو يلتفت إلى أقرب مساعديه قائلاً له:

- اعطوا الزبير بندقية وظرفَيْ خرطوش من الذخيرة.

(٢٣)

بـدا الزبـير غـير مصـدق لمـا سـمع، غـير أن كيانـه اعتمـل بمشـاعر لا يعـرف لهـا وصفـاً، إنـما أسـعدته، وظـل واقفـاً مكانـه إلى أن قـذف لـه أحـد العبيـد بـما أمـر بـه سـيده، فوقعـت البندقيـة عـلى صـدره فعانقهـا وضمهـا إليـه وتحسسـها بولـهٍ، وغـادر المـكان مسرعـاً ببندقيتـه إلى مؤخـرة المركـب، وهنـاك جلـس واضعـاً البندقيـة أمامـه ينظـر إليهـا بعينـين مفتوحتـين عـن آخرهمـا، ولم يأبـه لذلـك الصـدأ الـذي كان يلفهـا مـن خارجهـا ومـن داخلهـا، فانكـب ينظفهـا لسـاعة مـن الزمـان حتـى صـارت حسـناء بعينـه، وعندمـا وصـل إلى المـكان محمـد ابـن عمـه، ورأى الفرحـة تمـازج وجـه الزبـير، قـال لـه متهلـلاً:

- مبروك يا ود عمي.

- الله يبـارك فيـك يـا محمـد أخـوي. شـارك محمـد الزبـير فرحتـه بالبندقيـة، وأبـدى لـه مشـاعر العـزة والكرامـة والزبـير يقـول لـه:

- الراجـل مـا يكـون أعـزل يـا محمـد في المحـلات الـزي دي، بعديـن أنحنـا لسـع ماشـين لي قـدام، ومـا معـروف البلاقينـا شـنو. لم يعلـق محمـد عـلى قـول الزبـير الـذي لمـح قلقـاً فـوق وجهـه فسـأله: مـا لـك مهمـوم يـا محمـد.

- لا ما في حاجة يا الزبير، امكن التعب بس.

- تعـب شـنو يـا محمـد، المتلـك مـا بعـرف التعـب، وأنـا أخـوك بعرفـك كويـس قـول لي في شـنو؟

- والله يـا الزبـير شـن أقلـك بـس احتجتـا لي لي ريـال زارّني فيهـو واحـد مـن البحـارة ديـل كنـت شـايلو منـو سـلفة، وترانـا لي هسـع ود عمـوري مـا أدانـا شي.

شـعر الزبـير بأسـى لم يشـعر بمثلـه مـن قبـل، فـكل مـا كان لديـه مـن مـال أنفقـه في رحلتـه لـود شـلعي ليلحـق بالقافلـة، فنظـر لمحمـد وقـال لـه:

- والله مـا عنـدي شي يـا محمـد، وجيبـي ده مـا فيهـو غـير مصحفي وخرطوشـتين، وكان المصحـف بتبـاع كنـت ببيعـو والخرطوشـتين عُهـدة وأمانـة.

- ما يهمك يا الزبير أخوي بتتحل بإذن الله.

(٢٤)

ضحك الزبير عندما طافت بذهنه هذه الواقعة بعد سنوات عديدة، عندما تضخمت ثروته واستعصت على التقدير وهو يأمر أحد قواد جيشه بإذابة خمسة وعشرين ألف ريال من الفضة الخالصة ليستعملها في صناعة الرصاص..! فسبحان الله مغيّر الأحوال من حال إلى حال. كعادته فإن ود عموري كان يفاجئ رجاله والكل كان يتوقع أن يكون ود عموري قبالته في أي لحظة، وهذا ما حدث عندما رفع الزبير رأسه حينما كان يقرأ القرآن ليرى أمامه ود عموري بجثته الضخمة وهو يقول له بحزم واحتقار:

- لقد أعطيناك بندقية وخرطوشتين لتقوم بواجبك في الحراسة، لا أن تزجي الوقت في الحديث مع ابن عمك وقراءة القرآن، فيا رجل متى تفهم واجباتك، يبدو أنك لا ترغب في المضي معنا عندما يجد الجد ونبدأ حملتنا التجارية التي تحفها المخاطر، عليه فأنت محكوم عليك بالبقاء هنا بالمركب عندما نصل لوجهتنا، ولن نسمح لك بمصاحبتنا، بل سننزع سلاحك ونسلمه إلى من هو أجدر به منك. الزبير الذي كان لا يزال يشعر بضعف الغريب صمت وأعاد عينيه إلى مصحفه. المركب كانت تسير دون توقف إلا لصيد نهري أو بري أو للتمكن من قطف ثمار الفاكهة في اليابسة، تلك الأرض العذراء الولود.. أشجار الفاكهة كانت تنمو بغير تخطيط، ولا زُراع ولا حراس ولا أحد يحاسب أحداً على القطف.

(٢٥)

بـدأت المركـب في سـيرها تشـق أرض الشـلك والزبـير لا ينـي يسـجل أسـماء المناطـق، كانـت أسـماء غريبـة تـكاد تسـتعصي عـلى التسـجيل والنطـق. الأيـام تمـر وفي كل يـوم كان الزبـير يسـمع إهانة مـن ود عمـوري، إلى أن طفـح كيلـه فوضـع إحـدى خرطوشـتيه داخـل بندقيتـه عازمـاً التحـرك إلى منصـة ود عمـوري، في منصتـه في الجـزء الأمامـي منهـا، عندهـا رأى محمـد حُمـرةً في عينيـه أمسـك بسـاعده وقـال لـه:

- لا لا يـا الزبـير مـا تمـشي ترتكبلـك جنيـة وتضيـع وتضيعنـا معـاك.

- نـان المـصري ده مـا فـات حـدو كتـير، بعديـن إت عـارف أنـا راجـل حافـظ القـرآن وأعـرف أن الله سـبحانه وتعـالى أمرنـا ألا نقتـل النفـس إلا بالحـق، في شـان كـده أنـا بـدور أمشـيلو وأهـددو بي بندقيتـي دي لامـن يقيـف عنـد حـدو.

- لا لا برضـو يـا الزبـير مـا بصـح، أقعـد أقعـد عليـك الله كـما قعدتـا يـا الزبـير. أذعـن الزبـير لطلـب ابـن عمـه وجلـس وهـو متهـدج الأنفـاس. وعندمـا هـدأ بـدأ يسـجل كعادتـه فـوق دفـتره، حيـث رافقـه هـذا التسـجيل منـذ اليـوم الأول حينـما تحركـت بـه هـذه المركـب بغتـة ودون إرادتـه. هـذه منطقـة يقـال لهـا كاكا، وتلـك فشـودة، وهـذا بحـر السـوباط، وذاك بحـر الـزراف، وبحـر الجبـل، الأيـام تمـر والمركـب لا يتوقـف حتـى وصـل بهـم عـبر بحـيرة عظيمـة مترامية الأطـراف لا حـد لهـا، إلى مـكان يقـال لـه

مـشرع الـرق، حيـث رسـت المركـب ومـا كان في بـال الزبـير أن يبقـوا في هـذا المـكان طيلـة أربعـة أشـهر كاملـة، وبعـد أن تحركـوا مـن جديـد بـدأت الأحـداث تتخـذ شـكلاً أكثـر إثـارة وخطـورة.

الفصل الثاني

بلاد النيام نيام ومعركة المدينة الخالية

وأهوال جزيرة بوهول

(١)

أربعة أشهر في أجواء استوائية موحشة وقاسية كانت كفيلة بنقل السأم إلى قلب الزبير، ولكنه استطاع خلالها أن يوثق علاقته ببعض أهم رجال ود عموري من مساعديه الذين رأوا فيه من الخلال والصفات ما يؤهله لنيل ثقتهم، وأن يملكوه بعض الأسرار التي كانت تكتنف عملهم في هذه التجارة الخطرة، وهاله أن يسمع منهم أنهم يحملون بضائعهم التي يرغبون في حملها من السكان المحليين عن طريق المقايضة، وإن رفضوا فإنهم ينتزعونها منهم قسراً بقوة السلاح. هنا علق الزبير قائلاً:

- ما أعلمه أنكم تأتون إلى هنا تجاراً، ولكن عرفت اليوم أنكم غزاة وظالمون، وما كنت أراه لديكم من أسلحة كنت أظن أنكم تحتاجونها للدفاع عن أنفسكم وللصيد ولصد الحيوانات المتوحشة، لا أن تتخذوها لظلم الناس وأكل أموالهم بالباطل، هذه مخالفة بينة لشرع الله.

في تلك اللحظات كانت تتلألأ في عيني إبراهيم الدنقلاوي- أحد مساعدي ودعموري- نظرات الإعجاب بالزبير وبحسن رأيه وتفهمه لدينه فقال له:

- أريد منك أن تساعدني على حفظ القرآن الكريم.

- لا مانع يا إبراهيم بل يسرني الأمر يا أخي.

تلك الجلسات التي كانت تتم بين الزبير وإبراهيم الدنقلاوي بغرض تحفيظ القرآن، كانت تنتهي بمؤانسات مهمة عرف من خلالها الزبير منه أخباراً مثيرة ووقائع مهمة. من جديد بدأ الإبحار من مشرع الرق بعد تلك الشهور التي عانى

فيهـا الرجـال قسـوة الطبيعـة، فلسـعات الذبـاب والنامـوس في ذلـك المـكان كانـت فـوق طاقـة الاحتـمال، غـادروا المـكان وتركـوا فيـه محطـة بنـوا فيهـا مخـازن مـن القـش والبـوص، تكدسـت فيهـا البضائـع التـي نجـح ود عمـوري في جلبهـا وجعـل عليهـا حراسـاً مـن رجالـه السـود الأشـداء، غـير أن ود عمـوري كان يريـد المزيـد. بعـد مسـيرة ثمانيـة أيـام وصلـوا إلى بحـر الجـور، حيـث رسـت القافلـة وبـدأ العمـل عـلى إنشـاء محطـة أخـرى بغـرض تخزيـن بضائـع أخـرى فيهـا عندمـا يعـودون إليهـا محملـين بهـا مـن مناطـق قادمـة. استـمر سـير القافلـة النهريـة عابـرة مناطـق يقـال لها أموكـوال وأبيـم وأياديـد ولقلـق، والزبـير لا ينـي يسـجل في دفـتره هـذه الأسـماء الغريبـة ويوثـق مشـاهداته بالتعليقـات، وعندمـا وصلـوا منطقـة عفـوف عـلى مقربـة مـن منطقـة يقـال لهـا ماكسـوا، أمـر ود عمـوري أن تتخـذ المراكـب مراسـيها، وأن يتـم إنشـاء معسـكر في هـذه المنطقـة لتنطلـق منـه حمـلات في جلـب البضائـع واقتنـاص العبيـد، غـير أن ود عمـوري لم يكـن يـدري وهـو في هـذه المجاهـل النهريـة الخطـرة والموحشـة أنـه قـد اختـار لمعسـكره المكان الخطـأ.. مكانـاً يعـج بالسـود الأقويـاء الذيـن خـبروا فنـون الحـرب وتعلمـوا كيـف يدافعـون عـن أنفسـهم ودرء خطـورة التجـار الغـزاة، فكـم مـن قافلـة تجاريـة تـم تدميرهـا وقُتـل أفرادهـا هنـا. بـدت الأجـواء في المعسـكر الجديـد هادئـة كالهـدوء الـذي يسـبق العاصفـة، لا يسـمع رجـال ود عمـوري سـوى حفيـف الأشـجار وأصـوات الحيوانـات، يقطفـون الثـمار ويصطـادون الحيوانـات ويشـوونها عـلى مـا يحتطبونـه مـن الجـوار، غـير أن هنـاك أعينـاً كانـت تراقبهـم وتحـصي أعدادهـم.

(٢)

كان المراقبون يسيرون في الظلام تلفهم أوراق الأشجار وجلود الحيوانات، ويحملون سهامهم وفؤوسهم على أيديهم وفوق ظهورهم، وفي قلوبهم كرهٌ وغلٌّ عظيمان، وخوفٌ من هؤلاء الغرباء، إنها زيارات لا يحبونها. بدأ ود عموري يلهب الحماس في رجاله عندما اعتزم بدء حملاته في ذلك المكان، كان في قلبه الكثير من التوق للعاج وريش النعام، إنه توق يدفعه للمغامرة، فهذا مصدر ثرائه وعزته وسطوع نجمه كتاجر كبير. قبل أن تصدر الأوامر للرجال بالتحرك كانوا ينظفون بنادقهم ويحكمون وضع خزائن الرصاص فوق أحزمتهم، والزبير لم يكتفِ بالمشاهدة إنما بدأ يفعل مثلهم، ينظف بندقيته ويتحسس خرطوشتيه، وإحساس المغامر يتملكه، لكنه أُصيب بصدمة عنيفة عندما أمر ود عموري رجاله بالانطلاق لتحقيق حلمه وقال للزبير:

- أنت يا الزبير عليك أن تبقى ضمن آخرين داخل المعسكر.

أحس الزبير بالغُبن والغضب، وقال لود عموري:

- إت شايف فوقي شنو يا ود عموري؟ خواف ولّلا مرعة؟ أنا لاني خواف لاني مرعة.

ود عموري لا يكرر أوامره أبداً، إنما ينتظر تنفيذها فقط، وعندما بدأ الرجال يتحركون أذعن الزبير للأمر وتخلف مع المتخلفين داخل المعسكر، تصحبه حسرة قاتلة.

بدأ رجال ود عموري يحملون أسلحتهم وبضائعهم من الخرز والسكسك وتلك التي تروق السكان المحليين ليقايضوها بالعاج وريش النعام، وكل ما يُسكت لهفة وشره ود عموري،

وإلا سيأخذونها بقوة السلاح. كان الزبير المتحسر ينظر إليهم، وقبل أن يصدروا أصواتهم التي تنم عن القوة والاستعداد، كان الزبير يمسك بكفي صديقيه إبراهيم الدنقلاوي وابن عمه محمد عبد القادر، ويقول لهما:

- كت بدور أمشي معاكم عل المصري ده حماني، بس قبال ما أودعكم بقولكم اتقوا الله وما تاذوا المساكين ديل وما تاخدوا حقهم بالقوة.

- إن شاء الله يا الزبير وودعناك الله.

- مع السلامة وإن شاء الله تجوا حازمنها بي الحلال.

(٣)

بدأ الرجال بقيادة ود عموري يبتعدون ويزمجرون والزبير ينظر إليهم والحريق في كيانه يكاد يقضي عليه، وعندما اختفت الأجساد في الأفق وخفتت أصواتهم ثم تلاشت عاد الزبير إلى داخل المعسكر متخذاً له من صخرة صغيرة مقعداً مسنداً بندقيته ما بين الأرض وذقنه، واستغرق في تفكير عميق.

لم يمضِ الزبير على هذه الحالة وقتاً طويلاً، ونهض يتفقد المعسكر ومن فيه، وأغضبه أن يكون ماكثاً بين هؤلاء العبيد وبعض الضعفاء من رجال ود عموري، وبحارته الذين كانوا لا يعملون شيئاً سوى الاحتطاب والصيد والقطف والطبخ والاعتناء بالمراكب الراسية وإعداد وتنظيف أماكن الراحة لسيدهم وقواده ومساعديه من تلك العفونة التي تزكم الأنوف في ذلك المعسكر.

في ذلك الصباح الذي غادر فيه رجال ود عموري المدججون بالأسلحة النارية، أشرقت شمس اليوم على سماء صافية وهواء معتدل، لا ينبئان عن تلك الأحداث الدموية التي وقعت فيه. كلما انتابت الهواجس وذكريات الأحبة الزبير، يهرع إلى مصحفه ولا يتركه إلا لصلاة أو أمر مهم، رغم أن ود عموري كان يقول له دائماً تلك الكلمات عامداً حشدها بمعاني الاستفزاز والإهانة:

- أي فائدة نرجوها من قسيس مثلك.

- أنا فقيه ولست بقسيس، ومن يردِ الله به خيراً يفقهه في الدين، وهذا حديث رسول الله إن كنت لا تعلم.

سمع الزبير صوت طلقات نارية وأصوات ترتفع من بعيد، فقبل مصحفه ونهض إلى خارج المعسكر. كانت هنالك ظلال

مـن السـماء تسـقط عليـه وتغطيـه. كان يظن أنها سحب سوداء غطت الشمس في يوم غير خريفي، وعندما رفع عينيه نحو السماء رأى أسرابـاً من الصقور السوداء تحلق والشمس تختفي من خلفها، ثم أخذت هذه الصقور تهبط ثلة ثلة بسرعة وعنف، ومـا درى الزبـير أنهـا إنـما هبطـت لتنقض على تلك الجثث الكثيرة التي قتـل السـود أصحابهـا مـن رجـال ود عمـوري، وتتلقف عيونهـا ولحم أطرافها وتتوغل إلى أكبادها، فتحمل على مخالبها غنائـمَ تسيل منها الدماء. وعندمـا سـقطت أمامـه نقـاط مـن الـدم كقطـرات مـن المطـر، عـاد للمعسـكر وحمـل بندقيتـه وأخـذ ينتظـر، ولم يطـل انتظـاره حتـى رأى نحـو خمسـة عـشر رجـلاً مـن رجـال ود عمـوري هاربـين إلى المعسـكر وخلفهـم عـدد كبـير مـن السـود يلاحقونهـم ويناوشـونهم بالرمـاح، فيتسـاقطون ويتحشرجـون. مشـاهد الهزيمـة والمـوت أسـقطت عـلى الزبـير أسًـى وحزنـاً، وأخرجـت مـن كيانـه قـوةً وعزمـاً، وعندمـا اقـترب السـود المنتـصرون أكثـر مـن المعسـكر وهـم يلاحقـون رجـال ود عمـوري المدججـين بالأسـلحة الناريـة، وقـف مكانـه كأنـما يقـف عـلى جفـن الـردى وهـو نائـم، مُحكـماً قبضتـه عـلى بندقيتـه التـي صوبهـا نحـو كبـير السـود الـذي كان زعيمهـم وقائدهم، فأصـاب بإحدى خرطوشـتيه رأسـه فسـقط يتخبـط في دمائـه، هـي ذات اللحظـة التـي تعثـر فيهـا ود عمـوري وسـقط، ليـسرع نحـوه أحـد السـود بمديـة حـادة طويلـة ويمسـك بذقنـه ويرفـع رأسـه ويضـع المديـة عـلى خناقـه تمهيـداً لذبحـه، فـإذا بخرطوشـة الزبـير الثانيـة تسـتقر في ظهـر ذلـك المقاتـل الـشرس، وترتخـي قبضتـه مـن ذقـن ود عمـوري الـذي نهـض بجسـده الضخـم وهـو غـير مصـدق لهـذه النجـاة، بعـد أن ظـن أنـه مـلاقٍ حتفـه. عندمـا التفـت رأى ابتسـامة فـوق وجـه الزبـير، فبادلـه بأخـرى أكثـر إشراقـاً. لم تكـن بندقيـة الزبـير

تصلح بعد ذلك لشيء، والسود يقتربون أكثر، فأسرع نحو بعض البنادق المعبأة والساقطة إلى جوار بعض جثث رجال ود عموري، فعمد إليها واستطاع عن طريق طلقات نيرانها السريعة أن يعمل في الأعداء قتلاً وفزعاً بعد أن أردى زعيمهم قتيلاً، فانقلبت دفة المعركة رأساً على عقب، وبدأ الصمود يغزو كيان ما تبقى من رجال ود عموري بعد استشعارهم لذلك الدعم من الزبير الذي تحرك مرة أخرى في مقدمتهم، مطارداً السود الذين توخوا الهرب بجحافل مدحورة وأعقاب خاسرة، وبذلك استحالت الهزيمة إلى نصر مبين. ومن بعد بدأ الزبير يتفقد الجرحى وجثث الموتى.

(٤)

أسـقط الزبـير دمعتـين وهـو يـرى بـين الجثـث جثـة صديقـه إبراهيـم الدنقـلاوي قبـل أن ينـزع منهـا السـهم الـذي تـم غرسـه بقـوة في ظهـره، وقبـل أن تبـدأ مراسـم دفـن القتـلى التـي أصر فيهـا الزبـير أن تقـام فيهـا صـلاة الجنـازة عـلى القتـلى المسـلمين، وأمهـم في ذلـك. ليبـدأ تقليـداً لم يكـن متبعـاً مـن قبـل في تلـك الأحـراش.
كان الزبـير مهمومـاً بابـن عمـه محمـد عبـد القـادر، فهـو ليـس بـين القتـلى ولا بـين الجرحـى، ولمـا علـم مـن الرجـال الأحيـاء أن السـود أسروه ضمـن آخريـن، قـام بخلـع ملابسـه واسـتبدلها بملابـس أحـد القتـلى، فقـد كانـت تشـبه ملابـس الجنـود، وحمـل بندقيتـه وطلـب مـن بعـض الرجـال أن يتبعـوه للبحـث عـن ابـن عمـه الأسـير.
كانـت رحلـة بحـث شـاقة وخطـيرة تخطـى فيهـا الزبـير وسريتـه غابـات ومسـتنقعات وأدغـال، تعرضـوا فيهـا لهجـمات مـن حيوانـات متوحشـة، وأخـيراً توصلـوا إلى الموقـع الـذي كان معتقلاً فيـه محمـد عبـد القـادر والآخـرون مـن رجـال ود عمـوري. مـا أن رأى السـود الزبـير ورجالـه حتـى لاذوا بالفـرار تاركـين خلفهـم الأسرى. فتـم تحريرهـم وعـاد بهـم الزبـير للمعسـكر وسـط هتافـات قويـة وأهازيـج طروبـة، يقودهـا ود عمـوري نفسـه.أعلن هـذا الاسـتقبال الرائـع بدايـة لسـطوع نجـم قائـد فريـد ينظـر إليـه الجميـع بنظـرات إعجـاب لا حـدود لـه.

(٥)

الاستقبال دفع بالغبطة والسرور وأسباب الفخر والعزة إلى نفس محمد عبد القادر الأسير المحرر، وقال لابن عمه الزبير والابتسامة لا تفارق شفتيه:

- ديل يا الزبير ما بعرفوك، والما بعرفك بجهلك، بعرفوك الناس الزينا ديل، الناس الربو معاك وشافوك واتأكدوا من رجالتك وفروسيتك وفقهك وعلمك وإنسانيتك وشطارتك، بس من هنا ولا قدام بعرفوك يا خوي، وبدوك مكانتك.

كان لا بُدَّ أن تتبدل الأحوال، وتتحقق رؤية محمد عبد القادر، كان لا بُدَّ أن تتغير نظرة ود عموري، وكان لابُدَّ أن يترك مكابرته. كل هذا حدث بالفعل وود عموري يقترب من الزبير، اقترب منه وهو يتحسس رقبته التي كانت موضعاً لتلك المدية، وكأنه يمتن له بإنقاذه لحياته، وكأنه يقدم ندماً وأسفاً على ما فات، قال له:

- من الليلة يا شيخ الزبير أنت مساعدي وستخصص لك خيمة داخل هذا المعسكر، ستصلك فيها ملابس جديدة وستصلك فيها كل المؤن، من لبن وبلح وخبز وسلاح وكل ما تطلبه، وكل ما تحتاج إليه، ولا تعتب عليَّ فيما سبق: نحنا ولاد النهار ده..!

كانت هذه هي المرة الأولى التي يسبق فيها لقب شيخ مناداة ود عموري للزبير، وما أفاد به ود عموري كان ينم عن حب واحترام وتجلة، وكان إيذاناً ببداية معاملة مختلفة تحل مكان الاستخفاف والاحتقار والازدراء. لما كان الزبير يحمل قلباً نبيلاً لا يمل الغفران، قال له:

- بقولوا يا ود عموري المسامح كريم، في شان كدا أنا مسامحك وبتعاون معاك بس عندي شروط.

- أشرط يا شيخ الزبير..!
- في الأول طريقة التجارة دي لازم تتغير، التجارة أصلها التراضي، التجارة لا هي عنف ولا حرب، وتاني أنا بشوف قبال كل شيء الأهالي الكاتلوك ديل نشوف زول بفهم لغتهم ونرسلوا ليهم عشان يقنعهم بأننا قد أتينا تجاراً لا غزاةً، ولا محاربين ولا ظالمين. صمت ود عموري وبدأ يفكر وهو يقول لنفسه:
- أيريد هذا الرجل أن يغير طريقتنا في التجارة؟ نحن نجوب هذه المناطق منذ سنين، وهذه هي الطريقة التي نعرفها. ظل التجار قبل ظهور الزبير بينهم يستكشفون المناطق المجهولة ببعث سراياهم ليتوغلوا فيها مخترقين قبائل غير معروفة، ويتعاملون مع أهلها بخشونة وقسوة وغلظة، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن يصبح الأهالي معادين لهم، وأن تكابد تلك السرايا والحملات الصغيرة كثيراً، وأن تلقى عنتاً كبيراً، وتفقد من أفرادها الكثيرين. عندما رأى الزبير من ود عموري صمتاً، قال له:
- أعرف فيما تفكر، ولكن فكر في قولي هذا، علينا أن نقول عن طريق رسولنا الترجمان إلى الأهالي الذين قاتلونا وقاتلناهم: هلموا إلينا تعالوا لنا لنصبح أصدقاء، سندفع لكم خمس وعشرين ودعة، ديةً عن كل قتيل من قتلاكم، سنعطي خواتم نحاسية للأحياء منكم. بعد تفكير عميق وافق ود عموري على ما قاله الزبير، وكم كانت دهشته عظيمة عندما عاد الترجمان وفي معيته كبار أهالي المنطقة، وبعدما تسلموا الديات والهدايا وافقوا على أن يجلبوا لهم العاج وريش النعام، وأن تكتمل بينهم الصفقات عن طريق المقايضة. هذا المنوال من السياسة لازم الزبير، فعندما غاب ود عموري بدأ الزبير يمارس سياسة

السلم متنقلاً بين بلاد الإقليم، مكوناً صداقات كثيرة مع الأهالي والسكان الأصليين، متعرفاً على طبائعهم وعاداتهم، ومتعلماً لبعض لهجاتهم. لما رأى ود عموري في الزبير رجاحة عقله وحكمته، قال له:

- ألديك أي شروط أو رؤى أخرى؟

كان الزبير يرى أن السكان المحليين يعتورهم الضعف الشديد ومتحفزون للشر بلا داع أو سبب، وقد يفقد ود عموري رجاله وحراسه في أي وقّت، لذا رد عليه قائلاً:

- لا بُدَّ من النظام العسكري للرجال حتى لا يستهان بهم، ولا بُدَّ أن يسود السلم، وأن تتوخى العدل بالسداد الفوري والناجز لأثمان البضائع التي تجلبها من السكان المحليين.

- قل المزيد يا شيخ الزبير، أريد أن أسمع كل حكمة تتمتع بها.

- لا تسمح بقيام أية حملات أو سرايا غير نظامية، ويجب أن تكون قوتها كبيرة لا تقل عن عشرين رجلاً، ومن المهم جداً الحرص على كسب ثقة الوطنيين المحليين بالتودد لهم، وعدم أخذ أي شيء منهم قسراً وعنوةً، ولكن عليك أن تكون دائماً حذراً وعلى أهبة الاستعداد لمقاومة أي تعدٍّ عليك، ومواجهة أي عدوان ورده، وألا تعمد إلى أي هجوم أو غزو مطلق. عندما بدأ اجتماع الزبير بود عموري لم يكن هناك أحد معهما، ولكن سرعان ما تحلق الرجال حولهما يسمعون من الزبير ويشاهدون إطراقات ود عموري ويتملكهم الإعجاب والعجب. فجأةً نهض ود عموري وقبل أن يغادر المكان قال:

- يا شيخ الزبير قم بترتيب الأمور وفق ما تراه وتهوى، وهؤلاء رجالك تولى زمام أمرهم. خطوات ود عموري المبتعدة كانت تتبعها أصوات قوية ومزمجرة، أعلاها كان صوت ابن عمه محمد عبد القادر:

- نحنا رجالك يا الزبير، نحنا رجالك يا الزبير.

(٦)

شعر الزبير شعوراً حقيقياً بالسلطة، فقد تنسمها في ذات اللحظة التي فوضه فيها ود عموري بترتيب الأمور وقيادة رجاله، فرأى هيبته في أعينهم وفي ذلك الاحترام العميق الذي بدأوا يعاملونه به، وعندما استقر له الأمر تماماً داخل المعسكر، بدأ الزبير في تطبيق رؤاه وسياسته التي قال بها لود عموري، غير أن الزبير أراد أن تكون بدايته بإخراج ذلك المخزون الذي تنزل في كيانه وعقله من وقائع المعارك التاريخية التي خاضتها قبيلة الجميعاب التي أخذ صورها الحربية من شعر أجداده ونثرهم ومشافهاتهم، وما كان يقرأه دوماً عن أخبار الغزوات والسرايا الإسلامية، كان ذلك أمراً كالحلم، ولكن لا بُدَّ من تحقيقه، فجمع الرجال وخاطبهم قائلاً:

- إن كان الحق معنا فلن يعرف الخوف طريقاً لقلوبنا، وإن كانت قلوبنا مليئة بالإيمان فلن نخشى إلا الله، لقد أوشكت أن تلحق بكم هزيمة نكراء رغم أنكم تمتلكون أسلحة نارية، لأن الحق لم يكن بجانبكم، وأن قلوبكم تفتقر للإيمان، ويجب أن تعلموا من اليوم وصاعداً أننا قد أتينا إلى هنا لا لنقتل أحداً، ولا لنستعبد أحداً، أتينا من أجل التجارة مع أناس لا نعرف لغتهم ولا يعرفون طبيعتنا، ولا من أجل ماذا أتينا، كل ما يعرفون أننا قد أتينا لنهب ثرواتهم واقتناص رجالهم، وعلينا أن نستبدل هذه المفاهيم على أسس العدل والسلام، وأنا على يقين أن بوسع أي شخص أن يتاجر معهم إذا ما توجه إليهم بالموادعة والمسالمة بدلاً من اللجوء إلى فوهة بندقيته. تبدد الهدوء بتصفيق حاد من رجال الزبير، فأحاله ذلك الصخب للصمت، وكان لحديثه بقية، وعندما رفع يده عاد الهدوء

وسكن المكان فقال:
- ما قلته لا يعني أننا لن نذهب إليهم، بل سنذهب إليهم وسنكتشف المكان من حولنا، ولن نقف هنا بل سنتوغل أكثر حتى نضمن إحرازنا للبضائع التي نرغب فيها، سنوضح لهم بهدوء هدفنا ونبسط لهم نوايانا، ولن نبدأ معهم بالشر أبداً، سنقول لهم مثلاً: جئنا لبلادكم تجاراً وليس في نيتنا أن نسلب منكم شيئاً، وكل ما يجري بيننا سيحكمه الاتفاق العادل، نحن مثلكم نمتلك ثروات وبضائع، وما لا نحتاجه تحتاجونه، وبالعكس. مثلاً نحن نملك الخرز خذوه وأعطونا بدلاً منه سن فيل، عندها سيفهمون أن الأمر في مصلحتهم وفي مصلحتنا، ويجب أن يكون التعامل بالحسنى، وأن ندفع لهم ما نعدهم به، عندها سيحضرون لنا كل ما لديهم من الريش والعاج أو الصمغ أو الجلود، ولكننا لو ذهبنا إليهم بغطرسة وبصلف وعنجهية محاولين إخضاعهم باستعمال القوة، فإنهم سيلجأون إلى رماحهم وإلى حرابهم، وقد نفقد وقتها أرواحنا أو نخسر تجارتنا. سكت الزبير لبرهة، فرفع أحد الرجال يده مستأذناً لسؤال قائلاً:
- سيدي الزبير لدينا في معسكرنا وفي مراكبنا بضائع وضعنا مثلها خلفنا في مخازننا، أي نحن أصحاب مال فقد نتعرض لهجمات من الأهالي بغرض سلبها، أليس من الأجدر أن نهاجمهم نحن أولاً حتى نضعفهم، فلا يقوون على مهاجمتنا.
اعتلت وجه الزبير سحابة من الضيق، فرد على الرجل قائلاً:
- اجلس يا رجل ولا تكرر مثل هذا الحديث، نحن لن نهاجم أحداً، ومن يأتي إلى مثل هذه الأدغال يجب أن يعلم أنه يركب المخاطر، عليه أن يعي أنه وسط غابات كثيفة وموحشة تقل فيها الطرق وتتعرج في مسالك لا يعرفها إلا أهلها، عليه يجب

أن نكـون مسـتعدين للدفـاع عـن أنفسـنا، الدفـاع عـن أنفسـنا ضـد الحيوانـات المتوحشـة وضـد الهجـمات المعتديـة، وحتـى عندمـا نذهـب إليهـم يجـب أن يلازمنـا هـذا الاسـتعداد، ويجـب أن يكـون اسـتعدادنا اسـتعداداً عسـكرياً، فالعشـوائية المنتظمـة فيكـم يجـب أن تـزول، فالكثـير منكـم لا يعـرف كيـف يسـتعمل السـلاح النـاري الـذي يحملـه، ولا يجيـد التصويـب بـه، وحمـل السـلاح والذهـاب في الحمـلات التجاريـة يحتاجـان للقـوة والتدريـب، وهـذا مـا سـأبدأ بـه، سـأدربكم تدريبـاً قاسـياً، وأعلمكـم كيـف تسـتعملون السـلاح بطريقـة صائبـة، وسـأقود بنفـسي سراياكـم وحملاتكـم. الأمـر الثـاني والأهـم أن تلتفتـوا لدينكـم وتكرسـوا إيمانكـم بالصـلاة والعبـادة، ومـن هنـا فإننـي أدعـو مـن كان بينكـم ويديـن بغـير الإسـلام أن يدخـل في الإسـلام، لأنـه ديـن الحـق، ويـا أخـي محمـد مـن يقبـل دعـوتي هـذه عليـك أن تعلمـه أركان الإسـلام، وتحفظـه مـا يتيسر مـن القـرآن الكريـم، وهـذه الدعـوة لا تُنفـذ جـبراً إنـما طواعيـةً. هنـا صـاح محمـد:

- الله أكـبر، الله أكـبر، العـزة للإسـلام وصـلى الله عـلى نبينـا محمـد.

الطـير والوحـوش والأشـجار والغابـات والأنهـار في ذلـك المـكان لم تسـمع صيحـة مماثلـة مـن قبل. بـدأ الزبـير عملـه بجديـة في التدريـب الريـاضي لرجالـه الذيـن سـعدوا بعدلـه وهـو يرغـم ود عمـوري فيدفـع لهـم بسـخاء، فأغـرى ذلـك كثـيراً مـن الـلا دينيـين والوثنيـين مـن رجـال ود عمـوري السـود، أن يقبلـوا دعـوة الزبـير للدخـول في الإسـلام، فقـد اعتـبروه قائـداً وقـدوةً ومقدامـاً، خاصـة أنـه اسـتطاع أن يـرد ببسـالة عـلى كل معتـدٍ أثيـم، وكل لص فاجـر.

(٧)

كانت شجاعة وإقدام الزبير تسري في كيان رجاله، ويقود السرايا والحملات التجارية حازماً وموادعاً ولم يعمد إلى شن هجوم على أحد، وارتاد المناطق واكتشفها فذاع صيته، فقصده الأهالي من كل حدب وصوب يعرضون عليه بضائعهم ليبيعوها لهيأتون إليه آمنين ويعودون منه سعداء، ولم يمضِ وقت طويل حتى أحب الأهالي الزبير وبدأت القبائل تطلق اسمه على مواليدها، ويذهب إليهم قوياً ومسالماً، ويعود منهم ظافراً، ورغم جهلهم وبدائيتهم، فقد قال عنهم الزبير إنهم يفرقون بين الصدق والكذب، وبين الخطأ والصواب. ونتيجة لذلك كانت مكانته ترتفع لدى ود عموري يوماً بعد يوم، وبعد خمسة أشهر فاجأه ود عموري بقوله:

- أنا سعيد بهذا النجاح الذي ما كان ليتحقق لولا حسن تدبرك ومحبة السكان المحليين لك، كنا نفتقد هذه المحبة فمن قبل كنا نقابل بالكراهية، وعندما كنا نذهب إليهم كنا نحمل رؤوسنا فوق أكفنا، فشكراً لك على كل هذا، وعلى بسالتك في الدفاع عن بضائعي وأموالي، أنت الآن رجلي القوي وساعدي الأيمن، ولكني أريد أن أكافئك على كل ذلك، فأنا الآن أسمح لك أن تكون شريكي، لك النصف ولي النصف فيما نربح. كان العرض مغرياً وغير متوقع من تاجر كبير مثل ود عموري، لرجل مثل الزبير الذي لم يكن يساوي الكثير في نظره قبل خمسة أشهر فقط، فبدأ الزبير يفكر فيه بعمق والرؤى تنتابه: إلى متى سأظل في هذا المكان بعيداً عن الأهل والأحبة الذين فارقتهم لإعادة ابن عمي، متحملاً في ذلك رهق البحث والسفر، ولم أعد إليهم، وما رغبت في العودة إليهم إلا وكف

ابـن عمـي فـوق كفـي حتـى أخـذني الطوفـان عـلى حـين غـرة، ووجـدت نفـسي بـين أمـواج الإهانـة ولطـمات الاسـتفزاز وطبيعـة مـا أقسـاها، أنـا لا أرغـب أن أبقـى كثـيراً في هـذا المـكان، يجـب أن أعـود بابـن عمـي، يجـب أن أفي بوعـدي، أريـد أن أرى مولـودي، لا بـد أنـه قـد ولـد في غيـابي، وإن شـاءت الأقـدار لأبقـى هنـا فلـن أربـط مصـيري بـود عمـوري، أنـا الآن أعلـم منـه بدروب وشـعاب هــذه المنطقــة، النــاس هنــا أحبتنــي إن بقيــت ســأعمل لحســابي وليـس لحسـاب غـيري، ولا شريـكاً لأحـد. بعدهـا رد الزبـير عـلى ود عمــوري رداً لم يكــن يتوقعــه، كان رداً كالصفعــة:

– لا أقبـل أن أكـون شريـكاً لـك، ولـن أحبـس نفـسي معـك، أريـد أن أعـود لأهـلي أو أن آكل مـن خشـخاش هـذه الأرض..!

نظـر إليـه ود عمـوري ودهشـة تتملـك كيانـه ووجهـه وهـو يقـول لـه: عـرضي هـذا يـا شـيخ الزبـير لا يرفضـه إلا مجنـون. قبـل أن تغـادر خطـى الزبـير المـكان، حطـت ابتسـامة هازئـة عـلى وجهـه وهـو يـرد عـلى ود عمـوري قائـلاً: إننـي نفسـه ذلـك المجنـون..!

عندمــا تركــه الزبــير بــدأ ود عمــوري يفكــر واضعــاً رأســه بــين كفيــه ويقــول لنفســه:

– ليـس مـن المعقـول أن يرفـض الزبـير عرضـاً كالـذي تقدمـت بـه إليـه، أكـبر التجـار في المنطقـة يحلمـون بمشـاركتي فـما بـال هـذا الرجـل؟ هـل بالفعـل يريـد العـودة إلى أهلـه، أم أن طموحـه تزايـد ويرغـب أن يسـتقل بنفسـه ويصبـح مثـلي تاجـراً عظيـماً. لـن أتركـه، لـن أتـرك رجـلاً مثلـه يفلـت منـي، سأسـتبقيه معـي مهـما كلفنـي الأمـر إغـراءً أو اسـتجداءً.

(٨)

هــذه الخواطــر ســاقت ود عمــوري للبحــث عــن الزبــير داخــل المعسـكر، فألفـاه داخـل خيمتـه يمسـك بدفـتره يقـرأ منـه ويكتـب فيــه، فأحــس كــم هــو دقيــق ومنظــم هــذا الرجــل، قــال لــه:

- ألم تعدل من رأيك وتقبل بمشاركتي يا شيخ الزبير؟

- بكل أسف لا يا ود عموري.

- سأعطيك ما تريد وأقبل ما تمليه عليَّ من شروط.

- أشـكرك يـا ود عمـوري عـلى هـذه الأريحيـة، ولكنـي أحـسُّ بـأني لم أُخلـق لأكـون تاجـراً مشـاركاً، المشـاركة قيـد لا أَقبلـه، نحـن بدويـون نحـب الانطـلاق ولا نحـب القيـود، أرجـو أن تفهـم هـذا يـا صديقـي.

- إذن أخرجني من ورطتي.

- أي ورطة تلك التي وجدت نفسك فيها؟

- أريـد العـودة بـما أحرزتـه مـن بضائـع لتصريفهـا في الخرطـوم ثـم العـودة مـرة أخـرى في غضـون أربعـة أشـهر، ولا أرغـب في تـرك محطتـي ومخـازني خلفـي دون أن أجعـل عليهـا رجـلاً أمينـاً مثلـك، لم أعـد أثـق في غـيرك. التوتـر والقلـق بـدآ يطـاردان ود عمـوري عـلى إثـر ذلـك الصمـت الـذي بـدا عـلى وجـه الزبـير، كان صمتـاً لا يوحـي بـشيء، فقـال والمطـاردة ترهقـه وتلـف كلماتـه بآهـات وتنهـدات:

- أهـا يـا شـيخ الزبـير قـول لي، هـل تقبـل أن تبقـى هنـا مـن بعــدي؟

لم يتلـقَ ود عمـوري رداً مـن الزبـير سـوى الصمـت، فاسـتطرد قائــلاً:

- فقـط أربعـة أشـهر وسـأعود، سـأنقدك عنهـا مقدمـاً مبلغ سـتمئة

جنيه، تكون بعدها حراً تذهب حيثما تريد.

أحسَّ ود عموري بأن الزبير يرغب في الرد عليه، فتهيأ بقلب خافق للسماع وأخذ الزبير يقول له:

- ما كنت سأقبل أن أبقى خلفك مشرفاً على محطتك، إلا بعد شعوري بحاجتك لي، وليس من اللائق أن أخذلك ولكن بعد عودتك تهيأ لوداعي.

- أنا عاجز عن شكرك يا صديقي.

- لا تشكرني على واجب حتمه عليَّ نجدة صديق، ولكن هناك المزيد الذي أود أن أحدثك به.

- تفضل يا شيخ الزبير تفضل.

- عرضك لا يغريني بالبقاء، يجب أن تضاعف ما ستدفعه لي كما يجب أن تعلم بأن سيكون لي عُشر ما سأحرزه لك من بضائع في غيابك.

- عدل هذا، عدل يا صديقي، أنا أوافق على كل ما قلته لي، والآن سيصلك مبلغ ألف ومئتي جنيه.

- إذاً تهيأ للسفر وتأكد أنك استأجرت القوي الأمين.

نهض ود عموري ونهض الزبير وتعانق الرجلان عناقاً كأنه توقيع على عهد وعقد بينهما. بدأ العبيد ومساعدو ورجال ود عموري في رفع البضائع إلى المراكب من بينها العاج، أو ما يسمونه بالذهب الأبيض، وقبل أن تحرر المراكب من مراسيها وتفرد أشرعتها كان الزبير وابن عمه محمد عبد القادر ومعهما نحو ستة وثلاثين رجلاً ممن تركهم خلفه ود عموري من رجاله مع الزبير، يلوحون بأكف الوداع، ثم أبحرت المراكب ورويداً رويداً اختفت في الأفق، لتبدأ بعد ذلك مرحلة جديدة في حياة الزبير الذي لم يسكن لراحة في فترة غياب ود عموري، وبدأ نشاطه في ممارسة سياسة السلم وتوسعت دائرة صداقاته

مـع الأهـالي، وانفتحـت مغاليـق بعـض لهجاتهـم أمامـه، فتعمـق حبـه في قلوبهـم وبـدأت حرابهـم التـي كانـوا يقاتلـون بهـا التجـار ترتفـع عندمـا يظهـر لهـم الزبـير في تناغـم مـع رقصاتهـم الترحيبيـة، وهكـذا اسـتمر الزبـير يحـرز نجاحـاً تلـو نجـاح دون ظلـم ودون سـفك دمـاء.

(٩)

انقضت الأربعة أشهر ولم يعد ود عموري، وانتظره الزبير شهراً خامساً فلم يعد أيضاً، فهمس أحد رجال الزبير في أذنه قائلاً:

- لم يعد ود عموري إلى محطته بعد كما وعدك يا سيدي الزبير، وإن أردت أن تسمع نصيحتي يا سيدي فعليك أن تعود بالبضائع الموجودة إلى الخرطوم وتبيعها هناك لحسابك، فعدم عودة ود عموري إلى الآن تعني أنه قد هلك.

حدجه الزبير بنظرة أطارت لُبّه وقال له منتهراً:

- هل تتحدث إلى لص أو إلى رجل يخون الأمانة، أنت ضعيف الإيمان، هذه البضائع لا أملك إلا عُشرها والباقي أمانة في عنقي، فكيف تريدني أن أخون الأمانة؟ ولو تأكد لنا أن ود عموري مات، فلديه من يرثه، وهذه تركتهم عليه لا مشورة لك عندي بعد اليوم، فقط أدِّ واجبك ولا تجالسني بعد الآن.

بعد ستة أشهر عاد ود عموري، وبعد استقبال رائع اعتذر ود عموري عن فترة غيابه التي استطالت إلى هذا الحد، وقرر أن يدفع للزبير المزيد، بل عبّر عن المزيد من إعجابه بالزبير، خاصة عندما وجده وبحوزته خمسمئة كنتال من الذهب الأبيض. في إباءٍ رفض الزبير أن يأخذ المزيد من المال من ود عموري وقال له:

- يكفي ما دفعته لي سابقاً، كما يكفيني عُشر البضاعة الموجودة حسبما اتفقنا.

- لا يا شيخ الزبير، أنت تستحق نصفها، فقط اقبل عرضي القديم الذي أجدده لك الآن أمام كل هؤلاء الرجال، بأن

تصبح شريكاً لي في كل تجارتي.. ستشعر بالكسب معي وسأشعر بالأمان لجانبك، مراكبي ورجالي ورأسمالي كله تحت تصرفك، فقط اقبل شراكتي.

للمرة الثانية يرفض الزبير عرض الشراكة الذي تقدم به إليه ود عموري وسط دهشة الجميع، فقد كانت أعماقه الطامحة تهتف له بالمجد، وكان أن تبين للزبير طريق المتاجرة المثمرة والمجدية، وقرر أن يشق لنفسه طريقاً في تلك الديار، وفضل أن يعمل مستقلاً بنفسه، وقرر أن يعود للخرطوم بعد غياب دام لأكثر من عام كامل. بوادر الفراق بدأت تلوح في سماء الرجلين الزبير وود عموري، وعندما انتهت مراسم التسليم والتسلم، وبعد أن أخذ الزبير نصيبه البالغ عُشر البضاعة، بدأ ود عموري يستعد للرحيل إلى مجاهل أخرى وفي نفسه حسرة على فراق الزبير، وعندما افترقا ترك الزبير برفقة ابن عمه محمد عبد القادر وغادر برجاله الذين أهلهم الزبير بالتدريب وأدخل الإسلام في نفوس بعضهم. لم يكن محمد عبد القادر يعرف ماذا يدوز في ذهن الزبير في تلك اللحظات، ولكنه كان واثقاً أن الزبير سيتصرف تصرفاً يسعده، وقطعاً لن يبقيا في هذا المكان وحيدين ومعهما نحو خمسين كنتالاً من العاج في معسكر خالٍ من الرجال، وخاوٍ على عروشه، وهنا التفت إليه قائلاً:

- أها يا الزبير شن بتدور تسو بعد كدي، أنا وإنتا نقعد هنا برانا بي بنادقنا حارسين لنا سن فيل؟

- لا يا محمد بإذن الله ستسير الأمور سيراً حسناً، فقط أبقَ ضع سلاحك فوق كتفك واتبعني.

- نان يا الزبير تخلي بضاعتك وراك ونمشي وين؟

- نمشي لي أصحابنا من الأهالي، تراني عرفتا كتير من رطانتم.

- بس الغابات دي صعبة وحيواناتا متوحشة وكتيرة والبضاعة دي بتتنهب.

- نتوكل على الله، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، وإن شاء الله ربنا يلطف علينا ويحمينا ويحمي بضاعتنا.
- خلاس نتوكل، ووالله يا الزبير البرافقك أصلوا مو خسران.

(١٠)

تحـرك الرجـلان كلٍ منهـما يحمـل سـلاحه فـوق كتفـه وعـلى ظهريهـما يحمـلان زاداً قليـلاً، فكانـت تلـك مغامـرة خطـرة ولكنهـا كانـت بدايـة المجـد والسـؤدد. غابـة موحشـة وأدغـال خطـيرة أخـذ الزبـير وابـن عمـه يشـقانها وذكريـات سـيئة تقفـز إلى ذهـن محمـد عبـد القـادر وتأخـذ بتلابيبـه، فهـا هـو الآن يتوجـه مـع ابـن عمـه الزبـير إلى موطـن أولئـك الذيـن أسروه وكادوا يذبحونـه ويأكلـون لحمـه لـو لا أن أنقـذه الزبـير.. يـا إلهـي كيـف يستسيغون لحـوم البـشر؟. زئـير أسـد طـرد تلـك الذكريـات مـن مخيلتـه وهـو يـرى الزبـير يحكـم قبضتـه عـلى سـلاحه ويقـول:

- ما تكورك ساكت أظهر..!

أي رجـلٍ هـذا الـذي يخاطـب أسـداً بمثـل هـذه الكلـمات، ملـك الغابـة الّـذي ترتعـد مـن زئـيره فرائـص الحيوانـات وأوصـال المحاربـين الأشـداء. لم يشـعر محمـد بالخـوف وهـو بجـوار ابـن عمـه، كان يشـعر معـه بالأمـان والاطمئنـان وعندمـا بـرز لهـم ذلـك الأسـد توخـى فيـه الزبـير مـن سـلاحه موضـع اللـب، فـأرداه قتيـلاً ثـم أخـذ يترنـم بـما قالـه بشر بن عَوانة العبدي عندمـا وصـف ملاقاته الأسد وما كان بينهما:

أَفَاطِمُ لَوْ شَهِدْتِ بِبَطْنِ خَبْتٍ ❋❋❋ وَقَدْ لاَقى الهِزَبْرُ أَخَاكِ بِشْـرَا

إِذاً لَـرَأَيْتِ لَـيْثـاً زَارَ لَـيْثـاً ❋❋❋ هزبرا أغلبا لاقى هزبرا

تَبَهْنَسَ ثم أحجم عَنْهُ مُهْـرِي ❋❋❋ مُحَاذَرَةً، فَقُلْتُ: عُقِرْتَ مُهْـرَا

أَنِلْ قَدَمَيَّ ظَهْرَ الأَرْضِ؛ إِنِّـي ❋❋❋ رَأَيْتُ الأَرْضَ أَثْبَتَ مِنْكَ ظَهْرَا

وَقُلْتُ لَهُ وَقَدْ أَبْـدَى نِـصالاَ ❋❋❋ مُحَدَّدَةً وَوَجْهاً مُـكْـفَـهِـراً

يُكَفْكِفُ غِيلَةً إِحْدَى يَدَيْهِ *** وَيَبْسُطُ للْوُثُوبِ عَلَىَّ أُخْرَى
يُدِلُّ بِمِخْلَبٍ وَبِحَدِّ نَابٍ *** وَباللَّحَظاتِ تَحْسَبُهُنَّ جَمْرَا
وَفي يُمْنَايَ مَاضِي الحَدِّ أَبْقَى *** بِمَضْرِبهِ قِراعُ المَوتِ أُثْرَا
أَلَمْ يَبْلُغْكَ مَا فَعَلَتْ ظُباهُ *** بِكَاظِمَةٍ غَدَاةَ لَقِيتُ عَمْرَا
وَقَلْبِي مِثْلُ قَلْبِكَ لَيسَ يَخْشَى *** مُصَاوَلةً فَكَيفَ يَخَافُ ذَعْرَا ؟!

تأصلت بعد ذلك في نفس الزبير هواية صيد الأسود، وله في ذلك حكاية أنقذته من موت محقق.

(١١)

بعد مشقة وعنت وصل الزبير برفقة محمد إلى أول المناطق الآهلة بالسكان المحليين، كانوا يعرفونه ويعرفهم، فاستقبلوه بالبهجة والفرح، وقال له كبيرهم ويدعى أتاورا:

- لقد أسميت آخر مواليدي زبير، وأتمنى أن يصبح مثلك.

- شكراً لك ولكنه سيصير فارساً مثل والده أتاورا.

بعد أحاديث الاستقبال الرقيقة ذبح أتاورا ثوراً إكراماً لضيفيه ثم بدأ الزبير يفصح عن أسباب مجيئه فقال لأتاورا:

- أنتم أفضل من تاجرت معهم، وأريد الآن أن استقل بتجارتي لذا أرغب في صناعة مركب، وأن أستعين ببعض رجالك ليرافقوني في رحلاتي التجارية، فرجالك أقوياء وشجعان وأنا أثق بهم ليكونوا حراساً لي وسأكافئهم على عملهم معي.

- كم تريد من الرجال.

- أريد ثلاثين رجلاً.

- لك ما تريد.

قفل الزبير عائداً بحراسه من رجال أتاورا إلى المعسكر الذي خلف فيه بضاعته من العاج، حدث ذلك وعام ١٨٥٨م يدخل ربعه الأخير، وهناك بدأ العمل الشاق في بناء مركب ضخم كان قد اشترى هيكله واستطاع الزبير أن يستبدل العاج مع التجار العابرين ببضائع تروق سكان المناطق التي ينوي سبر أغوارها، كما اشترى منهم المزيد بما لديه من أموال نقدية، وهي التي دفعها له ود عموري. عدة شهور والزبير يعد نفسه للانطلاق، وبعد أن حمَّل مركبه بكافة البضائع التي أحرزها، اتجه صوب الغرب مُبحراً إلى منطقة يقال لها (النيام نيام) الذين قال عنهم: من العسير على الذهن الأوروبي أن

يتصـور حالـة معـشر قبائـل (النيـام نيـام)، فقـد كانـوا وثنيـين لا إله لهـم ولا رسـول ولا قانـون، يعبـدون الأشـجار أو النـار أو المـاء أو فـرس البحـر أو الثعبـان، ولم تكـن لهـم أيـة مهنـة يحترفونهـا غـير الصيـد وقتـل بعضهـم بعضـا، كـما كانـوا كلهـم مـن أكلـة لحـوم البـشر..!

(١٢)

تعرَّف الزبير هناك على ملك النيام نيام، وكان يدعى (زنقابور) وظل يتاجر مع تلك القبائل بودٍ ونجاح، ملتزماً بسياسة المسالمة، فانضم إليه عدد آخر من الرجال، وظلَّ هناك لعام كامل خلاله زادت محبة الملك زنقابور له ليحرز الزبير مكانة رفيعة ونفوذاً واسعاً وقوياً في بلاطه، يعيد للأذهان حكايات ما بلغه يوسف من منزلة لدى فرعون، غير أنه رزء بوفاته في نهاية ذلك العام، ولكن نفوذه في ذلك البلاط ظل قائماً رغم تنصيب (تكمة) ملكاً خلفاً لوالده الراحل (زنقابور)، إذ تأسى تكمة بسياسة والده تجاه الزبير، فأخذ يقبل منه النصح ويجالسه ويتشاور معه في شأن الأمور التي تخص مملكته، وتربص الأعداء بها فوجد الزبير خير من يُستشار، غير أن الزبير كان دائماً تنهض في ذاته قيمه الإسلامية في بلاد لا تعرف عن الإسلام شيئاً، فقرر أن ينزل تلك القيم ما استطاع بين أولئك الناس بحذر ومناصحة. كانت عادة أكل لحوم البشر في قبائل النيام نيام تزعج الزبير وتثير اشمئزازه، ولكن ما من سبيل للقضاء على عادة متأصلة فيهم لدرجة أنهم لا يأكلون سوى لحوم البشر! فقد كان الرجال والنساء والأطفال يقتلون في السوق ويقطعون ليباعوا كما تُباع شرائح لحوم البقر والضأن. كل السجناء وأسرى الحروب يُؤكلون، كل من بلغت به السمنة حداً تجعله لا يصلح لشيء يُقتل ويُؤكل، من رأوا فيه سوء خُلق يُقتل ويُؤكل، والذين يموتون موتاً طبيعياً يُؤكلون، غير أنهم لا يأكلون لحوم أقاربهم، فلو احتضرت والدة أحدهم وأشرفت على الموت، فإن ابنها يعرض بيعها لأي شخص من قرية مجاورة، مثمناً جسدها وتبطل المبايعة بنجاة المحتضرة من الموت، وإلا صح العقد فتنقل إلى من اشتراها بعد موتها لتُلتهم في رقة وفي لطف ومتعة بعيداً عن أهلها وابنها..!

(١٣)

هــذه المشــاهدات كانــت تقــع في قلــب الزبــير في موضــع الأســى وكان يقــول لابــن عمــه محمــد:

– هــذا منكــر وقــد قــال رســولنا الكريــم: «مــن رأى منكــم منكــراً فليغــيره بيــده، فــإن لم يســتطع فبلســانه، وإن لم يســتطع فبقلبــه، وذلــك أضعــف الإيــمان».

– أي نعــم يــا الزبــير، وحقــو تكلــم تكمــة بالموضــوع ده ويمنــع أكل لحــوم البشر.

– لا يــا محمــد، لازم في الأول النــاس ديــل يعرفــوا الزراعــة أكــتر ويتعلمــوا التجــارة وشــوية شــوية يتعلمــوا. ابتســم محمــد وقــال للزبــير قبــل أن تســتحيل ابتســامته إلى ضحكــة:

– عشان يشبهوا الناس ولا مو كدي يا الزبير أخوي.

بعد انتهاء الضحكة التي جمعت الصديقين قال الزبير:

– الملك تكمة بسمع كلامي وأنا ماشيلو بي خطة.

– ربنا يوفقك معاهو في عمل الخير يا الزبير.

كان الزبــير يــرى أن هنــاك شــباباً أقويــاء يُقتلــون مــن أجــل أن يُؤكلــوا، وكان يحــس مــع ذلــك بالأســف، وكان يــرى في إقليــم (زنقابــور) أن العــادة الغالبــة أن تُقســم الأنفــال إلى أسرى وغنائــم، وكانــت الغنائــم تذهــب للملــك ويكــون الأسرى مــن نصيــب الأهــالي، ولمــا كان الملــك تكمــة يســتأنس بــآراء الزبــير ويحفــظ لــه مكانتــه في بلاطــه، كــما كان يحفظهــا فقــد آثــر الزبــير وفقــاً لخطتــه أن يقــول لــه:

– ســيدي إنــك تعلــم بأننــي ومثــل مــا كنــت مــع والدكــم أتمنــى لكــم العــزة والقــوة.

- نعلم ذلك، ونحن ممتنون لك وسعداء بوجودك بيننا.

- دي نصيحة أرجو أن تقبلها وتعمل بها، وإن عملت بها فستجد من ورائها خيراً كثيراً.

انتبه تكمة وزاد الفضول وحب الاستطلاع في قلوب حاشيته والزبير يقول:

- أليس من الأجدى والأنفع أن تعطي الأهالي أقمشة الشيت والخرز بدلاً من الاستحواذ على الأسرى من الشباب الأقوياء.

كان الاقتراح مفاجئاً وصادماً للكثير من حاشية الملك، ولكنه كان اقتراحاً له مفعول السحر. كانت عيون الملك تكمة وحاشيته تروح وتغدو طائفة على وجه الزبير ذي الملمح الصلد، وهم يقلبون في أذهانهم رأي الزبير القائل بإعطاء الأهالي أقمشة وخرزاً بدلًا من استيلائهم على الأقوياء من الأسرى، وبدا أن جميعهم بمن فيهم الملك تكمة لم يصلوا لقرار الموافقة على هذا الرأي المفاجئ والصادم، الذي سيصيب الأهالي بأشواق لأكل لحوم البشر، وهذا ما كان يقصده الزبير الذي كان يريد أن يصيب هذه العادة الذميمة في مقتل، وكادت الحاشية بإشاراتها الموحية وامتعاضها الواضح أن تدفع تكمة إلى رفض اقتراح الزبير الذي فطن للأمر، فنهض من مكانه جوار الملك وانتصب واقفاً بعوده الفارع وأخذ يتحدث بلغتهم التي أجادها قائلًا:

ـ لماذا يُؤكل أولئك الشباب الأقوياء؟ لماذا لا نستفيد من قوتهم؟ نعم، هم أسرانا ويمكن لنا أن نقتلهم أو نذبحهم أو نهديهم لشعبنا، ولكني أريد أن يكونوا جنوداً لنا، ندربهم كعساكر وينخرطون في خدمتنا، سيكونون ممتنين لنا وأوفياء بعد أن نبعدهم عن هذا المصير الأسود، سيدافعون عن مملكتنا ببسالة ضد الأعداء، وأنتم تعلمون أن حولكم الكثير من الأعداء الذين يطمعون فيكم وفي لحومكم أيضاً.

عندها سرت همهمة فأيقن الزبير أنه قد هز قناعتهم برأيه، خاصة وأن تكمة لم يكن الإطراق من عاداته، وها هو يطرق الآن ولكن الزبير

استمر في الحديث قائلًا:

ـ للأسرى أهل وقبائل سيعملون على أخذ الثأر أو تخليص أسراهم منكم. عليه أرى قبل تجنيد أي أسير في صفوفنا أن ندفع عنه فدية كاملة. يجب أن تكون هذه هي خطوتنا التالية. بدأت الأنظار تتجه نحو وجه الملك تكمة الذي تخلص من إطراقته بوجهٍ مبتسم، ومن ثم أصدر قراره بقبول اقتراح الزبير والعمل به فوراً. فأخذت الحاشية تحيي الزبير وتهتف بـــاسمه واسم ملكهم تكمة. وفي ركن قصي من أركان ذلك المكان بدا محمد عبد القادر بعين دامعة وهو يرفع كفه للزبير بعلامة النصر.

هذه الواقعة لم تبرح ذهن الزبير قط، فكم هو وفيٌّ ابن عمه وصديقه هذا، ليس له فحسب إنما لابنه سليمان من بعده، فقدبقي محمد مع سليمان الزبير بعد مغادرة الزبير للسودان بعد ذلك بسنوات عديدة ليقع معه في أسر جيسي باشا الضابط الإنجليزي، وفي خسة وغدر قتلهما رمياً بالرصاص. كانت دموع الزبير عصيةً ولكنه وهو في أسره كان يبكي كلما تذكر هذه الحادثة.

(١٤)

عندما بدأ تنفيذ أمر الملك تكمة وبدأت القبائل تأخذ فداياتها عن أسراها، توقفت عن أكل لحوم أسراها مستعيضة عن ذلك بعرضهم للبيع ليصبحوا جنوداً أرقاء. فأيهما أفضل!، أن تكون في بطون من أسروك أم أن تعمل جندياً في جيشهم؟ هكذا بدأت سُنة جديدة تتبع في تلك الأماكن بتكوين جيش من الأرقاء. وبذلك نجح الزبير في الحد من عادة أكل لحوم البشر، وبقي هو يعمل في تجارته مع حراسه القليلين الذين سلحهم ببنادق فرنسية الصنع، كان قد اشتراها من التجار الشماليين الذين يجوبون تلك المناطق يبحثون عن العاج ويقتنصون العبيد. لم تكــن القبائل في تلك المناطق قد أمسكت بعد بأهداب المدنية، كانوا متخلفين كالعناكب تقتل بعضها.

عندما شعر أحد جيران الملك تكمة بأنه قد صار قوياً رغب في غزوه. كان يدعى الزعيم (مريسة)، يتخذ من بلدة كبيرة عاصمة له. ولما وصلت هذه الأخبار للملك تكمة جرد جيشه العظيم واتجه به صوب عاصمة مريسة مصطحباً معه الزبير وحرسه. وبعد معارك شرسة وطويلة امتدت لأربعين يوماً، استطاع تكمة وجيشه الوصول لعاصمة الزعيم مريسة، ولدهشتهم وجدوها خالية تماماً وأبواب بيوتها مفتحة على مصاريعها، فدخلت قوات تكمة تلك البيوت مستبيحين المدينة الخالية يبحثون عن الأكل والشراب، فقد أرهقتهم هذه الحرب الطويلة وأصابتهم بالجوع والعطش، وأبدوا سعادتهم وفرحتهم وهم يرون داخل كل بيت من تلك البيوت كمية معتبرة من شراب (المريسة) المسكر، فهجموا عليه في شراهة واندفعوا إليه بنهم، فعبوا منه ونهلوا كالسوائم العطاش. هذا المشهد أثار شكوك الزبير فحاول منع أولئك القوم من أن يقربوا ذلك الشراب، ولكنه فشل في ذلك، فقد كانوا

فوضويــين لا يلتزمون النظام ولا يتقيدون بالانضباط، واكتفى الزبير بمنع حراسه من الاقتراب من هذا الشراب وهو يقول لهم: أشعر بأن في الأمر مكيدة. عندما طفحت المدينة بأفواج السكارى المترنحين وامتلأت بهم عرصاتها، حدث الأمر الذي توقعه الزبير!

(١٥)

كان انسحاب مريسة وقواته من المدينة انسحاباً تكتيكياً، فقد كمن خارجها، وعندما أبلغته العيون بأن الخمر قد لعبت برؤوس رجال تكمة، كرَّ عليها قافلًا وذبح من وجده ذبح الشياه، وهرب من نجا، غير أن الزبير وحراسه تحلقوا حول تكمة بغية حمايته وإخراجه من تلك المدينة سالماً، فأدار الزبير معركة الانسحاب ببسالة وشجاعة، ونجح في إخراج تكمة وفصيـــلاً من قواته، وقبل انتهاء المعركة وجدت حربة طريقها إلى صدر الزبير ونفذت من فوق رئته اليمنى إلى كتفه، محطمةً عظمه، فأمر بكسر نصلها والإبقاء على سنها ليظل غارزاً في الجرح ليمنع تدفق دمه إلى خارج جسده، واستمر وهو بتلك الحالة يبذل الجهد لسلامة وحماية الملك، وقبل أن يتجاوز به النهر أصيب الزبير مـرة ثانية بجرحٍ في فخذه، ولكن الانسحاب كان قد تم بنجاح، وبعودتهم إلى مقر تكمة بسلام تولى تكمة سحب سنة الحربة بنفسه من جسد الزبير، وكما توقع الزبير اندفع الدم جياشاً بكميات غزيرة من جرحه جعلته يرتمي فاقداً الحس والشعور بين يدي تكمة، فانتابته الحمى. وبينما كان تكمة ورجاله يتولون علاجه، كان محمد عبد القادر ينظر إليه بعطفٍ وإشفاق ويدعو قائلًا: اللهم اشفه شفاءً ليس بعده سقماً، واحرسه بعينك التي لا تنام، واحفظه بعزك الذي لا يضام، يا كاشف الهم، يا مفرج الكرب، يا مجيب دعوة المضطرين. أخضع الملك تكمة الزبير لعلاج مكثف، فأخرجه ذلك من مرحلة الخطورة، ولكن جراحه لم تشفَ تماماً بعد، وقبل ذلك دعا الملك (تكمة) مجلسه لـــلانعقاد وأخذ بيد الزبير وهو مثخنٌ بجراحاته وقال لهم:

لقد فررتم مني حين أحدق بي الخطر، وتركتموني لأموت، لكن هذا الغريب وهبني الحياة مرة أخرى، لقد جُرح من أجلي وأنقذني، إنه الآن ليس منقذي وصديقي فحســب، إنما هو ابني هل فهمتم ذلك؟

قالوا: نعم يا سيدي.
إذاً عليكم الآن الموافقة على تزويج ابنتي له..! امتعض القوم في تلك اللحظة وشعروا بالغيرة والحنق، وقالوا لمليكهم في جُرأةٍ دفعت بهم إليها الغيرة:
ـ كيف تعطي ابنتك لرجل غريب لا تعرف عن مولده ونسبه شيئاً، وأنت لا تدري إن كان في بلده ينحدر من سلالة طيبة أم من أصـلٍ رديء؟
فرد عليهم قائلًا:
لقد كشف الرجل عن معدنه وعن طيب عنصره، بأفعاله ووفائه وحكمته ورجاحة عقله، ولولاه للقيت حتفي، من يا ترى يملك شجاعته منكم، دعوه ليهب ابنتي ولداً مثله. لم تكن همهمات القوم تدل على الرضا، ولكن صرخة قوية من الملك أعادتهم إلى سكونهم:

أين ابنتي الحبيبة؟ احضروها الآن.
بعد حين برزت الأميرة ابنة الملك تكمة غادة حوراء سمراء ذات دلالٍ ومرح، زنجية عليها قلائد من جمانٍ، وبينما كان الحياء يدفع بشفق لسانها الأحمر ليداعب صبح أسنانها البيضاء، كان محمد عبد القادر يخفي ابتسامته بكفه ويقول لنفسه: يا حليلك يا بت عمي عاشة بت منصور، الزبير بدور يعرس فوقك..! لم يكـن الزبـير الـذي أُعجـب بالأمـيرة ابنـة الملـك تكمـة وخفـق قلبـه لهـا في وضـع يمكنـه مـن الـزواج بهـا في تلـك الأيـام التـي أعقبـت معركـة المدينـة الخاليـة، التـي جُـرح فيهـا جروحـاً عميقـة وخطـيرة لا يـزال يعـاني آثارهـا ويكابـد ويلاتهـا المسـتمرة، وظـل عـلى مـدى أربعـين يومـاً يخضـع للعـلاج المكثـف الـذي كان يـشرف عليـه الملـك تكمـة شـخصياً. بعـد تماثـل الزبـير للشـفاء بـدأت مراسـم زواجـه مـن الأمـيرة ابنـة

ملك النيام نيام تكمة، فكان الفرح طاغياً وأسطورياً، التأم فيه أفراد القرى المجاورة وعبروا فيه عن بهجتهم بالرقص وقرع الطبول ورفع الأسنة والحراب، وحراس الزبير بقيادة ابن عمه محمد يطلقون أعيرة نارية في الهواء من بنادقهم فرنسية الصنع.

(١٦)

قبل أن تزف الأميرة إلى الزبير طلب أن يعقد قرآنه عليها وفقاً لتعاليم دينه الإسلامي، فوافق تكمة على ذلك، وبذلك اكتمل هذا الزواج وتمت تلك المصاهرة التي كرست مكانة الزبير في أعلى قمة اجتماعية من قمم تلك المملكة، ولم ينكر الزبير أنه قد أحب زوجته الأميرة بنت الملك تكمة ووصفها بأجمل الصفات. كان يقول لها:

- أنت جميلة ومليحة وطيبة.

وترد عليه:

- وأنت فارس شجاع تطفح فحولةً وقوةً.

ولما كان الزبير فتًى اتخذ المجد مبدأً وشعاراً، فلم يكن يثنيه عن بلوغ أمانيه غرام يثور في الأضلاع، فترك خلفه زوجته الحبيبة مع والدها تكمة حاملاً رايته ليغرسها في تلال أخرى من المجد والثراء. لم يكن الزبير في بلاد النيام نيام غريب الوجه أو اليد أو اللسان، فقد صار وجهه فيها مألوفاً وبيده السلاح، ولسانه تعلم كيف ينطق بلهجاتهم المحلية، وقد سعد كثيراً أن انضم إليه نحو خمسين من أبناء الشمال الذين توافدوا إليه، إما من أهله أو من أولئك الذين تخلصوا من خدمة تجار آخرين مفضلين الزبير، الرجل القوي والتاجر العادل. بكل هؤلاء وحراسه وبضاعته ومراكبه ودع الزبير أرض النيام نيام متوخياً جمع المزيد من البضاعة والعودة إلى الخرطوم لبيعها، وعندما أزفت ساعة السفر، ودعه تكمة بعين أسيفة، وكف قوية، وودعته الأميرة بحضن دافئ ودمعة مسفوحة. أطلقت المراكب أشرعتها وأبحرت فوق صفحة نهر شرس ذي مسالك وعرة، قذف بهم إلى المجهول وسط مستنقعات لم يكتشفها أحد من قبل،

وبدأ التوهان يأخذهم إلى جهة الغرب، فاستحال مجرى النهر إلى بحيرة عظيمة، فضلُّوا طريقهم تماماً، ومضت الأيام والأسابيع ونفذ الزاد وهم في مجاهل ماؤها سمٌّ، وطعامها مفقودٌ، شدة ما بعدها شدةالبحارة بدأوا يفقدون طاقتهم واليأس أطبق على النفوس التي بدأت تقاسي مرارة الحرمانخمسة وسبعون يوماً مرت ولا يجدون شيئاً يقتاتون به، سماء مظلمة، ولا شيء تدب فيه الحياة في هذه المجاهل المهلكة التي أصابت بعضهم بالجنون. وبدأ الموت جوعاً يغزوهم، فمات من رفاق الزبير الكثيرون، فيدفع الأحياء بجثثهم إلى النهر بعد أن منعهم الزبير بحزم من أكلها. بعد أن أشرف الزبير ورفاقه على الموت واستبد بهم اليأس، تطلع من فوق سارية المركب فأبصر من بعيد دخاناً بعث الأمل في نفوسهم.
صاح الزبير القائد: ابحروا في اتجاه ذلك الدخان.
استمر الإبحار ووصلت المراكب إلى يابسة قذرة فقال الزبير:
- على الجميع الصبر والهدوء بإذن الله سننجو.
ثم أمر ثمانية من رجاله أن يتبعوه فوضع معهم رجله على تلك اليابسة التي لم تكن تخلو من مستنقعات آسنة صغيرة وحشائش وأشجار ولا شيء حي يتجول في ذلك المكان.

(١٧)

كان الزبير يتظاهر بالقوة رغم أن الجوع قد نال منه، كما نال من الآخرين، فكيف سيكون حال رجاله إن هو أبدى ضعفاً أو انهياراً، وفجأةً رأى شيئاً ضخماً يتحرك، تحركت مشاعر قديمة زمجرت دواخله بذكرى سحيقة ومؤلمة واندفعت فيه دماء الثأر، تُؤججها مشاعر الجوع القاتل. إنه حفيد ذلك التمساح الذي اختطف شاتي العزيزة من شاطئ جزيرتنا القديمة واوسي، لن أسمح لك أيها الحفيد أن تعيش أكثر مما عشت. وبدقة تصويباته اندفع الرصاص من فوهة بندقية الزبير وأصابت رأس التمساح فمات، وعندها اندفع الرجال وأوقدوا النار من حطب ذلك المكان بعد أن قطعوا التمساح إلى شرائح وشووها وجبةً بعثت فيهم قوةً جديدةً، ليأمرهم الزبير بحمل ما تبقى من لحم التمساح، وكان كثيراً، والعودة به إلى المركب، وعندما وصلوا إليها وجدوا أن ستة آخرين ماتوا جوعاً، فوضعوا للبقية ما معهم من تلك الشرائح ليأمر الزبير رجاله الثمانية بالعودة لليابسة من جديد للبحث عن مصدر ذلك الدخان، وهو يقول لهم: يتحتم علينا الآن أن نجد مصدر ذلك الدخان أياً كان أو نموت، ولن نعود إلى هنا أبداً إلا ومعنا الطعام الكافي. بدأت رحلة البحث عن مصدر الدخان. الأرجل تسير وتسعة كتوف تحمل البنادق وزاداً قليلاً من لحم التمساح بين أعطافهم. أربعة أيام بلياليها يخوضون مستنقعات وغابات ويتوهون والدخان يبدو ويختفي والنفوس تتأرجح ما بين اليأس والأمل، حتى اكتشفوا أن الدخان كان منبعثاً من جزيرة كبيرة، جزيرة بكر وأرض عذراء لم تطأها أقدام الأوروبيين ولا التجار من قبل، ولا تعرفها أي

خريطة. وصلوها بمشقة ومشوا على أرضها بحذر، وعندما وقعت عليهم أعين بعض أهلها توجسوا منهم، إنهم أغراب، ملابسهم مضحكة. فأحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم، بشعور عدائي وبأحاسيس الحرب والقتال وهم يصرخون: غرباء في جزيرتنا (بوهول)، هلموا يا بقية أهل جزيرتنا لنقتل الغرباء.

التفت الزبير إلى أحد أقرب رفاقه وقال لهم: هذه الجزيرة اسمها بوهول وأهلها يريدون قتلنا. فسأله: وكيف عرفت يا سيدي الزبير؟

- أعرف اللهجة التي يتحدثون بها، بل سمعت من قبل بهذه الجزيرة وأعرف اسم ملكها..!

- وكيف سنخرج من هذه الورطة وننجو بأنفسنا؟

- اتبعني أنت فقط والبقية يلتزمون أماكنهم صامتين، ولا تتحرك يد أحد منكم ناحية سلاحه.

(١٨)

لم يكـن الزبـير خائفـاً إنـما الدهشـة كانـت مسـتولية عليـه، فهـو يذكـر قبـل عـام لقـاءه ببعـض الأهـالي الذيـن اسـتجاروا بالزعيـم أتـاورا الـذي سـمى مولـوده زبـير، تيمنـاً بـه، تعلـم لهجتهـم وعـرف أنهـم مـن جزيـرة كبـيرة تقـع ناحيـة الغـرب، وأن عليهـا ملـكاً شرسـاً يدعـى (كوريـام). اتجـه الزبـير برفيقـه الـذي اختـاره بعـد أن وضعـا سـلاحيهما عـلى الأرض إلى ناحيـة الأهـالي الذيـن يحاصرونهـم، سـائلاً الله أن تكـون هـذه الجزيـرة هـي نفسـها جزيـرة الملـك كوريـام، وعندمـا اقـترب منهـم قـال لـه زعيمهـم وهـو يوجـه حربتـه إلى صـدر الزبـير: مـن أيـن أتيـت؟ هـل هبطـت مـن السـماء أم انشـقت عنـك الأرض أم خرجـت مـن المـاء؟

ابتسـم الزبـير في وجـه ذلـك الزعيـم المتحفـز، ورد عليـه بلهجتـه رداً مـا كان يعـرف إن كان فيـه هلاكـه أم نجاتـه:

- جـاءت بي شـهرة ملككـم العظيـم كوريـام، إنـه محبـوب في كل الأماكـن التـي زرتهـا، أنـا تاجـر وأجـوب بمراكبـي أماكـن كثـيرة.

عندهـا رفـع الرجـل حاجـب الدهشـة وأنـزل حربتـه وغرسـها في الأرض. تنفـس الزبـير الصعـداء، وأيقـن أن حدسـه لم يخنـه، وأشرقـت ابتسـامته أكثـر عندمـا التفـت الرجـل إلى أهلـه وهـو يقـول لهـم بفرحـة:

- إنـه يعـرف لغتنـا ويعـرف ملكنـا، وقـال عنـه إنـه رجـل عظيـم ومشـهور في كل الأرض.

هتفوا:

- كوريام العظيم.. يحيا ملكنا كوريام العظيم..!

عاد زعيمهم بنظره من جديد للزبير وسأله قائلاً:

- وماذا تريد من ملكنا أيها الغريب؟

- جئتُ لأزوره وأعطيه بعض الهدايا، فهو رجل عظيم، كما أود أن أشتري من بلده طعاماً لرجالي.
تبددت بعد ذلك مشاعر العِداء، وحلت مكانها مظاهر الترحيب والمودة، غير أن الأمر لم يبقَ على هذا المنوال!
نظر زعيم الأهالي الذين كانوا يحاصرون الزبير ورجاله الثمانية في جزيرة بوهول نظرة فاحصة لهؤلاء الغرباء فاكتشف الزبير في تلك النظرة سلاماً وترحيباً، ولم يخنه تقديره، إذ قال له ذلك الزعيم:
- وجوهكم مرهقة بفعل الجوع أليس كذلك؟
- نعم، أيها الرجل الكريم.
عندها التفت الرجل إلى قومه وقال لهم:
- ضيوفنا جياع اذبحوا لهم بقرة، لن يقابلوا ملكنا العظيم في عرشه وهم جياع.
تهلل وجه الزبير ووجوه رجاله بالبشر، ولم يمضِ كثير من الوقت حتى استحالت تلك البقرة إلى قطع مجزأة من اللحم، وبدا المكان يأخذ شكل الاحتفاء. اللحم يتلوى بين نيران الحطب الجزل، ولا تني حراب القوم ترفعه للضيوف، فبدأت المأدبة العظيمة، قُدم خلالها مع اللحم الماء والخبز المحلي واللبن الخاثر، واستمتع الزبير ورجاله أيما استمتاع بهذه الوجبة، والزبير في الأثناء يسأل رجاله:
- أرجو أن تكونوا محتفظين بطريقة جيدة بين أعطافكم بالخرز كما أمرتكم.
- نعم، يا سيدي الزبير.
- هذا جيد، فأنا أعلم أن الخرز يمثل شيئاً أعظم من المال في مثل هذه المناحي.
- نعم، سيدي فقد علمتنا ذلك.
- ما يهمني الآن بعد شكرنا لله سبحانه وتعالى على لطفه ونعمته أن يعود بعضنا بالطعام إلى رفاقنا في المراكب، وأن نأخذ من هنا زاداً

كافياً يسمح لنا بالتحرك، إذ سألحق ومن يبقى معي بكم بعد أن نقابل الملك كوريام. حمل الزبير بعض الخرز داخل خرقة واقترب من زعيم الأهالي، فألفاه يضع ابتسامة ضاعت إشراقتها في وجهه المظلم غير الوسيم، وقال له :

- أشكرك يا أخي على هذا الكرم، ولكني أطمع في شراء طعام لرفاقنا الذين ينتظروننا في المراكب.

الصمت الذي بدا على وجه الزعيم أصاب الزبير بشيءٍ من القلق، فامتدت يده إلى داخل الخرقة وأخرج منها بعض الخرز وقال:

- سأعطي ثلاث خرزات مقابل كل بقرة.

فغر الزعيم فاهه وهو يرى ذلك الخرز، وبفرحته الممزوجة بدهشته التفت بوجهه إلى قومه وقال:

- الغريب سيعطينا ثلاث خرزات مقابل كل بقرة، إنه يريد أبقاراً لذبحها والعودة بها لحوماً إلى رفاقه.

(١٩)

في تلك اللحظات ذهب من الأهالي من ذهب، وعادوا بأبقار كثيرة اشتراها الزبير بعرضه السخي، وقد كان لهذا السعر مفعول كمفعول السحر في نفوسهم، لتدهش بعد ذلك مظاهر السرور الزبير ورجاله، فقد عبّر القوم عن فرحتهم وابتهاجهم بالرقص والمسح على بطونهم، وبإشارات وتعبيرات جنونية صارخة، شاركهم فيها بعض رجال الزبير بطريقة بدت لهم في غاية الطرافة:

- أبشروا يا ناس أبشروا..!

بعدها أمر الزبير خمسةً من رجاله بحمـل الطعام والزاد إلى المراكب، بعد أن أفادهم بأقصر الطرق إلى هناك، مستفيداً من إجابة الزعيم على سؤاله، فقد علم منه أنهم قبل أن يصلوا إلى هنا كانوا يدورون، فالدخان خادع تحمله السماء من مكان إلى مكان، لذا قضوا كل تلك الأيام في البحث عن مصدره. طلب الزبير من ذلك الزعيم مقابلة الملك العظيم كوريام، مضيفاً أنه يحمل له هدية عبارة عن كمية من الخرز، فرد عليه قائلًا:

- سنصحبكم حالًا إلى عرش مليكنا المفدى كوريام.

تبع الزبير مصطحباً رجاله الثلاثة الباقين ذلك الزعيم الذي سار أمامهم في ثلة من الأهالي لمقابلة الملك، وفي الطريق قال أحد رجال الزبير:

- يبدو أننا يا سيدي الزبير نسير إلى قصر به الكثير من المدهشات.

بالفعل كان الأمر مدهشاً بوصولهم لمقر الملك، فقد كان القصر الذي يرومونه عبارة عن عشة منخفضة متدنية بداخلها يستلقي الملك العظيم كوريام، وهو عاري الجسد تماماً، واضعاً جسده على فراش. دعونا نقول إنه فراش، فهو فراش من روث البقر المحروق عليه وسادة عبارة عن قطعتين مـــن الحطب، يضع عليهما الملك رأسه بـــاستمتاع..! لا شيء عدا ذلك، فقد كانت تلك المؤسسة الملكية وذلك المقر الرسمي المرموق يخلو حتى من قطعة أثاث واحدة. بدا الملك متوجساً بعينين تسافران على

أوجه أولئك الغرباء الأربعة، وكان من اليسير أن يتعرف على قائدهم، إنه الزبير بلا شك، فأخذ يسأله:

- هذه الجزيرة لا يعرفها أحد فكيف وصلت إليها؟

- أنا تاجر يا فخامة الملك، وكان بي شوق أن أزورك، فقد سمعت أنك رجل عظيم.

أيقن الزبير أن رده قد ضاع سدًى، فلا سمات ولا اختلاجات على وجه الملك تدل على الامتنان أو الرضى أو القبول، كان لا بُدَّ للزبير أن يلجأ في تلك اللحظات إلى الخرز، سلاحه الماضي والمغري، فقال وهو يبحث داخل تلك الخرقة الكبيرة متخيراً أكبر الخرز حجماً:

- فخامة الملك أحضرت لك معي هدية.

منح كوريام الزبير التفاتة ملكية، فوضع الزبير الخرز فوق كفيه وقدمه للملك بــاحترام وهو يقول له:

- هذه هدية الملك العظيم.

تخلص الملك من استلقاءته بالجلوس فوق عرشه المصنوع من روث الأبقار مصطحباً معه ابتسامة، وبعد أن سلمه الزبير الخرز قال له:

- قومك أكرمونا وقبلوا أن يبيعوا لنا الطعام وأمامنا سفر طويل، فهل تكرمتم بالسماح لنا بالمغادرة.

- لا لن تغادروا إلا بعد إكرامي لكم، ويمكنكم قضاء الليلة معنا، بعدها لكم ما شئتم.

- أمرك سيدي الملك.

التفت الملك إلى أعوانه قائلًا لهم:

- تخيروا لضيوفي عُشة ليقضوا بها ليلتهم وأكرموهم بالطعام واللبن.

لم تكن عُشة الضيوف بعيدة عن المقر الرسمي للملك، وفيها وصلهم الطعام واللبن، غير أن تجمع الأهالي خارج تلك العشة بعث في نفس

الزبير شكاً عظيماً بأن شراً سيلحق بهم في هذه الليلة، وتأكدت شكوك الزبير عندما وصل إليه أحد الأهالي من الذين اشترى منه من قبل بقرة، وقال له جاثياً على ركبتيه:

– إن زعماء القبيلة يا ضيفنا العزيز نجحوا في إقناع الملك بقتلكم، بدعوى أنكم عرفتم هذا المكان، وبعد مغادرتكم ستعودون بأعداد غفيرة لتحتلوا الجزيرة.

شكر الزبير الرجل وقبل أن يغادره متسللًا أعطاه خرزتين ثم تقلد سلاحه وخرج وحيداً من العشة التي خُصصت لهم. فوجئ الزبير بالملك كوريام يجلس خارج مقره وزعماء القبيلة يتحلقون حوله بعد أن شق جموع الأهالي الذين كانوا يجلسون القرفصاء متقاربين على الأرض في كل مكان من حوله، وبيد كل منهم حربة فلم يهتم، وبوصوله للملك قال له بقوةٍ:

– قومك يقولون دعنا نقتل هؤلاء الغرباء، ودُهشت أنك قد وافقتهم على هذا الأمر، فلماذا ونحن أتينا لكم مسالمين ولم نضركم بـشيءٍ؟

– لكنكم رأيتم بلادي.

– أمن أجل هذا تريد قتلنا؟

– نعم، ومن أجل ذلك أصدرنا حكماً بالإعدام عليك وعلى رفاقك.

– إذاً استعد فخلفنا أصحاب سيأتون إليكم وسيأخذون بثأرنا ويستولون على بلدكم ويقذفون بكم إلى خارج هذه الدنيا، عليه أنصحك بتركنا أحياء.

صمت الملك كوريام قليلًا ثم قال:

– أنت وجماعتك آمنون طالما أنتم في كنفي، ولكني لن أعدك بسلامتكم بعد أن تغادروني.

– إذن أخبر قومك إذا ما تعرضوا لنا في الغدِ ونحن في الطريق للمراكب، بأننا قبل أن نموت سنقتل الكثيرين جداً منهم.

(٢٠)

قبل أن يسمع الزبير رداً من كوريام، غادر إلى عشته حيث رفاقه وقال لهم:

- بلا شك سيكتب القتل والقتال علينا، ولكن لدينا الآن الطعام لمن هم في المراكب من رفاقنا، ومن الخير أن يموت منا من يموت ليجد الباقون القوت، فعليكم أن تكونوا رجالًا شجعاناً والآن دعونا لننام، قبل أن تمضي تلك الليلة العصيبة انطلقت رصاصتان قلبتـا الأحداث ظهراً على عقب.

لم يبعث حديث الزبير الاطمئنان لرفاقه في تلك العشة فسألوه:

- كيف سننام يا سيدي الزبير وأنت تقول لنا إن القتل والقتال مكتوب علينا؟

- وعدني الملك كوريام بالأمان طالما نحن هنا، ولكنه لا يضمن سلامتنا في الصباح ونحن نغادر إلى مراكبنا.

قال أحدهم:

- إن بريق الخرز وجماله هو هدف القوم، وقطعاً يا سيدي سيهاجموننا هنا ليسلبوا منا ما بقي لنا من خرز.

ثم بدأ المتحدث ينظر إلى العشة التي بدت له كقبر كبير.

فهم الزبير تلك النظرة وقال:

- أرجو ألا يتملككم الخوف، فأنا أثق في وعد الملك كوريام، فنحن آمنون حتى موعد مغادرتنا لهذه العشة والاتجاه صوب النهر، وعندما طلبت منكم أن تناموا طلبت ذلك لأنكم متعبون، فقد كان يومنا مرهقاً فلا بُدَّ أن تناموا لتكتسبوا راحة وطاقة تستعدون بها للقتال، فيقيني أن الأهالي سيهاجموننا ونحن في الطريق.

أذعن الجميع لحديث الزبير وأبقوا بنادقهم إلى جانبهم قبل أن يداعب

الوسن أجفانهم وناموا نوماً لا يخلو من قلق واضطراب، غير أن الزبير لم يغمض له جفن، فقد كان مستعداً لكل الاحتمالات بما في ذلك مهاجمتهم داخل هذه العشة، فبدأ يفكر في بدء السير خلال هذه الليلة دون انتظار الفجر، وقبل أن يوقظ رفاقه لتنفيذ فكرته بالمغادرة نهض وأخذ يراقب مدخل العشة ثم خرج ووقف أمام ذلك المدخل مستطلعاً المكان من حوله. كان الليل هادئاً والقمر يغازل السحب الداكنة، فتمنع ضوءه تارةً وتسمح به طوراً، فبدا الطريق خالياً وآمناً، غير أن الزبير ومع تلك البروق الخاطفة التي بدت تنتظم السماء يتبعها الرعد، رأى شيئاً فوق الأشجار، فتبين له أنهم ثلة من أشرار القوم كامنون فوق الأشجار بأسلحتهم البيضاء، فأيقن أن خروجهم في هذه اللحظة سيكون مغامرة غير محسوبة العواقب، وفضل أن يتم التحرك صباحاً لتتضح الأهداف وتستقر رصاصاتهم في رؤوس من تستقر، ومرحى بعد ذلك بالموت.

(٢١)

قبل أن يعود الزبير إلى داخل الكوخ بدت له دهمة سوداء تتحرك بـاتجاهه، فظن أنهم مجموعة من الأهالي أو فرقة الإعدام التي تريد تنفيذ الحكم، غير أن سحابة سوداء أطلقت سراح القمر، وعلى ضوئه تبين له أن تلك الدهمة السوداء لم تكن سوى أسد ضخم تقوده حاسة شمه القوية إلى من بداخل الكوخ وأمامه، فابتسم الزبير صائد الأسود، وقال وهو يحكم قبضته على بندقيته:

- أيها الليث لقد اخترت نفسك لتكون ضحيتنا الأولى، فلا بأس أن نبدأ بك..!

الأسد يتقدم وهمهمات خائفة يصدرها الأشرار من فوق الأشجار والزبير يصوب فوهة بندقيته ناحية الأسد، واضعاً أصبعه على الزناد، مترقباً اقتراب الأسد الذي بدأت خطواته تسرع، ثم حانت اللحظة والقلوب يزداد نبضها والغدد الكظرية تدفع للأجساد مزيداً من هرمون الأدرينالين، وقد أيقن ساكنو الأشجار أن الأسد سيفيهم مغبة قتل الزبير ورجاله، فهم يعرفون هذا الأسد ويخافونه، فقد قتل الكثيرين منهم من قبل، ويستطيع بسهولة أن يفعل بالزبير ورجاله ما فعله بهم من قبل، وبعدها سيسلبون ما في ملابس الضحايا من خرز. بدأ الأسد يقفز والزبير واقف وصامد في مكانه، وعندما شرع الأسد في قفزته الثانية أطلق الزبير من بندقيته الرصاصة الأولى، فأصابه بجرح جوار أذنه، فزأر الأسد الجريح وأكمل قفزته الثانية، وعندما شرع في قفزته الثالثة كان الزبير قد أطلق عليه رصاصة ثانية بين العينين، فخر ساقطاً قريباً منه، وقريباً من عتبة الكوخ، فوضع الزبير رجله فوق جسد الأسد بعد أن استحال زئيره إلى حشرجة وشخير همد بعدها، وقبَّل الزبير بندقيته ونفخ الدخان المنبعث من فوهتها، وخاطب صريعه قائلًا بزهوٍ وفخرٍ:

- الجابك لي شنو..وللا رفاقتك ما كلموك؟!

(٢٢)

من فراشه هبَّ الملك كوريام مذعوراً بعد أن غشي صوت الرصاصتين أذنيه، وانطلق يعدو ورجاله نحو مبعث الصوت، وما أن رأى الكامنين فوق الأشجار مليكهم يعدو حتى هبطوا من تلك الأشجار وانضموا إليه، وعندما أبصر الملك الأسد صريعاً تحت حذاء الزبير حتى تقدم نحوه وأخذ يطوق عنقه بيديه ويحتضنه بقوة، معبّراً عن فرحته الكبرى، وتبعه في ذلك كل من كان معه وهم جذلى مبتهجين وينظرون إلى الزبير نظرات إعجاب كبير. عندها خرج رفاق الزبير الثلاثة من داخل الكوخ، كل منهم ممسكاً ببندقيته في وضع استعداد كامل للقتال، غير أن الزبير الذي تخلص من عناق الملك كوريام رفع لهم كفه وأمرهم بخفض أسلتحهم. أخذ الملك كوريام برأس الزبير بين كفيه وبأنفاس متهدجة ووجه مبتسم قال له:

- لقد ظل هذا الأسد قرابة ثلاثين عاماً سوط عذاب على هذه الجزيرة، في كل ليلة يقتنص منا شيئاً، وقضى على أكثر من مئتي ضحية من الأهالي بخلاف الأطفال والماشية، وقد بذلنا العديد من المحاولات للقضاء عليه ففشلنا أن نتخلص منه، ومن شروره، والآن يا زبير قدمت لنا خدمة عظيمة بقتلك لهذا الأسد اللعين، عليه لن يمسك أحد أو يمس رجالك سوء أبداً.

ثم التفت الملك وأمر أحد رجاله بإحضار لبن ورماد حالًا. بعد تنفيذ الأمر أخذ كوريام يصب اللبن فوق الزبير وينثر عليه الرماد وكذلك فعل زعماء القبيلة، وبينما كانوا يصفونه بعبارات التجلة والتشريف، كانت الشمس تشرق وترسل من نورها إشراقات السلام والمحبة، وكوريام يستأنف حديثه قائلًا:

- الآن صرت يا زبير أخاً وواحداً من أفراد جزيرتي، ولن يجرؤ أحد أن يلحق بك أو برفاقك أي أذى أو ضرر، فقد عرفنا لأي أنواع الرجال

تنتمي، ورأينا أنك تملك أسلحة أمضى وأشد فتكاً من أسلحتنا، ونرغب في استبقائك بيننا بصفة دائمة، ونجعل منك زعيماً كبيراً معظماً فينا، وسنعاملك بكل تشريف وتوقير وتكريم، ولكنك لن تذهب عنا إطلاقاً، بل ستبقى معنا أبد الدهر، لتقتل لنا أعداءنا كما قتلت هذا الأسد، وستكون ابنتي الشابة زوجةً لك. كان الزبير في تلك اللحظات مشغول الفكر برجاله الجوعى في المراكب، فقال:

– رفاقي لا يزالون جوعى في المراكب، ولن أستطيع أن أفكر في أي شيء آخر قبل إمدادهم بالطعام.

على إثر ذلك أرسل الملك الأبقار للمراكب وعبر الأهالي عن امتنانهم بتقديم سلال من السعف مملوءة بالحنطة وقراباً مملوءة باللبن الخاثر، فتم تزويد المراكب بكل هذا الزاد، غير أن الزبير بقي محفوفاً ومطوقاً من قبل حراسه الجدد والمعجبين به حد الافتتان. وزف الملك ابنته إلى الكوخ الذي خصص للزبير، كانت في عمر الزهور تلفها الوسامة وتعتورها المودة، فظلت في ذلك الكوخ لثلاثين يوماً دون أن يقربها الزبير، الذي لم يكن ينوي البقاء مع هذه القبيلة، ولا أن يخلّف له ولداً لا يراه بعد ذلك.

(٢٣)

في ذات ليلةٍ، وبعد أن هيأت له الطعام دنت الفتاة من الزبير وركعت إلى جواره جاثيةً على قدميها، وابتدرته قائلة:

- هل أنا دميمة بشعة وقبيحة الخلق، وهل بدر مني ما يعكر صفوك، أو لا يسرك ويرضيك حتى تنصرف عني هكذا ولا تبتغيني ألا أعجبك..؟!، قبل أن يرد عليها الزبير قفزت إلى رأسه خطة ربما تخلصه من أهالي جزيرة بوهول المتمسكين به كالمعتقل. كان على الزبير أن يمازج بين رده على ابنة الملك كوريام وبين خطته الهادفة للتخلص من جزيرة بوهول ومغادرتها للأبد، فهو يرغب في ذلك رغم إعجاب أهلها به واحترامهم وتقديرهم له، ولكن في الواقع كان قيد الإقامة الجبرية داخل الجزيرة وغير مسموح له بالوصول إلى شاطئ النهر، حيث ترسو هناك مراكبه وبها جميع رجاله، وكل ما جمعه من بضائع ثمينة كسن الفيل والجلود والصمغ، تعب في جمعها ويرغب في تصريفها بالخرطوم، وليفي بوعده بإعادة ابن عمه محمد لأهله بالجيلي، فهو الآن ساعده الأيمن ينتظره مع بقية الرجال على شاطئ النهر داخل المراكب التي صارت لهم سكناً لمدة استطالت لأسابيع كثيرة. نظر إليها فخفق قلبها وقال لها:

- أشهد أيتها الأميرة بأنك جميلة وعطوفة وودودة.

- أنا أحبك حباً ملك عليَّ شغاف قلبي.

- وأنا أحبك كثيراً أيتها الأميرة.

- إذن لماذا لا تفعل معي ما يجري بين الأزواج.

- حتماً سأفعل ولكن ليس الآن.

- لماذا يا حبيبي؟

صمت الزبير صمتاً جعل وجه الأميرة يتماوج ويختلج ولم يهدأ إلا عندما بدأ يتحدث إليها قائلاً:
- قد لا تفهمين ولكن عليك أن تفهمي ما سأقوله لك.
- أنا أسمعك وسأفهم كل حرف تقوله يا حبيبي.
من فتائل ذكائه وحنكته، بدأ الزبير ينسج خيوط خطته وهو يقول للأميرة ابنة الملك كوريام التي عصفت بها الأشواق:
- قد تعتبرين نفسك زوجةً لي وهذا ما يظنه والدك وأهلك وبقية قومك، ولكن الأمر عندي مختلف.
- كيف ذلك يا حبيبي، فقد اكتملت مراسم زواجنا وزفني والدي بنفسه إلى هنا.
- نعم، هذا صحيح ولا اعتراض لي على ما تم، ولكن عليك أيضاً أن تفهمي أن المراسم التي اكتملت كانت وفقاً لتقاليدكم واعتقاداتكم، التي تختلف عن ديني وعن تقاليدنا، فأنا أُدين بالإسلام ولنا تقاليد لازمة الاتباع.
- كيف ذلك وكيف يكتمل حتى أكون زوجةً لك في نظرك.

- المسلمون لا يتزوجون بالطريقة التي يتزوج بها قومك.
- وكيف تتزوجون؟

- أهم ما في أمر زواجنا كمسلمين أن يتم العقد بواسطة أحد الفقهاء المسلمين، كما يجب على الزوج أن يقدم هدايا لزوجته.

- ومن أين تأتي بهذه الهدايا وكيف ستجلب ذلك الفقيه المسلم.

- الأمر بسيط وسهل، فالهدايا موجودة داخل مراكبي الراسية على شاطئ النهر، ويوجد فقيه هناك بين رجالي ويمكنني أن أنجز الأمر سريعاً لولا العقبة الكأداء التي وضعها والدك وقومك في طريقي، بعدم السماح لي بالمغادرة إلى حيث توجد مراكبي ويوجد رجالي.
أيقن الزبير مع تلك الابتسامة التي دفعتها الفرحة إلى وجه الأميرة، أن خطته في طريقها للنجاح، فمن خلف ابتسامتها قالت له:

- مع بزوغ الفجر سأذهب لوالدي وأقنعه بالسماح لك بالذهاب لتأتي بالهدايا والفقيه.

- إن نجحتِ في ذلك سنصير في الغد زوجين.

لم تسعها الفرحة وهي تقول:

- يا إلهي ويا فرحتي، غداً سأكون زوجةً لأعظم وأشجع رجل رأته عيناي.

- الليل أليل يا حبيبتي نامي في حفظ الله ورعايته وفي الفجر اذهبي لوالدك.

قالت له وهي ترمقه بنظرة حب:

- أريد بعد أن تتزوجني أن أصبح مسلمةً مثلك، ولكني خائفة

مـن أبي وقومي.

صمت الزبير وكاد أن يعدل من خطته بالمغادرة، فهناك من يريد أن يدخل الإسلام ولكنه وازن بين هذه المصلحة ومصالح أخرى في ذهنه وقال لها:
- نامي الآن ودعينا في ما بعد نفكر في الأمر.
- أريد أن أنام إلى جوارك وبين أحضانك..!
- لا هذا لا يجوز الآن، سنفعل ذلك كثيراً ابتداءً من الغد.
- إذاً لن أنام، فقط نم أنت ودعني أنظر إليك وأتملاك إلى أن يأتي بياض الصبح، فقط أنظر إليك..!
ابتسم الزبير وأغمض عينيه.

(٢٤)

كان الزبير في دوامة من التفكير وهو مغمض العينين فرحاً بخطته التي أيقن أنها ستنجح، وأنه عندما يصل مراكبه لن يعود إلى هنا مطلقاً مهما كلفه الأمر، لقد اشتاق لمراكبه ولرجاله، وفجأة أطل وجه إبراهيم الدنقلاوي مساعد ود عموري الذي قُتل في تلك المعركة، لقد كان صديقه وحزن كثيراً لموته المأساوي، كانت تجري بينهما مسامرات وأحاديث ويملكه أسراراً ومعلوماتٍ، فعندما كان الزبير يرى أولئك السود من عبيد ود عموري في مركبه، ويرى كيف كان يعاملهم بغلظة وقسوة ويضربهم بالسياط، كان ينكر الأمر ويستهجنه ويسأل إبراهيم الدنقلاوي عن كل هذا، ويذكر في واحدة من تلك المرات قال له:

- بدأت ظاهرة الرق في منطقة السودان في أوائل القرن الخامس عشر بنفس الكيفية التي انتشرت بها في العالم عن طريق الغزو والأسر وغيرها، وذلك في عهود دولة الممالك كمملكة الفونج وسلطنة دارفور والمشيخات الأخرى، واستمرت حتى عهد الحكم التركي ودولة المهدية وفترة الحكم الثنائي، وشاركت فيه مجموعة من زعامات المناطق وشيوخها في تلك الفترة بنفس الصورة البغيضة في معاملتهم. وبرزت الظاهرة في مملكة الفونج بكل عنفوانها، حتى إنه قد قدر عدد الرقيق في القرن السابع عشر بقرابة الأربعة عشر ألفاً، استُخدموا جميعاً كسُخرة في شتى المجالات وبشكل خاص في جيش الملك وقصره.

- إن كان أمر الرق أمراً واقعاً، فلا بُدَّ من معاملتهم معاملة إنسانية والاستفادة منهم بطريقة لائقة.

يذكر الزبير أن إبراهيم الدنقلاوي دفع إلى وجهه ابتسامة

هازئة، وقال له قبل أن تستحيل ابتسامته إلى ضحكة متهكمة:
- لا تقل لي يا عزيزي إنك ستفعل هذا؟
صمت الزبير وقال لنفسه:

- سأفعل ذلك بمشيئة الله.

تلك الذكريات دفعت بالنوم إلى أجفان الزبير، وعندما استيقظ لصلاة الفجر لم يجد ابنة كوريام في الكوخ، وعقب الصلاة كانت الأميرة تدفع بيدها باب الكوخ وهي تصرخ:
- لقد وافق أبي، نعم وافق وأرسل معي ثلاثين من رجاله ليصحبونك إلى المراكب، تعجَّل يا حبيبي إنهم بانتظارك، وعُدْ لي بهداياك وبالفقيه.
خاطب الزبير نفسه:

- ثلاثون رجلاً..؟!

من باب الكوخ أخذت ابنة كوريام تلوح بكفها للزبير، وقد تحلق من حوله ثلاثون رجلاً من المحاربين الأشداء المسلحين والزبير يفكر في الخلاص، وهو بينهم فهم ومليكهم لن يتركوه يذهب، يريدون إبقاءه هنا للأبد. بعد مسيرة شاقة وصل الزبير وحراسه إلى المراكب، فاستقبله رجاله وابن عمه محمد عبد القادر استقبالاً رائعاً، وفرحوا بعودته فرحاً كبيراً، بعضهم أدمع وبعضهم بكى قال لهم:
- هل لديكم ما يكفي من الطعام؟

- نعم، لدينا منه الكثير.

- كل البضائع سليمة؟

- نعم، كلها سليمة.

- هل المراكب جاهزة للإبحار؟

- نعـم، يـا سـيدي الزبـير، ولكـن هـل سـتبحر معنـا أم سـنبحر دونـك؟

عندهـا التفـت الزبـير لحراسـه الثلاثـين المتحفزيـن، الذيـن كانـوا يسـتعجلونه لإنهـاء مهمتـه والعـودة معهـم. تلـك الالتفاتـة عنـت لرجـال الزبـير أنـه معتقـل ولا بُـدَّ مـن فعـل شيء لإنهـاء حالـة الاعتقـال هـذه..!



الفصل الثالث

البطل رابح ينضم للزبير

وتكمة يغدر بصهره

(١)

الزبير الذي وصل إلى رجاله ومراكبه المكدسة بالبضائع والمزودة بالمؤن،امتلأت نفسه بمشاعر التوق للأهل والإبحار وإكمال مسيرته نحو الخرطوم، وهي مشاعر كدرها وجود رجال الملك كوريام الذين لن يتركوه ليذهب. فهم حراسه الذين اعتقلوه حباً.نظر إليهم وقال:

- إني أبادلكم حبا بحب وأقدر ملككم كوريام وابنته، ولكني تاجر ترك خلفه زوجة وفي أحشائها ولد،وأنا لم أر أهلي لمدة طويلة، فليس من العدل أن تستبقوني بينكم إلى الأبد.. دعوني أرحل.

- لا لن ندعك ترحل يا زبير، فنحن نحبك ونحتاج لمساعدتك، وقد وهب لك ملكنا ابنته وبنى لك كوخاً جميلاً، ونحن لا نستطيع أن نخالف أمر ملكنا الذي أمرنا أن نعود بك حال أن تنهي مهمتك.

وعندما ترجم الزبير حديثهم لرجاله انفجر ابن عمه محمد عبد القادر بحديث غاضب، فطلب قائد الحراس من الزبير أن يوضح لهم ما قاله محمد فقال لهم:

- هذا الرجل الشجاع يقول لكم: نحن أيضا نحب الزبير، وقد أحببناه من قبلكم وهو كبيرنا وزعيمنا ومن أتى بنا إلى هذه الأصقاع النائية، وعبر هذه الأنهار، وإذا حاول أن يهجرنا ويتركنا بعد أن ساعدناه ورافقناه طويلاً وانتظرناه هنا كثيراً، ويعود معكم ليقيم معكم، ولأجل أن يتزوج بابنة ملككم، فسيستحيل في نظرنا إلى رجل تافه لا أخلاق له ولا خير فيه، وسنقتله حالاً ببنادقنا، فنحن نملك الأسلحة النارية التي ستقضي عليه وعليكم أجمعين، فعليكم أن تخلوا سبيله وأن تدعوه ليمضي معنا، فبذلك وحده تبقون على حياتكم وعلى حياته.

(٢)

الخبرة التي اكتسبها الزبير في المعارك والمفاوضات السلمية والتعامل الآمن مع الأهالي في هذه الأصقاع البدائية والمجهولة مكنته من معرفة الأثر الذي وضعه هذا القول التهديدي في كيانهم فقال يخاطب قائد الحراس:

- أيرضيك أن أموت برصاص أصدقائي الذين أحبهم كما أحببتكم، وهل تريدون أن تتحولوا إلى جثث تطفو فوق سطح النهر ملطخة بالدماء؟ لماذا لا نعمل على أن تكون في أذهاننا ذكريات جميلة عن لقائنا نركن إليها كلما جن الليل أو أصابنا الشجن. دعوني أرحل بسلام فربما تكتب لنا الأقدار لقاءً آخر. غرس قائد الحراس حربته في الأرض والتفت لرجاله وتحدث معهم حديثاً قصيراً، ومن ثم اتجه بهم جميعا ناحية الزبير وأخذوا يعانقونه وفي قلوبهم حزن وأسى وتعتلق بأعماقهم قسوة الفراق، ولكنهم لم ينصرفوا إلا عندما تخلصت المراكب من مراسيها وأطلقت أشرعتها للرحيل، فلوحوا للزبير بأكف الوداع والزبير يقول لهم:

- أحبكم جميعاً. وداعاً ولا تنسوا أن تبلغوا ملككم العظيم كوريام وابنته الجميلة تحياتي ومحبتي. ثم أخذ ينظر إليهم حتى غابوا في الأفق. فيا ترى ما الذي أحدثته الأميرة من بعده؟ فالزبير لم يرها بعد ذلك اليوم مرة أخرى وفي خاطره تختال أطياف غابرة وشوق يهز الرواسي للأم والأب والزوجة والولد.

الأفق يقع في نظر الزبيرا وأشجانه العميقة تجلس فوق وجهه الصلدا وتتماوج مع صوت المراكب وهي تضرب سطح النهر وتأخذ من صلابته، فتتمازج فوقه قوة وضعف أزالتهما كف

صديقه وابن عمه محمد عبد القادر وهي تهبط فوق كتفه:
- الزبير أخويخلاس إنجلت الغمة وبإذن الله نصل سالمين غانمين ونلقى كل الأهل سالمين.
رد عليه باقتضاب:
- إن شاء الله. ثم واصل نظره إلى الأفق البعيد.

(٣)

لم تكن رحلة العودة سهلة، فقد جابه الزبير ورجاله فيها متاعب جمة ومشاق عديدة، فقد جابوا على غير هدى تلك الأنهار التي تغذي بحر العرب. تاهوا فيها لشهور عديدة أصيب فيها كثير من رجال الزبير بالمرض والجنون، وتناقص الزاد ومات الكثير من الرجال المرضى والجوعى، والزبير ومحمد يصمدان، والقليلون الذين تمسكوا بالحياة قادتهم إرادتهم للبقاء، ثم لاحت لهم من بعيد قرية تقطنها قبيلة من صائدي الأسماك، وعندما أدركوهم ساعدوهم ببعض خبراء المسالك. فدلوهم إلى الطريق الصحيح، ولما كان الزبير بحاجة للمزيد من الرجال بعد أن فقد جل رجاله قام باستئجار الكثيرين، واستمرت الرحلة بكل مشاقها حتى وصلت المراكب وهي تحمل أثمن وأقيم ما شحن بها من بضاعة، وأصبح كل شيء بعد ذلك واضحاً وممهداً أمام الزبير، وأصبح يشعر في نفسه وكما جاء على لسانه: إن تلك هي الإرهاصات الأولى لبداية الرجل العظيم الذي سوف يكونه.

لا يزال رحمة قادراً على حمل المعول والذهاب للإتجار في السوق، وشمة يكسو وجهها الحزن. وفاطمة وعائشة يطوف من حواليهما أطفالهما. وبطران يملأ المطامير وينظر بفرح لأبقاره وأغنامه. وعائشة بنت منصور ترضع طفلاً.

هكذا وجد الزبير أسرته عندما دخل إلى الجيلي في موكب مهيب من الرجال بينهم ابن عمه محمد عبد القادر، يحملون الهدايا. وعندما تعرفوا عليه بغير عناء انطلقت الزغاريد،وأعلاها صوتاً وترديداً كان صوت زغرودتي شقيقتيه فاطمة وعائشة. بكت والدته شمة التي وضعته كثيراً بين أحضانها وكانت تقول له:

- كنت خايفة أموت قبال ما أشوفك يا جناي ويا ود حشاي.

ثم أخد الزبير يمسح دموعا غزيرة بللت وجه أمه شمة. كان والده رحمة وشقيقه بطران ينظران إليه بفخر وإعزاز، وعمه عبد القادر يضرب كفه بقوة ويقول:

- أنا كلمتهم كلهم إنو حدباي بجيب لينا محمد كان طال الزمان ولا قصر. حيا الزبير زوجته الست عائشة بت منصور بمودة، ثم أخذت مشاعر الأبوة تغزوه للمرة الأولى وهو يرفع ابنه الرضيع الذي ولد في غيابه ويحتضنه وهو يقول:

- شن سميتوه يا عائشة؟

- سليمان. سميناهو سليمان.

نظر الزبير مليا إلى طفله وقال:

- سيكون خليفتي وقائداً لجيشي.

- إنتا مرقتا مننا بى جلابيتك ومصحفكجيش شنو الداير تسويهو؟

ضحك الزبير وخرج ليلتقي بالذين توافدوا للترحيب به ولينظر إلى أرض الطفولة والنشأة.نظر الزبير إلى قريته وتنتابه مشاعر ذلك الشاعر الذي قال:

إلى قريتي قد عدت يا قلب ثانيا ❋❋ وهذا محياها يطل أماميا

أحدق فيه والرؤى تستثيرني ❋❋ فأنظر ظمآنا إلى الأهل صاديا

أعود إلى أهلي و مثوى أحبتي ❋❋ ونبع صباباتي وماضي شبابيا

وفي خاطري تختال أطياف غابري ❋❋ وفي خافقي شوق يهز الرواسيا

وتنظر عيناي الربوع و تنثني ❋❋ يمين بها تسعى وأخرى شماليا

وهاتيك أمي هدم الشوق عمرها ❋❋ فغاضت أساريراً و شابت نواصيا

تقبلني في الخد والنحر والحشا ❋❋ وتذرو على صدري الدموع الغواليا

وجد الزبير نفسه بين أصحابه ورفاقه فقالوا له:

- هل ستعود للجنوب مرة أخرى؟
- نعم سأعود.
- لكن يا الزبير ما قالوا الجنوب ده فيهو تماسيح صعبة وحشرات مسمة وموية وسخة وما بعيشو فيهو إلا الجهامات والبعيوات وكلهم كفار لا بعرفون الله ولا الرسول. وقالوا الحيوانات الكبيرة والمتوحشة ما تديك الدرب يعني الموت هناك راقد.
ضحك الزبير ورد قائلاً:
- وكمان فيهو ناس بياكلو الناس. وبياكلو بعضم.
- أعوذ بالله..!
- بس لازم أرجع. والبدور منكم يمشي معاي بسوقوا.
لم يكن أحداً يدري بأن العودة كانت وعداً بالفتح والملك والمجد الأثيل.

(٤)

عـرف النـاس بالجيـلي أي نـوع مـن الرجـال هـو الزبـير بعـد زيارتـه لهـم عائـداً للمـرة الأولى مـن أدغـال الجنـوب. نعـم كانـوا يعرفونـه فارسـاً شـجاعاً وفقيهـاً متعلـماً وخلوقـاً مهذبـاً وتاجـراً صغـيراً أمينـاً. ولكنهـم عندمـا علمـوا مـن رجالـه بـما فعلـه في الجنـوب وكيـف خـاض المعـارك وركـب الأهـوال دنـت مـن وجدانهـم مـن جديـد تلـك النبـوءة وتجـددت في أعماقهـم وفي وجدانهـم. فلابـد أن الزبـير سـيصير ملـكاً. وعندمـا حانـت لحظـة وداعـه لهم ليسـافر إلى الخرطـوم لتصريـف بضاعتـه قالـت لـه والدتـه شـمة:

- الزبـير يـا ولـدي مـا تغيـب عنـي كتـير. بـدور أشـوفك تـاني قبـال مـا أمـوت. ولـلا خـلاس أقعـد معانـا ومـع أولادك.

تولى زوجها رحمة الرد فقال لها:

- الزبـير يـا شـمة بجينـا راجـع. بـس لازم يمـشي. عنـدو بضاعة في الخرطـوم ومـاشي يجيـب غـيرا مـن الجنـوب. وبجـي راجـع. ولدك يـا شـمة بجيـك ملـك. ولـلا مـاك مصدقـا شـيخي ود البشـير.

- رضي الله عنه كيفن ما بصدقو؟

انصرف الزبير بعد وداع والديه إلى وداع أصدقائه فقال لهم:

- أنا بمش الخرطوم.. والداير يمشي معاي يلحقني هناك.

قال له محمد عبد القادر:

- أنـا يـا ودعمـي مـا مفارقـك تـب. حتـى كان أكلـوني النيـام نيـام العرسـتا منهـم الأمـيرة رانبـوة بـت الملـك تكمـة. ولـلا دسـيت خبرهـا مـن أهلـك؟

- أفو يا محمد. إت ما بتعرف ود عمك ولا شنو. مرة شنو البدس خبرا؟ أبوي وأمي ومرتي عائشة كلهم كلمتهم. وكمان عرفوا إني خليتا حامل.

- هلا هلا يا الزبير. إت زي بندقيتك. ضربك بصيب وما بختى..!

بعد الضحكة التي جمعت الأصدقاء ذهب الزبير وطبع قبلة عميقة على جبين ابنه سليمان وخاطبه بلغة لن يفهمها ذلك الرضيع: يا بطل أبوك راجيك في شان تخلفو بإذن الله. بجي اليوم البسوقك فيهو. ودع بعدها زوجته عائشة بت منصور وداعاً ودوداً لم تتحمل ويلاته وقالت دافعة إليه بأمنية جديدة:

- إن شاء الله زراعتك تبتق يا أبو سليمان..!

- بإذن الله ويا عاشة. والمرة دي كان جا ولد سموه على أبوي رحمة. وكان بت ياها شمة.

سار عنها الزبير وهي ترفع له كف الوداع. ومن خلف خبائها أخذت عائشة بنت منصور تنظر إليه بعين دامعة وهو في موكبه الذي ضم معه رجاله وبعض أصدقائه الذين فضلوا أن يرافقوه فوراً. وعندما حانت من الزبير التفاتة رأى خطين أسودين يرتسمان على وجه زوجته فأخذ يردد ما قاله ذلك الشاعر القديم:

لما تنادت للرحيل جمالنا ❊❊ وجدَّ بنا سيرٌ وفاضت مدامعُ

تبدت لنا مذعورة مـن خبائــهـا ❋❋ وناظِرها باللؤلؤ الرطب دامـعُ

أشارت بأطـراف البنان وودعــت ❋❋ وأومت بعينها متى أنت راجعُ

فقلت لها ما من مسافرٍ يسيرُ ❋❋ ويدري مـا بـه اللهُ صانــعُ

فشالت نقاب الحسن من فوق وجهها ❋❋ فسالت من الطرف الكحيل مدامعُ

وقالت إلهي كـن عليه خليفــةً ❋❋ ويارب ما خابــت لديك الودائعُ

(٥)

في الخرطـوم بـدأ الزبـير عملـه الكبـير في التجـارة. يكابـد ويجاهـد ويعمـل لحسـابه الخـاص. وانضـم إليـه مـن انضـم مـن أترابـه وأصدقائـه وزملائـه الذيـن درسـوا معـه في الخـلاوي بالخرطـوم وخـلاوي الغبـش بالنيـل الأبيـض. ومـن أهلـه وقبيلـة الجميعـاب والجموعيـة والناعـماب. واسـتطاع بمعاونتهـم أن يـصرِّف بنجـاح مـا غنمـه مـن تجـارة رابحـة. وبـدأ يشـتري الخـرز والـودع والقصديـر والدمـور. وهـي البضائـع التـى يهواهـا أهـل الجنـوب ويمكـن مقايضتهـا بسـن الفيـل وريـش النعـام والخرتيـت والجلود. وعندمـا امتـلأت المراكـب بـدأ الزبـير في اسـتئجار مئتـي رجـل ليعملـوا كحـراس لـه. فهـو يعلـم أن التجـارة في الجنـوب بهـا مـا بهـا مـن المخاطـر. لـذا سـلح حراسـه. وعـلى الرغـم مـن أن رجـال الزبـير كانـوا مسـلحين تسـليحاً جيـداً فقـد ظـل حريصـاً عـلى أن يسـتمر السـلام سـائداً. إلا أنـه كان شـديد الحيطـة والحـذر. قبـل أن يأمـر الزبـير مراكبـه بالتحـرك عـاد إلى الجيـلي في زيـارة سريعـة كـما اعتـاد خـلال تواجـده بالخرطـوم. ليجـد في الجيـلي ابنـاً آخـر. إنـه رحمـة كـما أمـر أن يسـمى. كان مولـوداً بـه ضعـف وهـزال. ومـا لبـث أن مـات. فحـزن عليـه. فواسـاه والـده رحمـة قائـلاً:

- يـا الزبـير لا تحـزن. أنـا قبالـك دفنـت أخـوك عبـد الرسـول وربنـا عوضنـي بيـك. وإن شـاء الله ربنـا بعوضـك.

لم يمكــث الزبــير بعدهــا كثــيراً بالجيــلي. وفي طريــق عودتــه إلى الخرطـوم كانـت النـاس تسـتقبله بتجلـة واحـترام. وفي منطقـة الحلفايـة دعـاه محمـود ملـك الحلفايـة فلبـى دعوتـه. حيـث لقـي معـه شـخصاً يحتاجـه. كان الزبـير يرغـب في ضـم المزيـد مـن الرجـال الأشـداء أصحـاب الخـبرة العسـكرية. وشـاءت

الأقدار أن يلتقي في الحلفاية بأحدهم الذي صار فيما بعد قائداً من قواد جيشه العظيم. في تلك الدعوة طلب الزبير من الملك محمود أن يمده بمجموعة من الشباب أصحاب الخبرة العسكرية في السلاح والقتال. فأجابه الملك لطلبه. وكان بينهم شاب طويل القامة بشرته سوداء نحاسية ترتسم على خديه الشلوخ التي تميز أبناء قبيلة الشايقية. ولكن الزبير سمعه يتحدث بلهجة الدناقلة. فأثاره الأمر وذكره بصديقه المرحوم إبراهيم الدنقلاوي فاستدعاه وسأله:

- إسمك منو؟

- إسمي النور الملك محمد عبد الله أبو سوار.

- وجنسك شايقي مش؟

- لا لا ياسيدي.. الزبير أنا بديري دهمشي.

- وشلوخ الشايقية الفي وشك ديل شنو؟ ورطانة الدناقلة دي شنو؟

- سيدي أنا مولود بدنقلا واتربيت في بيت الملك طمبل ادريس ملك أرقو ببلاد النوبة والمناطق الشمالية دي كلها متداخلة. شلخونا شوايقة واتعلمت لهجة الدناقلة.

- طيب شن بتعرف عن العسكرية وضرب النار؟

- أنا عسكري تدربت في مصر واشتغلت في الخيالة مع الجيش التركي في الشرق، ولما سمعتا بيك قتا أخلي الجيش التركي وأجي أشتغل معاك. والحمد لله الملك محمود بشرني بى جيتك وربنا يسوي الفيها الخير.

- خلاس يا النور. قبلناك مع رفاقتك ديل يلا نظمهم عشان نترافق على الخرطوم. قتا لي إسمك النور منو؟

- أنا النور الملك. بس بقولو لي النور عنقرة.

(٦)

بوصول الزبير إلى مراكبه ورجاله يتبعه النور عنقرة وآخرون، بدأت الرحلة التجارية التي تعاون معه فيها ابن عم له يدعى عبد الرحمن، فقصدا بحر الغزال ومشرع الرق،ثم عادا للخرطوم مرة أخرى، ثم عاودا الكرة، وقد لاحظ الزبير في هذه الرحلات براعة النور عنقرة في التصويب وقتل الحيوانات المفترسة، فعزم أن يخلق منه قائداً لرجاله في واحدة من المراكب التي توجه بها هذه المرة إلى مدينة يقال لها (مندقبا) في بلاد (البونقو). وفي ذلك الزمان كانت المناطق التي تقع جنوب النيل الأبيض لها في نفوس شباب الشمال الذين ترافقوا مع الزبير كالنور عنقرة نفس الجاذبية التي استهوت بعض الشباب الإنجليز ودفعت بهم في أوقات مختلفة لارتياد مجاهل أمريكا وأستراليا المتوحشة تقودهم إليها حملات تجارية تتوغل بهم إلى المغامرات والاستكشاف. فقد كانت تلك البلاد في العديد من أنحائها مجهولة لم يتم استكشافها بعد. وكانت القصص التي تروى عنها تثير التعجب والاستغراب. غير أن الزبير الذي ألم بطبيعة الجنوب وأهله كان يعلم أن سلوك التجار الذين سبقوه إلى مندقبا كان قاسياً مع المواطنين المحليين وأحدثوا هناك قلاقل. ولأنه يحمل في عقله سياسة سلمية ويتوخى أهدافاً سامية فقد كان موقناً من أنه سينجح ويتاجر في أمان مع الأهالي. لذا عندما وصلت قافلته إلى مدينة مندقبا طلب مقابلة الملك (أدوشكو) الذي يعتبر من أعظم الملوك المحليين،إذامتدت رقعة إقليمه لتحتل مساحة واسعة جداً. غير أن الملك رفض مقابلة الزبير وأصدر أوامره بأن يغادر أرضه فوراً.

طلب الزبير من حاشية الملك أدوشكوا التي أرادت تنفيذ أمر الطرد الذي صدر بحقه أن يسمحوا له بتحية الملك وتسليمه بعض الهدايا وأن يودعه ثم يغادر، وبعد رفض وتعنت سمحوا له بما يريد، فدخل عليه الزبير بكم من الهدايا. وبلطف واحترام قال له الزبير وهو يستشعر ذلك الارتياح الذي نجم عن الهدايا التي قدمها له:

ـ إنني يا فخامة الملك لم آتك غازياً إنما تاجراً.

– تقولون ذلك أيها التجار ثم تسومون العذاب لقومي. تنهبوهم وتسترقونهم. إنكم أشرار لا أقبل أن تبقوا في بلادي.

– أنا يا سيدي أختلف عن أولئك التجار وسياستي هي العدل والسلم والعملالتجاري رضاءً واختياراً.

– ومن يضمن لي هذا الأمر؟ وقد قالوا لي إن مراكبك مليئة بالرجال المسلحين. لماذا أتيت بهم إلى بلادي إن لم تكن تستبطن شراً؟

– لا يا فخامة الملك فأنا أعلم أن بلادك بلاد سلم ولكننا في رحلتنا نمر بكثير من البلاد ولدينا بضائع نخشى عليها من السلب لذا لابد أن نكون مستعدين للدفاع عن أنفسنا وأموالنا.

– أسألك للمرة الثانية ما الذي يضمن لي هذا؟

– اسمي يا فخامة الملك.

– وما اسمك أيها الغريب؟

– إسمي الزبير. عندما سمع الملك الاسم رفع حاجب الدهشة ونهض. وقبل أن يقف قبالة الزبير قال له:

– ياه هل حقيقة أنت الزبير؟

– نعم أنا الزبير.

– قالوا إنك كنت في مناحي من الأنهار ثم غادرت ببضائعك.

يقولـون إنـك رجـل غـير قـاس وعـادل ومسـالم وشـجاع. وقـد أنقـذت الملـك تكمـة وزوجـك ابنتـه. ولكـن مـا هـو الدليـل أنـك الزبـير ربـما كنـت محتـالاً تنتحـل شـخصيته.

خلع الزبير قميصه وقال للملك أدوشكو:

- أنظـر. هـذه هـي آثـار الحربـة التـي اخترقـت صـدري ونفـذت إلى كتفـي عندمـا كنـت أحـارب مـع الملـك تكمـة.

بدا الملك أدوشكو مصدقاً وقال للزبير:

- لـك ابنـة لم ترهـا يـا زبـير. رانبـوة أنجبـت لـك طفلـة. وقالـوا لي أن الملـك تكمـة سـعيد بحفيدتـه.

- سيدي لقد أسعدني هذا الحديث وقذف بالبهجة إلى روحي.

- ماذا تريد الآن يا زبير؟

- أريد أن أتاجر. ولن أعمد إلى القوة لأخذ أي شيء قسراً.

- لماذا لا تذهب حيث ابنتك؟

- حسنا سـأذهب. ولكنـي سـأكون سـعيداً ومـسروراً إذا منحتنـي إذنـك بالإقامـة إلى مـا بعـد نهايـة موسـم الأمطـار والخريـف فقـط.

صمـت الملـك أدوشـكو قليـلاً ثـم مـد يـده للزبـير للمـرة الأولى وقـال لـه:

- أسمح لك بالبقاء لمدة ستة أشهر فقط بعدها تغادر بلادي.

- شـكرا يـا فخامـة الملـك. فهـذه المـدة تكفينـي وأعـدك أننـي سـأتاجر بسـلام.

- لا تظـن أننـي أمنحـك هـذه الإقامـة هنـا في مدينتـي مندقبـا. بـل عليك أن تقيـم خـارج المدينـة وسـأحدد لـك المـكان الـذي سـتقيم فيه.

- حسنا سأقبل بذلك.

ودع الزبير الملك أدوشكو الذي قال له:

- هداياك جميلة وقد سررت بها جداً.

- لن تخلو يداي من الهدايا كلما قدمت إليك.

(٧)

خصص للزبير مكانا يبعد نحو أربعة ساعات خارج مدينة مندقبا. وهناك أنشأ الزبير معسكراً وأقام محطة أحسن تحصينها وبنى بها عدداً من المخازن. وظل طيلة الفترة التي حددت له وفياً لمبادئه السلمية ملتزماً بها. وكان يتعامل مع الأهالي بمودة وبعدالة. وكان يقدم الهدايا للملك وأعوانه ومستشاريه كلما قدم لزيارتهم. واستطاع أن يكون صداقات داخل مؤسسة أدوشكو الملكية وأنيبث بينهم العيون تحسباً لأي شر قد يستبطن ضده. وكان الزبير في ذات الوقت يفرض الانضباط الحازم على رجاله ويحذرهم تحذيراً شديداً من المشاجرة مع أي مواطن بأية ذريعة أو لأي سبب من الأسباب. ويقول لهم إن أخذ أي شيء دون دفع ثمنه سيكون مدعاة للعقاب ولو كان ذلك قصبة سكر واحدة. ووضع الزبير قاعدة ثابتة لدفع الأسعار محددة لكل ما يشترى من البضائع. وكانت نتيجة ذلك أن هرع إليه الأهالي بالعاج وبغيره من بضائعهم ومنتجاتهم. كان الأهالي يحتفلون به ومنحوه حبهم ومودتهم وذاع اسم الزبير من جديد في تلك المناطق يسبقه لقب الرجل الشجاع العادل.
لم يستمر الحال هكذا. فقد هبت رياح عنيفة عندما همس أحد مساعدي الملك أدشكو في أذنه قائلا:
- يجب أن تعلم يا سيدي أن التاجر المدعو الزبير قد أنشأ استحكامات وأقام تحصينات حول معسكره بشكل كبير كما بنى العديد من المخازن.
- هذا أمر مقلق سأذهب إليه الآن حيث هو.
عندما وصل الملك أدشكو إلى معسكر الزبير كان غاضب الوجه رغم أن الزبير استقبله بتجلة واحترام:

- لماذا تقيم يا زبير كل هذه الأبنية وتنشئ كل هذه التحصينات في مكان ستغادره قريباً. فأنا لن أسمح لك بالبقاء هنا بعد أن تنتهي الفترة التي منحتها لك ويجب أن تعلم أنني لن أمنحك ولو يوماً إضافياً واحداً.
- أعلم ذلك يا فخامة الملك.
- ثم ما هذه الثكنات العسكرية هل أنت تاجر أم قائد حربي؟
- أرجو أن تعلم يا فخامة الملك أنني أفعل كل ذلك بسبب قرب موسم هطول الأمطار. فمن الضروري أن توقى البضائع وأن يوقى الرجال على حد سواء. ولعل كل ذلك سيكون الخير فيه لك لأنني عندما أرحل سيؤول كل شيء هنا لك.. لأنني فقط سأرحل ببضائعي وبرجالي.
بعد سماع الملك أدشكو لحديث الزبير سر كثيراً وقال له قبل أن يغادره:
- إذا لك أن تنشئ ما تشاء من الأبنية.
بعدها دعم الزبير معسكره ومحطته التجارية بموضع دفاعي قوي وكدس بداخله المؤن والعتاد، وظل في نفس الوقت متمسكاً بسياسته السلمية وأن يتاجر تجارة ناجحة وأن يجعل نفسه مميزاً ومعروفاً ومحبباً لدى أدشكو وقومه. غير أن حادثاً دامياً وقع. فقد قتل أحد رجال الزبير وسرقت بندقيته. فلم يلجأ الزبير للانتقام. وبدلاً عن ذلك حمل جثة الرجل القتيل إلى الملك وقال له:
- أنظر إلى ما حدث. والآن إذا كنت ملكاً عظيماً فإنك ستقضي بالعدل. وكل ما أطلبه منك الآن أن يعاد سلاح قتيلنا وسأترك أمر عقوبة الجاني والقصاص منه إليك. أمر الملك أن يدفن القتيل في أرضه وأعاد للزبير سلاح قتيله وعاقب الجاني. غير أن الملك أرسل بعدها رسولاً الزبير ليرحل لانتهاء الفترة

المحـددة. فطلـب الزبـير مهلـة للجـلاء. فرفـض الملـك طلبـه. فأرسـل لـه الزبـير خمسةرسـل ليقنعـوه بالمهلـة المطلوبـة. وبـدلاً عـن ذلـك قتـل الملـك أدشـكو رسـل الزبـير الخمسـة وقـرر مهاجمة معسـكره وأن يسـتولي عـلى مـا فيـه. وكان الزبـير يتوقـع مثـل هـذا الهجـوم إذ كان لـه أصدقـاء سـبق أن حـذروه مـن ذلـك.

(٨)

لم يكـن الزبـير يطلـب عـداء أحـد ولا يسـعى للدمـاء أو الانتقـام. فعـلى الرغـم مـن أن رجـال الملـك أدشـكو قـد قتلـوا مـن رجالـه رجـلاً وسـلبوه سـلاحه وقتلـوا رجـلا آخـر مـن رجالـه بـذات الكيفيـة إلا أن الزبـير آثـر أن يضـع الحكمـة بديـلاً عن إثارة أسـباب الحـرب ونجـح في ذلـك. مـا يـدل أنـه رجـل سـلام وأفصـح عـن شـخصية تملؤهـا العقلانيـة والاتـزان وتفيـض بالتسـامح. ولمـا رأى الزبـير أن مخازنـه في أرض الملـك أدشـكو قـد اتسـعت وأضحـت ذات أهميـة كـبرى وقيمـة عظيمـة وجـد نفسـه في ورطـة. فهـو لـن يسـتطيع أن يحمـل جميـع مـا اكتسـبه مـن تجـارة إلا بعـد اسـتقدام واسـتجلاب المزيـد مـن الرجـال ليسـاعدوه عـلى الجـلاء فقـد انتهـت المهلـة التـي سـمح لـه بهـا الملـك وكان مـن الـضروري أن يمـلأ مراكبـه بالـزاد. ولأجـل كل ذلـك أرسـل رسـله للملـك أدوشـكو ملتمسـا لديـه أن يمـده عـن طريـق البيـع بمؤونـة مـن الحنطـة وأن يمهلـه قليـلاً ليغـادر. ولكـن الملـك أدوشـكو لم يكتـف بالرفـض إنـما قتـل رسـل الزبـير. بـل أعلـن الحـرب عـلى الزبـير ولسـان حـال الزبـير يقـول:

نِحْنَا المَا بْسَمُّـونَا العِرَيبْ وَين جيتو
نِحْنَـا البِنْرَكَبْ الدُّرْشِي البجَابِدْخيتو
نِحْنَا عَشِيرْنَا مَا بنُخُونُو ونَخَربْبيتو
نِحْنَـا عَدُونَا بِنَعَصْرُو وَنَطَلِّـعْ زَيْتُو..!

لـو كان الملـك أدشـكو يعلـم مـدى دهـاء الزبـير وأنـه كان رجـلاً يعـرف جيـداً كيـف يدافـع عـن نفسـه ويدفـع أعـداءه، لمـا أقـدم عـلى حربـه، غـير أن الأعـداد الهائلـة مـن مواطنيـه المحاربـين التـي كانـت تتجـاوز وتفـوق كل النسـب إذا مـا قيسـت بقـوات الزبـير

أغرتـه بهـذه الحـرب. لكـن معسـكر الزبـير المحصـن تحصينـاً شـديداً برجالـه المائتـين جيـدي التسـليح والتدريـب، كان مسـتعداً لهـذه الحـرب التـي فرضـت عليهـم.. فاشـتعلت الهمـم. وكان النـور عنقـرة يـرى كالأسـد الهصـور والرجـال أمسـكوا ببنادقهـم جيـداً والقائـد الزبـير يـروح ويغـدو بينهـم يرفدهـم بالنصائـح ويغمرهـم بالأوامـر:

- لا تبـددوا ذخيرتكـم سـدى في الإطـلاق العشـوائي، أحسـنوا التصويـب، تعقبـوا زعـماء جيـش العـدو واجعلوهـم أهدافـا لرميكـم.

كان الزبـير يقـول كل ذلـك بكيـان استقوى بخـبرة المعـارك التـي خاضهـا مـن قبـل وبالثقافـة التـي اسـتقاها مـن قراءاتـه لأخبـار الحـروب التاريخيـة ومشـافهة آبائـه وأجـداده الذيـن مـلأوا وجدانـه حماسـة وهـم يحكـون لـه مـا دارت مـن معـارك أسـلافه الجعليـين. تـرددت عـلى جنبـات المعسـكر صرخـات الحـرب الداويـة كالرعـود التـي انتظمـت السـماء فلـم يحاذرهـا رجـال الزبـير الصناديـد ولم ترعبهـم. رغـم أن قـوات العـدو بـدت كالنمـل يقذفـون بحرابهـم ويطلقـون سـهامهم وهـم يزحفـون نحـو المعسـكر مـن كل الجهـات. واسـتمر هجومهـم لثلاثـة أيـام بلياليهـا والزبـير ورجالـه يعملـون عـلى صدهـم.

كان مهـر إيقـاف زحـف أعـداء الزبـير عـلى معسـكره عـدداً مـن الجرحـى والقتـلى وجـرح لم يهتـم بـه الزبـير إنـما اهتمـت بـه خرقـة لفـت عـلى سـاقه. الجانبـان صامـدان والحـرب تـدور والأعـداء يفقـدون اثنـي عـشر زعيـما مـن زعمائهـم. وفي يـوم الحـرب الرابـع اعتـلى الزبـير رابيـة وأخـذ يجـول نناظـره عـلى حشـود الأعـداء. كانـوا يزمجـرون ويطلقـون صيحـات الحـرب بـلا توقـف والملـك أدوشـكو كان أعلاهـم صراخـاً وزمجـرة واندفاعـاً. فنظـر إليـه الزبير

كـما كان ينظـر لذلـك الأسـد ووضـع إصبعـه عـلى الزنـاد وصـوب ناحيتـه وهـو يقـول:

- فخامة الملك.. لن تزمجر ولن تصرخ بعد هذه أبداً.

عندمـا انطلقـت الرصاصـة وأصابـت رأس الملـك وجـد الأهـالي المحاربـين أنفسـهم بـلا رأس بـلا قائـد ففـل عزمهـم واختـل نظامهـم واستشـعروا الهزيمـة ورصـاص رجـال الزبـير يطاردهـم كالمطـر. فسـقطت الجثـث واختلطـت الدمـاء بالوحـل والسـماء أرعدت.والصقـور الجائعـة تزاحـم السـحب السـوداء في السـماء. وتوخـى القـوم الفـرار يقودهـم في الانسـحاب الأمـير (شـايدا) ملكهـم المرتقـب وابـن الملـك القتيـل (أدوشـكو). ليلتفـت الزبـير إلى رجالـه قائـلاً:

- مـاذا تنتظـرون. هيـا اتبعـوني. سـنطاردهم ولـو دخلـوا في أصـداف البحـر وجحـور الفئـران.

(٩)

بـدأت المطـاردة بقيـادة الزبـير واسـتحال دفـاع الزبـير إلى هجـوم. ووصـل الزبـير ورجالـه للمدينـة وباتـت النتيجـة نـصراً عظيـماً مـؤزراً خضعـت بموجبـه مدينـة مندقبـا بالتسـليم للزبـير وفـر شـايدا ومعـه الآلاف مـن رجالـه مسـتعصمين بجبـال يقـال لهـا سـاروقا محيطـة بالمدينـة عـلى مسـافة غـير بعيـدة.

بـدا الطريـق ممهـدا للزبـير للدخـول إلى مؤسسـة الملـك القتيـل وأن يجلـس فـوق عرشـه. وعندمـا انتـشرت أخبـار وقـوع مندقبـا في يـد الزبـير أخـذت القبائـل المجـاورة تفـد إليـه بزعمائهـا وتعلـن خضوعهـا واستسـلامها لـه تباعـاً. وهكـذا انتقـل الزبـير مـن تاجـر ليصـير ملـكاً. هـي ذات اللحظـة التـي أصابـت فيهـا رحمـة وخـزة وهـو يسـتيقظ إثـر حلـم رأى فيـه شـيخه الشـيخ الطيـب مبتسـماً وهـو يقـول لـه: ألم أقـل ذلـك ألم أقـل إنـه سـيصير ملـكاً؟ هبطـت كفـه سريعـاً عـلى صـدر زوجتـه شـمة فصحـت مذعـورة فقـال لهـا:

- كان إنتي بنت الملوكأنا أبو الملك. الزبير بقى ملك يا شمة.
- الحدسك منو؟
- حدسني شيخي أحمد الطيب في رؤيا.
- كان كدي النزغرد.
- زغردي زي ما دايرة تزغردي.
- أيوي يوي يوي يوييييا..!

اندفعـت النسـاء في الجيـلي وهـرع الرجـال إلى منـزل رحمـة وشـمة وهـم يسـتغربون هـذه الزغاريـد في زمـن كانـت الأحـزان تغطيهـم. فبعـد ولادة إبـن الزبـير الثالـث محمـود مـن زوجتـه عائشـة بنـت منصـور تـوفي ولحـق بشـقيقه رحمـة. فخافـت بـت منصـور عـلى

وليدها الوحيد المتبقي سليمان فدعت الفقيه المدعو الحاج أن يدعوا الله لابنها سليمان بطول العمر. ومنذ ذلك اليوم التصق اسم الحاج بسليمان فصار يدعى سليمان الحاج الزبير. ولم تتوقف أحزانهم بعد ذلك فقد توفيت عائشة بنت منصور نفسها بعد حين فأمسك والدها منصور بيد أختها ابنته زينب وقال لها:

- حا نعوض الزبير بيك يا زينب حا أعقد ليك على الزبير.

- الزبير ما بتاباهو إلا واحدة مجنونة..!

من كذّب تلك الرؤيا صدقها بعد أن حمل التجار العائدون أخبار الزبير وذاعت في كل الشمال.

(١٠)

بعد عشرين يوماً من دخوله إليها استطاع الزبير أن يسيطر تماماً على مندقبا وأن يسكت فيها الأصوات. فاستتب له الأمر فيها وبدأ إجراءاته الإصلاحية بدعوة الأهالي إلى الإنتاج فجمع زعماء القبائل وخاطبهم قائلا:

- نحن الآن في زمن الحصاد. فدعونا نوقع تعهداً على السلام. فانصرفوا لجني حنطتكم وحصادها فلابد أن تأمنوا شر الجوع. فإذا حل الشتاء فستكون هناك مجاعة. عليكم أن تعملوا وأن تنتجوا ولن يمسكم أحد بسوء. وحتى الذين رفعوا السلاح ضدي فأنا أعفو عنهم. الآن أريد أن يسود السلم في هذه البلاد. أريدكم أن تستمتعوا ببلادكم الرائعة ذات الأمواه الجارية والفاكهة الدانية والخضرة الجميلة والطقس العليل. سر القوم بحديث الزبير أيما سرور وقالوا له:

- أنت ملكنا ولن نرضى بغيرك ملكاً فأنت العادل وأنت العاقل.

فرد عليهم الزبير قائلا:

- أنا لم آت لأحكمكم ولكنكم جميعا قد رأيتم الأحداث التي وقعت وفرضت هذه الظروف التي جعلتني على رأسكم. وإن كنتم بالفعل تريدون مني أن أحكمكم وإن كنت بالفعل في نظركم العادل والعاقل فعليكم أن تدركوا أن شايدا ابن الملك القتيل أدشكو لا يزال يعتقد أنه الأولى بعرش أبيه ولن يقبل أبداً أن يتولى حكم البلاد شخص مثلي. وهو الآن بين رجاله مستعصماً بالجبال ولابد أنه سيعود ويحدث قلاقل وخسائر. فهل أنتم مستعدون لتقفوا خلفي لإخضاع شايدا ورجاله حتى يزول عنا جميعا الخطر؟

ألقـى الزبـير بسـؤاله وبـدأ يترقـب الـرد وأخـذ ينظـر إلى الوجـوه التـي أخـذ الـتردد يجلـس عليهـا.

لم يستحسـن الزبـير ذلـك الصمـت الـذي بـدا فـوق وجـوه الأهـالي فقـال لهـم:

- إن كنتـم لا ترغبـون في الانضـمام إلى صفـي لمحاربـة شـايدا فأنـا غـير مسـتعد لأحكمكـم وسـأعود بتجـارتي إلى بلـدي في الشـمال. إنهـا لا تقـل جمـالا عـن بلادكـم وسـأدعكم لشـايدا ليعـود مـن تلـك الجبـال التـي يسـتعصم بهـا ويحكمكـم.

ارتفعت حينها أصوات الرجال وأخذوا يقولون:

- سنكون في صفك يا زبير. أنت ملكنا ونحن جنودك.

ابتسـم الزبـير فهـذا يعنـي أن هنالـك الآلاف سـينضمون إليـه فقـال لهم :

- حسـنا ولكنـي أعـذر كل مـن يخذلـه قلبـه أو لا تطاوعـه نفسـه. وعليـه أن يمـضي إلى بيتـه آمنـا أو أن يقـوم بحصـاد الحنطـة ولـن يمسـه أحـد لا في نفسـه ولا في مالـه ولا في عرضـه. ثـم التفـت الزبـير وأخـذ يسـأل:

- أين النور عنقرة؟

فصاح النور من بين الحشود بصوت جهور:

- أنا هنا سيدي فخامة الملك.

- اختـر مـن بـين القـوم المحاربـين الأشـداء أصحـاب الجلـد عـلى المشـقات والمخاطـر ودربهـم وعلمهـم أصـول القتـال الصحيحـة وحذرهـم مـن مخالفـة الأوامـر.

- حـاضر يـا سـيدي. فقـط أسـمح لي بالاقـتراب منـك فلـدي مـا أقولـه لـك.

- تفضل.

عندما اقترب النور من الزبير قال له:

- سيدي الزبير إن هذه الأعداد كبيرة ولابد من أن أجد من يساعدني على تنظيم صفوف من نختارهم، فعلينا أن نعلمهم كيف يستعملون السلاح الناري وأن ندربهم.

- مثل من؟

- بيننا رابح ود فضل اللهفتى قوي الشكيمة.

- يا إلهي كيف نسيت رابحدعه يحضر لي على الفور.

قبل أن يصل رابح إلى الزبير بدأ الزبير يسترجع تفاصيل قصة رابح المثيرة.

(١١)

جـاءه رابـح ذات مـرة بالميناء النهـري بـود شـلعي حيـث كانـت مراكـب الزبـير ترسـو هنـاك. وبرغـم سـمته القـوي وإطلالتـه الدالـة عـلى الشـجاعة قـال لـه:

- أنا في عرضك يا سر التجار.

- من أنت يا فتى؟

- إسمي رابح ود فضل الله ود الحسن ود شاور.

- ومن وين إنتا يا رابح وماذا تريد؟

- أنا من قبيلة الهمج أولاد عم الفور.

- وأبوك فضل الله ده قاعد وين؟

- في بلد بقولو لا الكوة مي بعيدة من ود شلعي دي.

- طيب بتدور شنو؟

- بدور الحماية منك يا سيدي الزبير.

- حماية من شنو؟

- فضل الله وناسو متعقبني وبدورو يكتلوني.

- يعني أبوك وأهل أبوك بدور يكتلوك؟ فى أبو بكتل ولدو؟

صمت رابح قليلا ولا يني يتلفت خلفه ثم قال:

- سـيدي الزبـير فضـل الله ماهـو أبـوي عـدل.. أنـا واحـد مـن رقيقـو ومسـمى عليهـو.

- ولماذا يريد وقومه أن يقتلوك؟

أطرق رابح برأسه إلى الأرض وقال بحزن:

- فى زول يـا سـيدي بـرضى في عرضـو؟آي أنـا رقيـق بـس نفـسي كبـيرة ومـا بقبـل المهانـة والذلـة.

أعجب الزبير بحديث رابح وقال له:

- البقبـل المهانـة والذلـة زولا هويـن ونفسـو ضعيفـة. بـس الحصـل

شنو ؟
- فى ولـدا لى فضـل الله كان بحـوم عـلى مـرتي. ولمـن كـتر حوامتـو كلمتـو قلتلـو:
- أبعـد يـا جنـا وخـلي عنـدك أصـل. الجنـا نهـرني يـا سـيدي الزبـير و قال:
- شــن قايــل نفســك؟ إنتــا ومرتــك رقيقنــا والبــدورو فيكــم بســويهو.
- لا تلعب بالنار يا جنا.
في اليــوم التــاني ســمعتا مــرتي بتكــورك. شــلتا لي عــكاز ومشــيت عــلى القطيــة لقيــت ود فضــل الله بــلاوي فوقــا. قمتــا لقطتــو بــى عــكازي. قــام عــلى حيلــو. بــس عاينتلــو ســمح وخبتــو في نــص راســو ووقــع ميــت. بــس بعــد دا مــا قدرتــا أقعــد في الحلــة عشــان فضــل الله وأهلــوا حلفــوا يكتلــوني. وهســع هــم وراي بقصــوا في دربي. عشــان كــده قتــا أجيــك. وعــارف إنــو مــا بتجينــى عوجــة عنــدك. ومســتعد أســافر معــاك وأكــون مــن حراســك. أصــلي كنتــا عســكري في الحكومــة قبــال يسرحــوني.
- خــلاس يــا رابــح خشــلك في واحــدة مــن مراكبــي ديــل وفــد عوجــة مــا بتجيــك.
لم يمــر وقــت طويــل حتــى بــدت كلاب شرســة وقصاصــو أثــر يتبعهــم قــوم مســلحون يقتربــون مــن مراكــب الزبــير. وعندمــا أدركــوه قــال كبيرهــم:
- الأثر بتاع رابح إنقطع هنا. والرقيق ده نحنا بندورو.
سألهم الزبير:
- إنتو ناس فضل الله ود الحسن؟
- أيوه بالحيل يا شيخ الزبير.
- ودايرين رابح.

- أيوه بندورو. وكيفن ما بندور الزول الكتل جنانا.
- بس هو إستجار بي وأنا أديتو الأمان.
- ده كلام شنو يا شيخ الزبير. كدا ماك ظلمتنا. المعنى دم ولدنا يروح ساكت.
- لا لا ما بروح ساكت. أنا بديكم دية المكتول. وعشان عارفكم أسيادو كمان بديكم الفدية بتاعتو ويكون معتوق ومن الليلة إسمو رابح الزبير. مو رابح فضل الله.
رجع فضل الله وقومه بالدية والفدية وهم راضون تماماً. عندها خرج رابح وقال للزبير:
- من الليلة أنا عبدك يا سيدي الزبير.
- لا لا يا رابح أنا خلاس عتقتك ومن الليلة إنتا ماك رقيق. إنتا ولدي رابح الزبير. تسافر معاي وتعمل معاي وتحرسني عشان النخوة وعزة النفس الفيك ماها عند ناس كتار.
- روحي فداك يا الزبير أبوي.

(١٢)

هكـذا انخـرط رابـح في خدمـة الزبـير ولم يكـن يـدري أن الأقـدار تخبـئ لـه ملـكاً عظيـماً.

هـذه الذكـرى وغيرهـا مـن الذكريـات بقيـت في ذهـن الزبـير حتـى آخـر العمـر. وكان يقلبهـا جميعـاً عندمـا تـم أسره في جبـل طـارق المحميـة البريطانيـة المتاخمـة لـلأراضي الإسـبانية. فقـال هنـاك ذات يـوم لمحدثتـه البريطانيـة بمشـاعر يمازجهـا الإيـمان العميـق:

ـ كل رغبتـي كانـت أن أتاجـر وأن أعمـل عـلى نـشر المدنيـة والتحـضر. ولكنـي لم أكـن أملـك مـن أمـر نفـسي شـيئاً. وقـد كنـت آنـذاك هنـاك كـما أنـا الآن هناأصنـع مـا أراد الله بي. سُـلطاناً او سـجيناً. فـإن ذلـك لا يهمنـي كثـيراً بقـدر مـا وضعـت مصـيري وأمـري كلـه بـين يـدي الله.

– نعم يا أبي أنا بين يديك.

جملة قالها رابح فأخرجت الزبير من صمته فقال:

– يـا رابـح كـما سـمعت فإننـا نريـد أن نخضـع شـايدا ونزيـل خطـره عنـا. وهـو كـما تعلـم يسـتعصم بالجبـال وحربـه صعبـة وخطـيرة. فعليـك أن تضـع يـدك في يـد أخيـك النـور عنقـرة وتنظمـوا الصفـوف بطريقـة جيـدة حتـى نغـزو بهـم تلـك الجبـال. فأنـا أعلـم أنـك كالنـور تمتلـك خـبرة عسـكرية. عليكـما بتدريـب مـن تختارونـه مـن الأهـالي. يجـب أن يكـون لدينـا جيـش مـدرب ومسـلح. فأنـا لم أعـد تاجـرا فحسـب إنـما صرت ملـكا. وأنـا أعلـم طبيعـة أهـل الممالـك التـي حوالينـا. سـيطمعون ذات يـوم في أموالنا ورجالنـا فيجـب أن نكـون مسـتعدين.

– سـأحمل اللـواء يـا أبتـي وسـأدافع عنـك وعـن ملـكك حتـى آخـر قطـرة مـن دمـي.

- إذن فأكملوا الاستعداد لنتحرك.

بعد اكتمال الاستعدادات أمر الزبير القائدين النور عنقرة ورابح بأن يستعينا في القيادة ببني عمومته محمد عبد القادر وصباحي محمد حمد وحماد محمد الكديم. ثم أخذ يقود قواته بنفسه متجها بهم نحو جبال ساروقا التي يستعصم بها شايدا. ليواجه الزبير وقواته طبيعة جبلية قاسية منعتهم لمرتين من التمكن للصعود والاحتلال. وكان رجال شايدا متمرسين تمام التمرس على حرب الجبال واستطاعوا أن يحدثوا خسائر في قوات الزبير الذي آثر خطة ثانية وهي فرض الحصار. فقد تبين له أن موقع شايدا أقوى وأعتى بكثير من أن ينال عن طريق الهجوم. لذا ضرب حصاراً محكماً حول تلك الجبال لا فكاك منه. وكانت قوات الزبير تقتل كل من يحاول أن يتخلص من ذلك الحصار بالنزول لإحضار مؤونة أو غذاء. وعندما استمر الحصار لثمانية عشرة يوما ضاقت السبل على شايدا واستشعر الخطورة والضعف. غير أنه قرر أن يكون صامداً. وعند بزوغ فجر اليوم التاسع عشر أبصرت قوات الزبير ثلة تتقدم نحو خيمهم في قيادة معسكر الحصار. فأرادوا إبادتهم. وعندما لاحظوا أنهم عزل أحجموا عن ذلك. ومع اقترابهم وسطوع الشمس صاح فرد من قوات الزبير،من الذين انضم إليه في زمرة أهالي مندقبا:

- إنه شايدا يا فخامة الملك الزبير..إنه شايدا..إنه شايدا يا إلهي ومعه زعماؤه.

أدرك الزبير بحسه الحربي وبخبرته التي اكتسبها في خوض المعارك أن شايدا قد جاءه مستسلماً.

أراد البعض أن يتحرش بشايدا وزعمائه إلا أن الزبير زجرهم زجراً شديداً وقال له:

- أهلاً بالأمير ابن الملك.
صمت شايدا فأردف الزبير قائلا:
- الحروب لا داعي لها والسلم أفضل منها كثيراً.
فقال شايدا:
- لا أنكر أن والدي قد أخطأ بحقك وشن عليك حرباً لا داعي لها وما كنا نستطيع أن نعصى له أمراً، وأنا حزين وآسف لأنه قتل رسلك فالرسل لا يقتلون. هكذا علمنا أسلافنا. وأنا الآن هنا ومعي زعمائي الستة عشرة وجميع أفراد عائلاتنا نعلن خضوعنا لك واستسلامنا لقيادتك استسلاماً كاملا واضعين حياتنا بين يديك. وسيتبعني إليك بعد قليل كل رجالي الموجودين في هذه الجبال. لم يكن أحد يتوقع أو يتصور أبداً التصرف الذي أقدم عليه الزبير بعد هذا الخضوع والإذعان. فقد كانوا يتصورن أن الزبير سيلجأ للقسوة والعقاب والانتقام. ولكن الزبير أدهش الجميع وهو يقول لشايدا:
- سأعود بك إلى ماندقبا ليتم تنصيبك فيها خليفة لوالدك وملكاً عليها. فأنا لا أرغب في الحكم ولا من شيمي القتل والانتقام. ولكن يجب أن تعلم جيداً بأن عليك أن تكون عادلاً. وأنتم أيها الزعماء تستحقون مني الخلع والكساوي ويمكنكم أن تعودوا وجميع من في إمرتكم إلى منازلكم آمنين فاذهبوا فأنتم طلقاء. وسأصدر أوامر مشددة بأن لا يمس أي من نسائكم أو أطفالكم.

(١٣)

تبادل الجميع التحايا وتم إرسال الرسل إلى أعلى الجبال فهبط رجال شايدا مطمئنين وهم يستشرفون من الزبير صنيعاً متسامحاً ورأفة ورحمة لا حدود لها ما خطرت على بالهم فقد وضع الزبير الدهشة في عيونهم والأمن في كيانهم وهدأ من روعهم. عاد الجميع متحابين إلىماندقبا وأعادوا زوجاتهم وأطفالهم إلى المنازل التي هجروها أو أخلتهم منها الحرب. ولما ذاع هذا الأمر في مقاطعات إقليم أدشكو أعلنت جميعها ولاءها وخضوعها للزبير واتفقت جميعها على اختياره ملكا عليهم. فنزل الزبير عند رغبتهم وظل شايدا يتمتع بلقب والده ورتبته الاسمية وبدأ الزبير الذي عينته القبائل سلطانا وملكا عليهم يحيا بمندقبا حياة بلاط ملوكية فبنى له داراً وعرشا يليق بملك حقيقي. ولم تكن كل هذه الأخبار لتغيب عن أسماع الملك تكمة. فقرر أن يرسل ابنته رانبوة زوجة الزبير إليه في مندقبا هامساً لها في أذنها بأمر حزين قبل أن يضعها وطفلتها داخل هودج على ظهر ثور قوي يحرسه ويقوده رجال أشداء. بعد حين أبصر الزبير الثور يقوده بعض الرجال الأقوياء وكان يحمل فوقه الأميرة رانبوه ابنة الملك تكمة وزوجته وهي تحمل طفلته الجميلة. فخفق قلبه وهي تتقدم وتجثو فرفعها عن الأرض وقبل طفلته وهو يقول لها: لا تفعلي هذا فأنت الآن ملكة وزوجة ملك عظيم. كان لهذا وقع مثير لدى الأهالي في ماندقبا الذين صاروا شعب الزبير. فقد رأوا أن تاجراً كبيراً من الشمال يصاهرهم ويتناسل. فكبر في نظرهم وسمقت مكانته لديهم أكثر.

(١٤)

كانت رانبوه امرأة جميلة ومرحة أحبت الزبير بكل كيانها وأحبها بعمق. وكان هذا هو سر حزن الزبير عليها عندما ماتت بعد عشرة أعوام بعدما أنجبت له طفلة ثانية. وعندما سافر إلى مصر اصطحبها معه. بدت رانبوه فرحة وهي تدخل إلى ديار الملك. ديار ليست كديار والدها ولم تحظ بمشاهدة مثيلها من قبل. ولم يمر وقت طويل حتى أسعفها ذكاؤها على فهم كل شيء في بلاط زوجها. ذات ليلة جلست بروحها المرحة على الأرض قبالة الزبير وهي تقول له: أنا جاريتك رانبوه يا سيدي التي اخترتها لنفسك من بين آلاف الجواري. حبيبة أحبتك وذابت في محبتك. سأغني لك أيها الحبيب والقائد المنتصر. وبصوتها العذب أخذت تغني أغنيات النصر البديعة فطرب لها الزبير ثم تقول:

- مرني بما شئت يا سيدي. المخدع يستقر الآن على أجمل هيئة. المساند محشوة بريش النعام. والفرش أرجواني عليه لطائف من حرير. وقوائم أريكتنا الذهبية تمت تجليتها. ورائحة البخور تعبق المخدع. والطفلة نائمة. فهلا صحبتني يا مولاي؟! آه نسيت يا ملكي ومالكي شيئاً مهماً فهناك من حضر المعارك وحدثني وأسعدني بأخبار انتصاراتك. إنه يقول يا سيدي إن جنود الأعداء فرت من جنودك البواسل وبعضهم جاء خاضعاً مستسلماً والملوك والسلاطين سلموك أمرهم. إنهم مستسلمين لك كما أنا الآن. ثم يضحكان.

أنهى بكاء الطفلة المفاجئ مرح رانبوه. وعندما هدأت الطفلة أصابتها وخزة دفعت بها لتفصح للزبير عن أمر حزين:

- حزينة أنا أيها الحبيب.

- وما الذي يحزنك يا رانبوه؟

- أبي الملك تكمة في ورطة وهو خائف على ملكه وعلى حياته ويريد مساعدتك.
- ماذا به هل حدث شيء.
- هنالك أعداء يهاجمونه كل ليلة وعندما يطاردهم يختفون وكأنما الأرض تنشق بهم.

- حسنا سنرى كيف نساعده.
- أرجوك يا زوجي العزيز تعجل الأمر والدي يريد الحماية.
- يكفي أنه والدك.
- أشكرك يا حبيبي. كما أشكرك على كل الهدايا التي كانت تصلني منك في غيابك. لن أنسى ما حييت قوافل هداياك التي كانت تحمل العسل والأقمشة والخرز والحنطة التي كنت ترسلها لي.
على رأس قوة قوامها ألفي رجل خرج الزبير في اليوم التالي قاصداً حدود مملكة تكمة. ولدهشته رآه في الطريق متعباً مع رجاله فاراً من بلده فبادره قائلاً:
- ما الذي حل بك يا فخامة الملك تكمة؟
- الحمد لله على وصولك يا الزبير. لقد أرهقني الأعداء. إنهم يأتون في حشود كبيرة. هيئتهم لا تشبه أحداً. وكأنهم يخرجون من باطن الأرض ويعودون إليها.
ـ حسناً يا تكمة سأقضي عليهم ولو كانوا شياطين أو أبالسة.
لم يكن الزبير يدري وهو يطارد أعداء والد زوجته الحبيبة أنه سيقع على سرٍ رهيب ومُدهش لم يكن يسمح به خياله أبداً.

(١٥)

دفع حضور الزبير في نفس تكمة مشاعر لا توصف بالأمان فتخلص من خوفه واستعاد ما فقده من أحاسيس ملكية وقال للزبير:

- إذا اتبعني بقواتك إلى الأماكن التي كان يتجه إليها هؤلاء الأشرار ويختفون فيها. إنني يا صهري العزيز أراهم تارة في تجمعات وحشود وتارة لا أرى منهم أحداً حتى بت لا أشعر بالاستقرار ولا أطمئن على مملكتي خوفاً منهم.

- هيا بنا يا فخامة الملك فقد قلت لك سأقضي عليهم ولو كانوا شياطين أو أبالسة. بدأت القوات تسير بقيادة الزبير، وتكمة يرشدهم إلى اتجاهات الأعداء الأشرار، وبعد أن أوغلوا في المسير توقف تكمة وقال:

- من هذه الأماكن كانت تخرج حشود أعدائي.

تعجب الزبير فهو لا يرى شيئاً غير الأجمة والحشائش. فقرر أن يستكشف المكان بنفسه. وبعد بحث مضن اكتشف مدخلاً يقود إلى كهوف بدت متسعة ومرتفعة. فأيقن أن أعداء تكمة يخرجون من هذه الكهوف وبعد إكمال غاراتهم يعودون إليها. فبدأ السر الرهيب يتكشف. غير أن الزبير قرر ألا يغامر بقواته ويدخل إلى تلك الكهوف التي لم تتبين له تحصيناتها أو طبيعتها فآثر أن يبتعد بقواته قليلاً ويكمن بهم خلف الأشجار والحشائش وأن يراقب مدخل تلك الكهوف. فأصدر أوامر بهذا المعنى. ولم يلبث حتى رأى الزبير حشود أعداء الملك تكمة تخرج من ذلك النفق فكان الأمر عجيباً ومذهلاً وأخذ تكمة يصرخ:

- هؤلاء هم أعدائي اقض عليهم يا زبير.
نظر الزبير إلى الملك تكمة وقال له:
- هـون عليـك يـا فخامـة الملـك ودعنـي أتـصرف بخطـة وبحكمـة فقـط ابـق هادئـاً. ثـم التفـت إلى قـواد قواتـه وقـال لهـم:
- عندمـا يكتمـل خـروج حشـود الأعـداء توزعـوا عـلى أنحـاء المـكان وسـأقود البعـض إلى مدخـل نفـق الكهـوف وسـننتظر عودتهـم. وعندمـا يعـودون سـيجدوننا وقـد قطعنـا عليهـم خـط الرجعـة وداخـل حصـار مـن قواتنـا.
نفـذت أوامـر الزبـير بدقـة وخرجت حشـود سـاكني تلـك المغارات باطمئنـان ولم تكـن عودتهـم كخروجهـم. فقـد كان الزبـير وقواتـه يحولـون بينهـم وبـين مدخـل كهوفهـم. وبـدأت قـوات الزبـير تطوقهـم مـن كل جانـب. فأصابهـم الفـزع وأعياهـم المهـرب. ثـم حصـل الزبـير عـلى النتيجـة التـي خطـط لهـا. الاستسـلام التـام دون إراقـة دمـاء. فتقـدم قائدهـم وأعلـن استسـلامه للزبـير الـذي كان يـردد دائـماً: ليـس هنـاك أي شيء إطلاقـاً يمكـن أن يسـتفاد منـه عـن طريـق الحـرب. فأنـت إنـما تدمـر البـلاد وتخربهـا وتخيـف بهـا النـاس وترعـب بهـا الرعيـة. وقـال لـه:
- لـن أقبـل استسـلامك ولـن أترككـم في أمـان مـالم تقبلـوا بـكل الـشروط التـي سـأمليها عليكـم.
- قل ما تريد وسنقبل ما ستقوله إن كان في ذلك نجاتنا.
- عليكـم أن تلتزمـوا بالسـلام وتعـدوني بالمحافظـة عليـه ومراعاتـه في المسـتقبل وعـدم شـن غـارات عـلى جيرانكـم خاصـة الملـك تكمـة. وأخـيراً أن تمكنـوني مـن الوقـوف عـلى كهوفكـم والإطـلاع عـلى مسـاكنكم فيهـا التـي تحجبونهـا عـن الأنظـار وتعرفـوني عـلى أنفسـكم.
بـدا القائـد المستسـلم راضيـا بـشروط الزبـير سـعيداً بنجاتـه وقومـه

فقال للزبير دون أن يخفي ابتهاجه:

- نقبل يا سيدي بكل شروطك وسأفرضها على قومي من القروندي. إننا يا سيدي نطلق على أنفسنا قروندي. ولدنا وعشنا في هذه الكهوف بعيداً عن بقية الأقوام ولم نكن في يوم من الأيام مصدر إزعاج لأحد ولم نتحرش بأحد. ولكن أعيننا حذرتنا من سطوة المملكة المجاورة فخفنا على أنفسنا وبادرنا بالهجمات لحماية أنفسنا. ونعدك أن لا نسبب لتكمة أو غيره متاعب بعد الآن.

- أريد أن أرى كهوفكم.

- تفضل سيدي تفضل.

(١٦)

امتلأ الزبير بعد ذلك تعجباً وإعجاباً بما شاهده. لقد شاهد شيئاً لا يسمح به خياله. فقد كانت تلك الكهوف طبيعية التكوين غاية في الاتساع والعلو يأتيها الضوء من فوقها وأعلاها وتتخللها أنسام عطرة ويجري خلالها غدير نهر صغير وتناثرت في أجوافها أكواخ صغيرة بنيت من القش بطريقة رائعة. وقد بدا للزبير أن إنسان هذه الكهوف قد أعمل يده فيها بتشييد فني آية في الروعة والجمال. ولولا استحالة ذلك لكان هذا المكان مسروقا من الجنة. قال لهم الزبير بإعجاب:

- أنتم حقا قوم عظماء وأمة من المهندسين المعماريين الأكفاء من ناحتي وقاطعي الأحجار والصخور.

- هذه أعمال بدأها أسلافنا بعد أن اهتدوا لهذا المكان في الماضي البعيد فاختاروا العيش فيه وتناسلوا هنا وتزايدت أعدادهم عبر الأجيال.

لاحظ الزبير أن القروندي يعتمدون في معيشتهم على الحنطة واللوبيا والعدس التي كانت تنمو على مقربة منهم فحمد الله أنهم ليسوا من آكلي البشر وقال لهم وهو يودعهم:

- حافظوا على جنتكم هذه ولا تضيعوها بالحروب، فأنتم الآن في أمان ودعوا غيركم يعيشون أيضا في أمان.

بعبارات مليئة بالثناء والمودة ودعوا الزبير وتكمة ورجالهما وفي طريق العودة قال الزبير لتكمة:

- أرجو أن تكون سعيداً بما فعلته لأجلك.

- أنا في غاية السعادة وأشعر بالاطمئنان الكامل وسأعود لشعبي وكلي ثقة بأنهم سيكونون آمنين بعد اليوم. أشكرك يا زبير على كل هذا فقد أثبت لي أنك قائد حكيم ومحنك وليس

مجـرد تاجـر.
- إذا وداعاً. أنا في طريق عودتي لمندقبا.
- بلـغ تحيـاتي لابنتـي العزيـزة رانبـوه وطفلتهـا حفيـدتي الجميلـة وسـوف لن تنقطـع هداياي لهـما أبداً ولكـن قبل أن نفترق سـأهديك خمسـمائة رجـل اخترهـم مـن بـين رجـالي وتوخيـت فيهـم الأقويـاء الأذكيـاء الذين يصلحـون للانضمام لجيشـك ليحموك مثلـما حميتني.

(١٧)

قبل أن تفترق خطى الزبير وتكمة أمر الزبير قواده رابح والنور عنقرة وثلة أخرى من القواد باختيار الرجال الخمسمائة. وعندما عاد الزبير لمندقبا استقبل استقبال الفاتحين المنتصرين وسعدت رانبوه بعودة الملك منتصراً وابتهجت بسلامة وأمن والدها الملك تكمة وأسرت له بخبر عودة ابن عمه بمفاجأة لم تكن في حسبانه. قالت له والابتسامة لا تفارق شفتيها:

- في غيابك وصل ابن عمك عبد الرحمن بمراكب مليئة بالبضائع الجميلة وقال إنه قد نجح في تصريف البضائع التي كلفته ببيعها في الشمال.

- هذا خبر جميل. أين ابن عمي أريد أن أراه الآن.

- رويدك يا ملكي ومالكي لا تتعجل الأمر قبل أن أطلعك على مفاجأة ستسرك كثيرا فقط اتبعني.

بالفعل كانت المفاجأة حقيقة. فقد قادته رانبوه إلى مخدع آخر في ذلك المقر الملكي ليجد بداخله زينب بنت منصور. زوجته التي زوجه إياها والدها في أعقاب وفاة زوجته أختها عائشة بنت منصور فكادت الدهشة تلجمه فقال لرانبوه:

- ألا تشعرين بالغيرة؟!

- لا. فأنت ملك ولك أن تتزوج بمن تشاء. وبأي عدد تريد من النساء. وأنت تعلم أن والدي الملك تكمة قد تزوج بأربعمائة من النسوة..!

- نعم أعلم ذلك.

- إذا فنحن معتادون على مثل هذه الأشياء. وعندما أتت زوجتك مع ابن عمك أكرمتها وخصصت لها هذا المخدع. إنك يا زبير تستحق أن تنال السعادة بكل أشكالها.

بعبارات ودودة استقبل الزبير زوجته زينب بنت منصور وسألها عن أخبار الأهل وابنه سليمان فأخبرته بأنهم جميعاً بخير وأن سليمان يعيش في كنف جده رحمة وجدته شمة. بعدها طلب الزبير أن يدخل إليه ابن عمه عبد الرحمن. غير أن الزبير لاحظ على وجهه شيء من الحزن فقال له:

- أخبروني أنك قد نجحت في تصريف البضائع التي كلفتك ببيعها في الخرطوم وأنك قد نجحت أيضا في إحضار بضائع أخرى جيدة.

- نعم يا ابن عمي.

- إذا لم أراك حزينا؟

اقترب عبد الرحمن من الزبير وهمس في أذنه همساً طويلاً فأطرق الزبير برأسه إلى الأرض وهو يقول:

- يا إلهي رحماك. إلى متى تكتب علينا الحروب ولم تشدنا الأقدار دوما إلى القتال.

كان الزبير تاجراً مستنيراً قبل أن يكون ملكاً عظيماً، وكان يؤمن بأن التجارة هي الوسيط المثالي للتمدن في مجتمعات لم تخط كثيراً أو قليلاً نحو هذه الغاية التي ستتحقق تدريجياًفي كل دفقة تجارية آمنة وحرة يتبعها النظام والمعرفة ومعها تنساب الإلفة والمحبة. لذا درج على إرسال قوافل تجارية تجوب تلك المناطق التي تمدد فيها نفوذه أو تلك الأخرى البكر التي لم تطالها يد المكتشفين أو التجار. لذلك أوفد ابن عم له يدعى منصور إلى إقليم يدعى (أنداقو) وقبل أن يتحرك منصور على رأس القافلة مترئساً مرافقيه كانت مركبه محملة بالأقمشة والخرز والقصدير. وكان الزبير يزوده بالنصائح قائلاً له:

- إن الهدايا يا ابن عمي هي مفتاح القلوب. وإن إظهار المودة والاحترام لمن تتاجر معهم تبعث في نفوسهم الطمأنينة والسلام.

فـلا تلجـأ إلى فوهـة بندقيتـك أو إلى حـد سـيفك إلا عندمـا تكـن في موقـف يدعـوك للدفـاع عـن مالـك أو عـن نفسـك. لـذا عندمـا تصـل إلى إقليـم أنداقـو اسـأل عـن ملكهـم ويدعـى (موتـو) وحينـما تدركـه بـادره بهدايـاك واطلـب منـه الإذن للاتجـار في إقليمـه. وإذا أذن لـك لا تأخـذ شـيئاً قسـراً. فعندمـا يعطونـك ريـش النعـام والعسـل والعـاج والصمـغ اعطهـم مـا عنـدك مـن أقمشـة وخـرز وقصديـر. فسـيفرحون بذلـك ويصادقونـك ويتمنـون عودتـك إليهـم مـرة أخـرى. أسـتودعك الله يـا ابـن عمـي ودعـواتي لـك أن تعـود إلينـا سـالماً غانـماً. تعانـق الرجـلان وسـار منصـور في درب الـرزق العسـير. لم يـزل الزبـير في تلـك الإطراقـة الآسـية الحزينـة وهـو يـردد بعـد همسـة العائـد ابـن عمـه عبـد الرحمـن الطويلـة: يـا إلهـي رحمـاك إلى متـى تكتـب علينـا الحـروب ولم تشـدنا الأقـدار دومـا للقتـال. كان يـردد جملتـه هـذه وفي أغـواره تتـماوج بعنـف تفاصيـل تلـك الهمسـة التـي أنبـأه فيهـا عبـد الرحمـن بـما حـدث:

- يـا ابـن عمـي لم يكـن ملـك أنداقـو رجـل سـلم. فقـد كان همجيـاً متوحشـاً. لقـد ذبـح ابـن عمنـا منصـور وجميـع مـن معـه وسـلب مـا معهـم مـن البضائـع بعـد غـارة ليليـة مباغتـة وغـادرة. دعنـا نثـأر لمقتلـه وأن نسـتعيد مـن هـذا الملـك مـا سـلبه منـه.

تخلـص الزبـير مـن إطراقتـه مدعيـا تخلصـه مـن أحزانـه وأسـاه. فقـد كان يـرى أنـه غـير لائـق أن يبـدو حزينـاً مكتئبـاً عابـس الوجـه وهـو لا يـزال في خضـم مراسـم اسـتقباله وترحيبـه بزينـب زوجتـه وابنـة عمـه منصـور وأخـت زوجتـه الراحلـة عائشـة. فترحـم عـلى منصـور ورفاقـه وقـال:

- يمكنـك الذهـاب الآن يـا عبـد الرحمـن. فـلا شـك أن لديـك مـا تفعلـه الآن بمخـازن البضائـع.

- لينصرك الله يا بن عمي ويقويك على أعدائك.

(١٨)

عـاد الزبـير بوجـه إلى زوجتيـه زينـب ورانبـوة التـي كانـت حصيفـة وهـي تسـتأذنهما في الانـصراف. فتولـت زينـب محـو أسـاه وهـي تحدثـه عـن الأهـل وعـن ذلـك الأثـر الـذي تركـه فيهـم بزيارتـه لهـم وهداياـه وعطاياـه وكرمهـم معهـم:

- والله يـا ود عمـي شـاكرنك كتـير وحـالم إتغـير. إن شـاء الله تـدي مـن كتـيرك.

بخروجـه مـن مخـدع زوجتـه زينـب إلى مجلـس قـواده وحاشـيته في الصبـاح لاحـظ الزبـير بينهـم وجهـا غريبـاً شـدته إليـه ملامحـه القويـة فأحـس تجاهـه بإلفـة غامـرة فسـأل عنـه ثـم اسـتدعاه:

- بشوفك غريب ما شفتك قبال كده.

- إسـمي محمـد مـن الدناقلـة الجابريـة مـن القطينـة. سـمعت بيـك وسـيرتك ملـت الدنيـا. تابعتـك لامـن وصلـت لى هنـا وبـدور أشـتغل معـاك.

- أهـلا وسـهلا بيـك يـا محمـد. فيـك ريحـة صديقـي المرحـوم إبراهيـم الدنقـلاوي. بـس تاريخـك شـنو؟

- أنـا كنتـا بشـتغل مـلاح في أسـطول شركـة السـيد أحمـد العقـاد المـصري في الإسـتوائية واشـتغلت في بحـر الغـزال.

- أها إن شاء الله بتكون خبرتك في العسكرية كويسة؟

- أي نعم يا شيخنا الزبير.

التفت الزبير منادياً رابح قائلا له:

- اللخو ده خلوهو معاكم وضمو على اخوانك.

- حاضر يا والدي.

سأل رابح محمد:

- اللخو محمد منو؟
- أنا محمد عثمان أبو قرجة.

رحب بأبو قرجة كل من كان في مجلس الزبير الذي كان يضم حاشيته وقواده الذين التفت إليهم الزبير ناقلا لهم الخبر المحزن:

- الملك موتو ملك أنداقو سلب أخوكم منصور وكتلو هو ورفاقتو. أها الراي شنو؟

بعد أن ترحم من كان في المجلس على أرواح من فقدوا شاب الحذر المكان. فقد كان الملك موتو زعيماً مرعباً ومهيباً ولكن ليس على الزبير وقواده الشجعان. فانبرى البطل رابح قائلاً:

- أنا له يا أبتاه. آذن لي أن أقود فيلقاً واذهب له وأدمره. ثم أخذ يردد قول عنترة ابن شداد:

حكّمْ سيُوفَكَ في رقابِ العُذَّلِ ❊❊ واذا نزلتْ بدار ذلَّ فارحل
وإذا بُليتَ بظالمٍ كُنْ ظالماً ❊❊ واذا لقيت ذوي الجهالة فاجهل
وإذا الجبانُ نهاكَ يوْمَ كريهة ❊❊ خوفاً عليكَ من ازدحام الجحفلِ
فاعْصِ مقالَتهُ ولا تَحْفلْ بها ❊❊ واقدمْ إذا حَقَّ اللِّقا في الأوَّلِ
واخترْ لِنفْسِكَ منزلاً تعْلو به ❊❊ أوْ مُتْ كريماً تَحْتَ ظلِّ القسْطَلِ
فالموتُ لاَ يُنْجيكَ منْ آفاتِهِ ❊❊ حصنٌ ولو شيدتهُ بالجندلِ
موتُ الفتى في عزهِ خيرٌ لَهُ ❊❊ منْ أنْ يبيتَ أسير طرفٍ أكحلِ
إنْ كُنْتُ في عددِ العبيدِ فهمَّتي ❊❊ فوق الثريا والسِّماكِ الأعزلِ
أو أنكرتْ فرسانُ عبسٍ نسبتي ❊❊ فسنان رمحي والحسام يقرُّ لي
وبذابلي ومهندي نلتُ العلاَ ❊❊ لا بالقرابة والعديد الأجزلِ
ورميتُ مهريَ في العجاجِ فخاضهُ ❊❊ والنَّارُ تقدحُ منْ شفار الأنْصُل
خاضَ العجاجَ محجلاً حتى إذا ❊❊ شهدَ الوقعيةَ عاد غير محجلِ
ولقدْ نكبتُ بني حريقة نَكْبةً ❊❊ لما طعنتُ صميم قلب الأخيل
وقتلْتُ فارِسَهُمْ ربيعةَ عَنْوَةً ❊❊ والهيْذُبانِ وجابرَ بْنَ مُهلهلِ
وابني ربيعة والحريسَ ومالكا ❊❊ والزِّبْرِقانُ غدا طريحَ الجَنْدلِ
وأنا ابْنُ سوْداءِ الجبينِ كأنَّها ❊❊ ضبعٌ ترعْرَع في رُسومِ المنْزلِ
الساق منها مثلُ ساق نعامةٍ ❊❊ والشَّعْرُ منها مثْلُ حَبِّ الفلْفلِ
والثغر من تحتِ اللثام كأنه ❊❊ برْقٌ تلأْلأَ في الظّلامَ المُسدَلِ
يا نازلين على الحِمَى ودِيارهِ ❊❊ هلاّ رأيتُمْ في الدِّيار تَقَلْقُلي

قد طال عزُّكُم وذُلِّي في الهوَى ** ومن العَجائبِ عزُّكم وتذَلُّلي
لا تسقيني ماءَ الحَياة بذلةٍ ** بل فاسقني بالعزَّ كاس الحنظل
ماءُ الحياةِ بذلةٍ كجهنم ** وجهنم بالعزَّ أطيبُ منزل

(١٩)

ألهب رابح حماس الحاضرين وابتسم الزبير الذي بقدر ما كان يرغب في السلم فقد وجد أن الحرب هي التي كانت تفرض نفسها عليه وخاض في سنوات حكمه الأولى معارك عديدة ومختلفة ضد زعماء المناطق الممتدة إلى الجنوب والشرق ضمنهم الملك موتو. قال لمجلسه:

- أقدر حماسكم ولكني أحذر من الاندفاع وأوصيكم دائماً بأن تضعوا نصب أعينكم أننا لا نخوض الحروب لظلم أحد إنما لفرض السلام وتأمين التجارة، وعلينا أولاً أن نعرف من هو عدونا موتو وقوته لنتعامل وفقاً للمعلومات لا أن ننساق وراء حماسنا فقط.

لم يكن الملك موتو في ذلك الوقت مطمئناً. فقد أخبروه بأن الذي قتله هو ابن عم الملك الزبير ولابد أنه سينتقم. لذا إتخذ الملك بوتو قراراً بشن حرب على الزبير للقضاء عليه. ومن ثم بدأ يغير على أطراف مملكة الزبير ويسبب إزعاجاً كبيراً له. وصار من ألد خصومه وأعدائه. ولكن الزبير بسابق خبرته وتجاربه فضل التريث وأن يستعد استعداداً كاملاً ليواجه موتو ويقضي عليه. ولم يترك الزبير رجاله كثيراً ليكتووا بنيران غلهم وحماسهم إذ خرج عليهم ذات يوم بلباسه الحربي معلناً الحرب على الملك موتو.

بدأ الزبير يقود جيشه نحو مملكة أنداقو وملكها موتو. وكان الجيش يمتلئ حماسة وقوة وبدا يأخذ شكلا نظاميا بفضل خبرات قياداته أمثال رابح والنور عنقرة وأبو قرجة. ورغم عظمة موتو وقوة أفراده إلا أنه لم يصمد كثيراً أمام الزبير وجيشه. لتنجلي المعارك عن هزيمة نكراء لموتو وتفرق أتباعه

أيـدي سـبأ وآثـر موتـو الهـرب والنجـاة بحياتـه. وأبـدت الممالـك التـي كانـت تجـاور مملكـة أنداقـو إعجابهـا بقـوة الزبـير وجيشـه المنظـم والمـزود بالأسـلحة الناريـة. وبلـغ بهـم الإعجـاب حـداً جعلهـم ينضمـون للزبـير ضاربـين بعـرض الحائـط منـاداة موتـو لمسـاعدته ونجدتـه وتركـوه لمصـيره هاربـاً ولاجئـاً دون نصـير. وحتـى أتباعـه تخلـو عنـه ورفضـوا أن يكـون ملـكاً عليهـم فظـل يتنقـل مـن زعيـم إلى آخـر دون أن يسـتدر رحمـة أو شـفقة أي أحـد منهـم ودون أن يقبـل أي منهـم إخفـاءه عنـده مـن الزبـير. قـال عبـد الرحمـن للزبـير:

- دعني أبحث عن موتو وسآتيك به وفي رقبته شِعبة.

- لا يـا ابـن عمـي. نحـن لا نحـارب أو نطـارد الضعفـاء. إن الانتقـام ليـس مـن شـيمي وهمـي فتـح طـرق آمنـة وأسـواق يعمهـا الرخـاء.

عندمـا اسـتتب الأمـر للزبـير في مملكـة أنداقـو ومـا جاورهـا مـن ممالـك وأضحـت امتـداداً لمملكتـه التـي اتخـذ لهـا مندقبـا عاصمـة. فاجـأ الملـك المهـزوم موتـو الجميـع وجـاء للزبـير وحالـه كحـال النابغـة الذبيـاني حينـما قـال:

فإنك كالليل الذي هو مـدركـي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع..!

جاء موتو مصطحبا ولديه وأخوه مستكيناً فقال له الزبير:

- هل الذي أراه أمامي هو موتو؟

- نعم وهذا أخي وهذين ولداي.

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- لقـد أصبحـت بـلادي كلهـا في قبضـة الآخريـن وأصبحـت مـشرداً بعـد أن كنـت ملـكاً عظيـماً. المـوت أهـون عنـدي مـن أن أعيـش مـشرداً.

- هل تعلم سبب ذلك يا موتو.

- إنها الحرب يا سيدي.
- ولم تأتي هكذا وتدخل معسكري أعزل ودون حراس؟
- إني أعلم ما أصنع ولديّ لذلك أسباب يا سيدي. إذ لم أجد من بين أصدقائي جميعاً من يقبلني لقد كانوا أصدقائي فقط حينما كنت ملكاً عظيماً والآن يتجنبونني وكأني حيوان أجرب هكذا فعلت بي الحرب.
- ولكن أنت الذي افتعلتها بغرورك وظلمك.. لقد ضايقتني وآذيتني وأعلنت علي الحرب وقبلها قتلت ابن عمي ورفاقه أليس كذلك؟
طأطأ موتو رأسه وقال:
- نعم وكانت هذه ذنوب اقترفتها وأطلب صفحك وعفوك وإلا فأنا راض بالموت أو أن تفعل بي وبمن معي ما تشاء ويمكنك أن تسترقنا.
نظر إليه الزبير تلك النظرة الحليمة التي عرفها عنه كل أعدائه.. نظرة العفو عند المقدرة وقال له:
- موتو إنك ملك عظيم ولست عبداً ولن أعمد مطلقاً إلى ما يشينك أو ما لا يليق بك.
رفع موتو حاجبه دهشة وأراد أن يقترب من الزبير ولكن إشارة حاسمة من الزبير أوقفته في مكانه ثم التفت إلى أقرب مساعديه وقال له:
- خذ موتو ومن معه إلى خيمة. وعاملوا موتو معاملة الملوك ومدوه بالطعام والملابس وأعيدوه لي في الصباح.
في خيمته أخذ موتو يسترجع أحاديث الزبير معه ثم يقول لمن معه وهو يرفل في ثياب جديدة ويستمتع بأطعمة شهية:
- يا له من رجل عظيم. ياله من ملك حقيقي عادل ومسامح وكريم.

في صباح اليوم التالي مثل موتو بين يدي الزبير قال له:
- أنـا لسـت بالرجـل المنتقـم. ومـا جـرى يقـوم في نفـسي مقـام الثـأر. وأشـعر الآن بأنـه يمكـن أن أصافحـك فقـد عفـوت عنـك بالفعـل.
هرع موتو وقبل يدي الزبير جاثياً فقال له:
- لا تفعل هذا ثانية فأنت ملك.
- لا لم أعد ملكاً بل واحدا من رعاياك.
- ولكنـي قـررت أن تكـون ملـكاً عـلى بـلادك وتعـود عظيـماً في عيـون قومـك.
- يـا إلهـي. هـل يمكـن. هـذا هـل هـذا صحيـح يـا سـيدي أم أننـي في حلـم جميل؟.
- سـيتحقق حلمـك الجميـل يـا موتـو فقـط إذا التزمـت بالـشروط التـي سـأمليها عليـك.
- كل ما ستقوله يا سيدي سأنفذه تماماً.
- أولا عليـك أن تحكـم قومـك بالحكمـة والعـدل والحـق. وألا يكـون حكمـك لقومـك بأسـنة الحـراب. ثانيـاً أن تحافـظ عـلى سـلامة الطـرق حتـى تكـون سـالكة وآمنـة للمسـافرين. وثالثـاً أن تعلـم قومـك الزراعـة والتجـارة. وبعـد مـضي ثـلاث سـنوات عليـك أن تبـدأ في دفـع الجزيـة لي حنطـة.
كان من عادة الزبير أن يمنح كل من يخضعهم في حروبه ومناوشاته الصغيرة فترة ثلاث سنوات يستعيدوا فيها تطبيع أحوالهم قبل أن يفرض عليهم أية جزية.
خـرج موتـو مـن عنـد الزبـير ملتزمـاً بكافـة شروطـه وظـل يحكـم قومـه وفقـاً لأسـس العدالـة والحكمـة طليـة ثـماني سـنوات إلى أن توفـاه الله.

(٢٠)

عـرف الكثـيرون بعـد ذلـك أن الزبـير يسـعى دومـاً لأن يكـون محبوبـاً لـدى الأهـالي وأن يحيـط نفسـه بقـرى مزدهـرة مـن حولـه يسـتطيع أن يتاجـر معهـا عـلى أسـاس المصلحـة المشـتركة. بـدل أن يواجـه بأنـاس مسـحوقين ومحرومـين ومهزومـين وربـما يدفـع بهـم الكـرب والفاقـة والعـوز لإقلاقـه بتجريـد حمـلات وغـارات دائمـة عليـه. تـرك الزبـير تلك المناحـي وعـاد بجيشـه إلى مندقبـا. واسـتقبل البطـل هنـاك بأشـياء مختلفـة. فقـد صدحـت الموسـيقى عـن طريـق الطبـول وكل الآلات الموسـيقية التقليديـة. ولمـا رأى مـا تفعلـه تلـك الموسـيقى في الأنفـس والوجـدان أنشـأ في جيشـه فرقـة الموسـيقى العسـكرية وأسـماها فرقـة (الزنقـران) وبعـد أن جلـب لهـا الآلات النحاسـية وبـدأت فرقـة الزنقـران تعنـى بتطويـر المعزوفـات والنغـمات الشـعبية التـي تجسـد الإرث القبـلي لمختلـف الإثنيـات التـي تشـكل الجيـش مـن أفرادهـا. إنـه الجيـش الـذي أطلـق عليـه اسـم جيـش (البازنقـر) الـذي أخـذ يسـتخدم الألعـاب الناريـة ويطلقهـا أثنـاء احتفالاتـه بالانتصـارات التـي يحققهـا حتـى أن الضابـط الإيطـالي «رومولـو جيسي» صنيعـة غـردون باشـا تحـدث عـن كيـف قـضى إحـدى الليـالي مسـهداً حزينـاً وهـو يسـتمع إلى موسـيقى النـصر ويـرى الألعـاب الناريـة التـي تعـزف وتطلـق مـن داخـل معسـكر جيـش سـليمان الزبـير يـوم انتـصر عليـه.

عقـب عودتـه الظافـرة بجيشـه البازنقـر لمندقبـا لاحـظ الزبـير حزنـاً عـلى وجـه زوجتـه رانبـوه فسـألها عـن السـبب فقالـت لـه:

- والـدي الملـك تكمـة لم يعـد يرسـل لي هدايـاه. فقـد كانـت هدايـاه تخـبرني أنـه بخـير. ابنتـك وحفيدتـه آمنـة تشـتاق لجدهـا الملـك تكمة.ابعثنـا إليـه يـا ملكـي ومالكـي.

صمت الزبير فأعادت رانبوه طلبها بشكل مختلف:

- لا تؤجل زيارتي لوالدي فإن مرت شهور أخرى لن أستطيع السير. فأنا حامل يا سيدي.

- إذا فلنحمل هدايا لوالدك ونزوره سوياً في موكب مهيب.

- أعلم أنك سترضيني ولكني لا أعلم كيف أكافئك.

تحرك موكب الزبير إلى بلاد النيام نيام وهو يحمل الهدايا وضمنها حمار. وهو حيوان لا تعرفه تلك البلاد. وعندما رأى الملك تكمة ذلك الحمار تعجب وظن أنه رجل (مسخوت)..!

خُصص للزبير مكان في دار الملك تكمة. حيث ركن الزبير فيه إلى ذكرياته ودفء زوجته رانبوه وابنته آمنة.

كان الملك تكمة في ذلك الوقت قد قويت شوكته وأمن شر أعدائه وصار ملكه أعظم وهو يحتفي بمقدم ابنته وصهره الزبير. ليجيء بعد ذلك أحد كهنته ويهمس له:

- إن لم تقض على الزبير الآن فإنه سيستولى على بلادك ويضمها إلى ملكه كما فعل مع الآخرين..!

كان وجه كبير الكهنة مخيفاً وهو يحدث الملك تكمة. وقد كان (تاكنو) هذا الكاهن من القلائل الذين يصغي إليهم تكمة باهتمام بل ينفذ ما يمليه عليه ويصدق رؤاه. وكانوا يسمونه وأمثاله (الكجر) أو (الكجور) وهم طبقة متفوقة في ذلك المجتمع ومحترمة من قبل الحاكم والمحكومين. فهو ممثل المعبود والقريب منه أيا كان ثعباناً كان أم دجاجة أو شجرة وخلافه. وهم من يباركون الزيجات ويأمرون بالطلاق. وقد امتد نفوذهم حتى إلى الذين أسلموا على يد الزبير. وكانت هذه من الأمور التي كانت تقلق الزبير. عرف الكجر كسحرة وأدباء وشعراء وكان الملوك يضمونهم لمجالسهم ويقربونهم ويغدقون عليهم إغداقاً كبيراً ليدفعوا عنهم الشر ويجلبوا لهم الخير بوساطتهم الروحية. ومن العجيب أن جثة الكجور في بلاد النيام نيام كانت تثير منافسة شرسة

على أكلها رغم أن الزبير قد أصاب عادة أكل لحوم البشر في تلك الأنحاء في مقتل. أضاف الكاهن تاكنو للملك تكمة قوله:
- منعتك من قبل من إرسال الهدايا لابنتك رانبوه زوجة الزبير وحسناً فعلت يا جلالة الملك وقد صدقت نبوءتي بأن عدم إرسال تلك الهدايا سيعيد إليك ابنتك وحفيدتك الحبيبة. وها هو الزبير قد أتى معهما فاقتله واذهب واستول على مملكته. إنها مملكة ممتدة وثرية. مليئة بالبضائع.. وعندها ستكون أعظم ملك وسيهابك الجميع خاصة عندما يرون غنائمك من أسلحة الزبير ورجاله ولا تتأخر في هذا الأمر.
قبل أن يترك الكاهن تانكو الملك تكمة لخواطره كان طريقه قد امتلأ بالهدايا والعطايا. وبأمر مباغت دعا تكمة قواده ليجتمعوا لديه. وبينهم كان أهمهم عمه (مغبوه) فأخطرهم برؤية كبير الكهنة تاكنو فأقرها الجميع ووضعوا خطة لقتل الزبير:
- إنه يصلي الفجر خارج مخدع رانبوه ويؤم وفده والمسلمين من قومنا. وهذه سانحة لنقتلهم جميعا.
قال مغبوه:
- بعد ذلك يا جلالة الملك علينا أن نجرد جيشاً كبيراً ونزحف به صوب مملكته. وأنا موقن أن جيشه سينهار بمجرد سماعهم خبر مقتل ملكهم وقائدهم الزبير.
ابتسم الملك تكمة وقد وقر الغدر في نفسه تماماً وقال:
- إذا هيا أيها الشجعان وهلموا إليّ صباحاً بالأخبار السارة.
أحد القواد سار إلى داره وهناك طلب من زوجته (أساروا)أن تعد له أدوات القتال فقالت له:
- إلى أين أنتم ذاهبون وإلى قتال من؟
- سنقتل الزبير فجراً وسنغير على مملكته ونستولى عليهاهكذا أمرنا الملك تكمة وهو فرح برؤى الكاهن تاكنو.

(٢١)

صمتت الزوجة وتناومت فنام زوجهاوعندما نهضت وفي أعماقها مودتها وصداقتها لرانبوه وهي تعلم أي حب تكنه للزبير قالت لنفسها:

- يا إلهيصديقتي ستفجع كثيراً بموت زوجها الحبيب لابد أن أذهب إليها الآن.

تخلصت أساروا بهدوء من جوار زوجها وتسللت إلى خارج دارها وامتطت ظلام تلك الليلة في حذر وخوف إلى أن أدركت مقر صديقتها رانبوهواقتربت من المخدع وهي تنادي بصوت خفيض:

- رانبوه رانبوهأريدك لأمر مهمأنا صديقتك أساروا.

- إنك تأتيني في وقت غير ملائمكيف سأنزع نفسي الآن..؟!ولكن لا بأس سأستقبلك فأنت صديقتي وعلى حبيبي الزبير أن ينتظر قليلا..!

- تعجلي يا رانبوه.

- سآتي حالا.

عندما أخبرت أساروا صديقتها رانبوه بتفاصيل المؤامرة ضد زوجها الزبير بدت غير مصدقة:

- لا لاوالدي يحب الزبير ولا يمكن أن يقدم على قتله.

- صدقيني يا رانبوههذا ما سيحدث فجراً سيقتلونه واقفاً أو ساجداً مع رفاقه في الصلاة إنها أوامر الكاهن تاكنو.

عندها صدقتها رانبوه وقالت لها:

- قاتل الله أولئك الكهنة الأوغاد وشكراً يا أساروإنك صديقة رائعةمع السلامة اذهبي لزوجك قبل أن يفتقدك.

عادت رانبوه للزبير وأخبرته بما نقلته لها أساورا ونصحته

بالرحيـل فـوراً:
- إرحل فورا يا حبيبي لن أعيش إن رأيت دماءك تسيل.
- لم أتعـود الهـرب يـا حبيبتيسـأدافع عـن نفـسي وأقاتلهـم بمـن معـي مـن الرجـال.
- عهدتـك حكيـماً دائـما يـا حبيبيرجـال والـدي في غايـة الكثـرة والرجـال الذيـن معـك قليلونإنهـا حـرب وأنـت أعلـم النـاس بـأن الحـرب كـر وفـر اسـمع نصيحتـي وارحـل قبـل الفجـر.
- إذا سترحلين معي وابنتنا.
- لا يـا حبيبـي أتركنـا هنـا فذهابنـا معـك سـيعيق رحيلـك وسـيفضحنيعندها سـيعتقد أبي أننـي قـد نصحتـك بالرحيلدعنـي الآن أذهـب إلى رجالـك في الجـوار وأنقـل لهـم أمـرك بالاسـتعداد للرحيـل فـوراً.
بعد أدائها للمهمة عادت رانبوه للزبير وقالت له:
- هيا تعجل يا الزبير رجالك في انتظارك.
- ادني مني لأودعك.
- لا يـا حبيبيأعلـم أنـك سـتعود لي ذات يوم وسأسـتقبلك بمشـاعر مختلفةبالمشـاعر التـي تعودنـا عليهـاوالآن اصفعنـي يـا حبيبـي صفعـة داميـة..!
- ماذا تقولين؟
- قلت لك اصفعني الآنفخلف صفعتك يختبئ أمني وأماني.
فهـم الزبـير قصدهـا فصفعهـا عـلى وجههـا صفعـة قويـة فسـقطت دون صراخ والـدم يسـيل مـن بـين أسـنانها البيضاءوخـرج ولحـق برجالـه في ليلـة ظلـماء غـاب عنهـا القمـر. عندمـا أذن الزمـان لفجـر يـوم جديـد بالانبثـاق لم يجـد رجـال الملـك تكمـة المسـلحون الزبـير ورجالـه في موضـع الصلاةفاقتحم بعضهـم مخدعـه بحثـاً عنـه فوجـدوا رانبـوه سـاقطة عـلى الأرض

والدماء متجمدة فوق شفتيهاوعلى صدرها تبكي طفلتها آمنة.
حملوهما للملك فسألها:
- من الذي فعل بك هذا؟
- إنه الزبير يا والدي ولا أدري السبب. أين هو؟
- لا أدري لا بد أنه قد هرب. ولكني سألحقه وأحاربه وأهزمه وأحتل مملكته.

في ذلك الوقت كان الزبير ورجاله قد أوغلوا بعيداً صوب ماندقبا وصاروا عصيين على اللحاق. وهناك صدم الجميع بغدر الملك تكمة لصهره الزبير الذي ناصره وهزم له أعداءه وساعده في توطيد أركان ملكه.

(٢٢)

بدأ الملك تكمة يرسل الرسل للزبير وهم يحملون رسائل تهديدية تقول: عليك يا الزبير أن تعود تاجراً وتترك الملك لي فأنا لن أسمح لك بتأسيس مملكة بجوار مملكتي. وما كنت سأرسل لك لولا ما بيننا من مصاهرة عليه عد تاجرا وإلا انتزعت منك الملك بالقوة. قال الزبير لرسل تكمة:

- قولو لمليككم الزبير يقول لك لن أتنازل عن ملك أسسته بحد السيف نزولاً على تهديد منكوعليه إن أراد أن يجرب قوته معي. ما أن سمع تكمة رد الزبير حتى جرد جيوشاً لا يحصى لها عد تحت قيادته وقيادة عمه مغبوهلتبدأ حرب طويلة ذات وقائع عنيفة بين الطرفين انتهت بعد عام كامل بمقتل الملك تكمة وعمه مغبوهفدانت ممالك كافة النيام نيام لسلطان الزبيروقد كان ملوكهم في حروب مستمرة ضد بعضهم البعضبل كانوا يصيدون بعضهم صيد الطيرفأخذ الزبير يؤلف بينهم ويقبح أفعالهم ويبسط الأمن بين ربوعهم فصاروا يتعاملون بالبيع والشراء ويتصاهرون.

وفي الديار التي انتصر فيها الزبير التقى زوجته رانبوه فقالت له وهي تستقبله بالبشر والترحاب وابنتها آمنة تقبض على مرطها:

- ألم أقل لك إنك ستأتيني ذات يوم وسأستقبلك بمشاعر مختلفة بالمشاعر التي تعودنا عليهافرحتي بك تساوي أضعاف أضعاف حزني على أبيفأنت ملكي ومالكي ولن أرضى بسواك لي أباً.

لم تنتقص من مشاعر فرحة الزبير بنصره سوى تلك الأخبار التي تواترت بعزم المدعو الحاج محمد البلالي احتلال بحر الغزال وهو يحمل فرماناً من الحكومة بتسميته مديراً على بحر الغزال..!



الفصل الرابع

الزبير يقتل البلالي ويهزم سلاطين دار فور
ويأمر بإعدام عبد الله التعايشي

(١)

لم يكـن الزبـير في قـرارة نفسـه يطمـح في مُلـكٍ أو سـلطانٍ، ولكنـه كان تاجـراً اسـتثنائياً، فشـاءت الأقـدار أن يـمارس تجارتـه في مناطـق مجهولـة وموغلـة في البـداوة، تحفهـا المخاطـر ويلزمهـا الدهـاء السـياسي والحكمـة، فصـارت تجارتـه وسـلطانه كوجهـين لعملـة واحـدة، وكان لا بُـدَّ لـه أن يفتـح الطـرق، وأن يعلِّـم النـاس خاصةً أن في قلبـه عقيـدة، وفي ذهنـه فكـر، وكان مـن الطبيعـي أن يصحـب فتـح الطـرق إصـلاحٌ آخـر، وهـو اسـتحداث مؤسسـة منظمـة لإقامـة العـدل لتحـل في بعـض جوانبهـا مـكان فـوضى الأخـذ بالثـأر الفـردي، الـذي كان شـائعاً بـين الأهـالي. فقـد كان كل رجـل يثـأر لنفسـه ويأخـذ ثـأره بيديـه، وكان لا بُـدَّ لمشروعـه الفكـري والحضـاري أن يسـتمر بترغيـب الأهـالي في الإسـلام والأخـذ بيدهـم نحـو التمديـن والتحـضر بالاتجـار والزراعـة والتعمـير، وكانـت نفسـه تحمـل الـولاء للخلافـة الإسـلامية بحكـم عقيدتـه وثقافتـه، وهـو يعلـم أن ولايـة مـصر هـي التـي تخلـف وتنـوب عن البـاب العـالي، وأن حاكـم السـودان في ذلـك الوقـت جعفـر باشـا مظهـر هـو مـن ينـوب عـن خديـوي مـصر والخلافـة الإسـلامية، وعندمـا تواتـرت لديـه تلـك الأخبـار بعـزم المدعـو الحـاج محمـد البـلالي احتـلال بحـر الغـزال وهـو يحمـل فرمانـاً مـن الحكومـة بتسـميته مديـراً عـلى بحـر الغـزال، بـدأ يفكـر في الأمـر ويقلبـه ويقيسـه عـلى عقيدتـه ومبادئـه عـلى ضـوء انتصاراتـه وسـلطانه. مـا تلقـاه الزبـير مـن معلومـات عـن البـلالي أقلقتـه، فهـو رجـل مـن متخلفـي حجـاج الغـرب، اسـتعمل الحيلـة في إقنـاع الحاكـم جعفـر باشـا مظهـر ليـأذن لـه باحتـلال وضـم بحـر الغـزال، بالتزامـن مـع

قـرار الخديوي إسماعيل باشا بانتداب اليهودي البريطاني صموئيل بيكر بمأمورية فتح خـط الاستواء، وهـي الحملـة التـي صُرفت فيها ملايين الجنيهات، إضافة لراتب صموئيل بيكر الذي كان يصل إلى عـشرة آلاف جنيه سنوياً، وهو راتب خرافي في ذلك الوقت الـذي كانـت فيـه مـصر تعـاني ثقـل الديـون، فأصـاب طلـب البـلالي هـوًى في نفـس جعفـر باشـا، فقـد كان بالفعـل يرغـب في السيطرة على بحر الغزال وضمها لنفوذ الحكومة، غـير أن البـلالي كانـت لـه طموحـات شـخصية، وأنـه عندمـا بـدأ حملتـه دس السـم لقائـد القـوات المرسـلة لـه مـن قبـل الحكومـة المصريـة لمسـاعدته في ضـم بحـر الغـزال، وبـات معروفـاً أن القائـد «كرشـك» قـد مـات مـن أثـر ذلـك السـم، فقـد كان البـلالي لا يثـق فيـه، وعـده عائقـاً يحـول بينـه وبـين طموحاتـه الشـخصية، ومنهـا ادعـاء المهديـة بعـد أن يسـتتب لـه الأمـر، لـذا بـدا الزبـير حـذراً مـن شـخص يتسـم بالغـدر وهـو يقـرر لقـاءه ليسـتفسره عـن أمـره، وبالفعـل التقـاه بمـشرع الـرق فأوقفـه عـلى أمـر الحاكـم بضـم دارفـور مـروراً ببحـر الغـزال.

(٢)

عـاد الزبـير لمندقبـا واسـتقبل البـلالي هنـاك هـو وجيشـه ولعـام كامـل اسـتضافه، غـير أن نوايـا البـلالي الحقيقيـة اسـتبانت، فبعـد أن نجـح في تجنيـد ألفـي رجـل بـدأ في احتـلال محطـات التجـار وأسرهـم ومعاملـة الأهـالي بقسـوة بالغـة. عـرف الزبـير أن البـلالي قـد قـرر أن يقـوم بإشـهار مهديتـه، وأن يشـن هجومـاً عـلى مندقبـا ويقتلـه ويسـتولى عـلى الحكـم فيهـا بـدلاً عنـه، وقـد بلـغ الأسـى بالزبـير مـداه والبـلالي يسـتولى عـلى محطـات التجـار، ويغنـم كل مـا فيهـا مـن بضائـع ويـأسر التجـار ويكبلهـم بالسلاسـل والأغـلال، ويقتحـم حرمـات النسـاء. بـدأ البـلالي يعـود إلى مندقبـا بعـد حملاتـه القاسـية، حيـث توجـد الثكنـات التـي أعدهـا لـه الزبـير واسـتضافه فيهـا، ولكـن عودتـه لم تكـن حميـدة، وهـذا مـا انتبـه لـه الزبـير، فقـد سـار البـلالي نحـو مندقبـا مقسـماً جيشـه إلى قسـمين بغـرض تطويـق المدينـة، وكان رجـال الزبـير وقـواد جيشـه البازنقـر البواسـل يتحرقـون شـوقاً للمبـادرة، فلـم يخذلهـم الزبـير أبـداً، فامتطـى فرسـه وبـدأ البـلالي وجيشـه يطلقـون الرصـاص، هـي حـرب أخـرى فُرضـت عـلى الزبـير، فصـاح هلمُّـوا يـا رجاليـا رابـح يـا عنقـرة يـا حامـد وإخوانكـم، دعونـا نلقـن درسـنا لهـذا الخائـن الغـدار، وبـدأ جيـش الزبـير في الـرد واسـتعر القتـال بشـدة وضراوة ليبـدأ بعدهـا الالتحـام والاشـتباك، وتداخلـت صفـوف المقاتلـين وكان الزبـير يعـرف مـا يريـد، فبـدأت عينـاه تبحثـان عـن البـلالي إلى أن وقعتـا عليـه، عندهـا وجـف قلـب الخائـن فاسـتعان برجلـين مـن رجالـه لحمايتـه مـن الزبـير، ولكـن الزبـير تمكـن منهـما وأرداهمـا قتيلـين، ووضـح لـه الهـدف ولم يكـن أمـام البـلالي سـوى

الهـرب، فاسـتحث حصانـه ليغـادر أرض المعركـة التـي هُـزم فيهـا، ولكـن أيـن المفـر والزبـير عـلى فرسـه يطـارده حتـى أدركـه بجـوار مسـتنقع صغـير، فتخـيَّر فيـه موضـع الخـوف والرعـب، فسـقط في ذلـك المسـتنقع متخبطـاً في دمائـه، وأظلمـت الدنيـا في وجهـه قبـل أن يتحـشرج ويسـلم الـروح.

(٣)

صدحت الموسيقى وأهازيج النصر من جديد في مدينة مندقبا، وأخذ الشعراء يمجدون الزبير وقواده وجيشه المنتصر، وقال شاعره أبوشورة:

دقنك دقن الرجال ما هي الدقينة أم طوطة
في اليوم أب حرب سنك تفرها مبسوطة
بوارق عنقرة وحامد وراك مفروطة
سكيت البلالي لامن وقع في البوطة

النصر لم يكتمل في نظر الزبير إلا بعد أن أطلق سراح أسرى البلالي، وأعاد للتجار ما سلبه منهم، فعاد التجار والأسرى من الأهالي إلى ديارهم، وذاع أمر هذا النصر وانتشر في أقاصي السودان، ووُصف الزبير بالملك العادل والمنصف، وبدأت الناس تفد إليه من كل الجهات في عاصمته التي عُرفت فيما بعد بديم زبير، إما للانضمام لجيشه أو للاتجار في بلاده التي شملت كل بحر الغزال، وبات ملكاً عظيماً، وحاكماً مطلقاً على كل بحر الغزال، ورغم ذلك أرسل الزبير رسالة لجعفر باشا مظهر حكمدار السودان، موضحاً له ملابسات حربه ومقتله للبلالي، فأوفد له جعفر لجنة تقصت الحقائق وأفادت وأكدت بوضوح أن الزبير لو اتخذ أي إجراء أو تصرف مخالف لما قام به، لعمّت الفوضى. وكنتيجة لرأي هذه اللجنة قدمت الحكومة شكرها للزبير ودفعت له كافة التكاليف والمنصرفات

التي تكبدها، وهو يعيل قوات البلالي لعام كامل، وأمرت أن يكون جنود البلالي تحت إمرة الزبير وقيادته، وأن يتم تعيين الزبير حاكماً على مديرية النيل الأبيض وبحر الغزال، وبهذا اكتسب الزبير السلطة الشرعية المستمدة من الخلافة الإسلامية، بعد أن أسس ملكه بالسِنان والحكمة، وانتهاج سياسة السلم والعدالة. بدأ الزبير يستأنف إجراءاته الإصلاحية في بلاده التي تملكها بوسائل شتى، آخرها الشرعية المستمدة من الخلافة الإسلامية، وبدا ملكاً مهاباً، وحكيماً عادلاً ورحيماً، وتضخم جيشه جيش البازنقر وصار مدرباً ومسلحاً تسليحاً حديثاً. وكوَّن مجالسه ووزع بينها الاختصاصات الشورية والقضائية والتنفيذية، على أن تحكم جميعها بشرع الله.

(٤)

ذات صباح خرج الزبير إلى مجلسه فقال له أحد القادة:
- ماذا نفعل بهؤلاء يا سيدي الزبير؟

- ماذا تقصد؟

- أعداد كبيرة من السحنات البشرية جاءوا إلى هنا من أماكن متفرقة.

- وماذا يريدون؟

- عدلك وكرمك.

خرج الزبير مع قائده، فوجد أن بعضاً من جنوده قد التفوا حول بقعة، جلس عليها ما لا يقل عن ستمئة شخص وكأنهم أسرى. أخذ يخاطبهم ويسألهم، فانبرى أحدهم للرد قائلاً:
- نحن يا سيدي الزبير رقيق هربنا من أسيادنا بالكلكلة والتعايشة، بعد أن ساموا سوء العذاب سمعنا بعدلك وحسن معاملتك، ونود الانضمام إليك، ونلتحق بخدمتك في جيشك أو أي خدمة تراها مناسبة.
- مرحباً بكم جميعاً في جيشي جيش البازنقر. أيها القواد صنفوهم واختبروهم وضموهم للجيش، أو الخدمات الأخرى التي تناسبهم.

بعدها جاء أحد القادة للزبير وهو يصطحب

معه شخصين من المنضمين الجدد وهو يقول:
- سيدي الزبير إنهما مميزان وقويان وذكيان يصلحان للقيادة.

- ما اسماهما؟

- حمدان أبوعنجة هذا الذي تراه عن يميني، والذي تراه عن يساري هو الزاكي طمل.

نظر الزبير إلى كل من حمدان أبوعنجة والزاكي طمل نظرة متأملة، فرأى فيهما غير الذي قال: (إن العبيد هم الذين يهربون من الحرية، فإذا طردهم سيد بحثوا عن سيد آخر؛ لأن في نفوسهم حاجة ملحة إلى العبودية؛ لأن لهم حاسة سادسة أو سابعة، حاسة الذُّل، لا بُدَّ لهم من إروائها، فإذا لم يستعبدهم أحد أحست نفوسهم بالظمأ إلى الاستعباد، وتراموا على الأعتاب يتمسحون بها ولا ينتظرون حتى الإشارة من أصبع السيد ليخروا له ساجدين، إنهم لا يدركون بواعث الأحرار للتحرر، فيحسبون التحرر تمرداً، والاستعلاء شذوذاً، والعزة جريمة، ومن ثم يصبون نقمتهم الجامحة على الأحرار المعتزين الذين لا يسيرون في قافلة الرقيق).

(٥)

نظـر إليهـما وطيـف إبراهيـم الدنقـلاوي يقـول لـه: (تطـورت تجـارة الرقيـق في العـالم بحركـة التطـور الطبيعيـة للإنسـان، حيـث بـدأت بتناسـل الأرقـاء فيـما بينهـم، ثـم بالحاجـة المادية لمواجهـة ضرورات الحيـاة، فاضطـر الآبـاء لبيـع الأبنـاء لسـد الرمـق، كـما أن المديـن المعـسر يدفـع مـن أبنائـه أو أسرتـه كبديـل للـمال للدائـن، ثـم جـاء قراصنـة البحـار والـبراري بغزواتهـم والنهب والاسـتيلاء عـلى المسـافرين للاتجـار بهـم كرقيـق، وأفـرزت ظاهـرة الحـروب بـين الشـعوب بعضهـا بعضـاً أسرى حـرب، عوملـوا كرقيـق وتـم الاتجـار بهـم كذلـك كأكـبر مصـدر لتغذيـة تجـارة الرقيـق).

فقـال الزبـير لنفسـه: لا لسـتُ بتاجـر رقيـق، أنـا أشـتريهم لأعتقهـم وينضمـوا إلى ركـب جيـشي، ولـن يجـدوا منـي سـوى المعاملـة الحسـنة، أنـا لسـتُ كأبي عمـوري أو الخائـن محمـد البـلالي. انتبـه الزبـير وهربـت خواطـره عندمـا قـال لـه ذلـك القائـد: سـيدي الزبـير مـاذا تقـول مـا هـي أوامـرك؟ فقـال لـه: عُـد بهـما وإن كانـا يصلحـان للقيـادة - كـما تقـول - فضعهـما في المكان الذي يناسـبهما وهمـا حُـران، وكل مـن لجـأ إليَّ فهـو حـر. صـار بعـد ذلـك حمـدان أبوعنجـة مـن قـادة الوحـدات في جيـش الزبـير البازنقـر، وهـي قيـادة تنسـمها بعـد التدريـب والتـدرج في الرتـب، واشـترك مـع الزبـير في أغلـب حروباتـه وفتوحاتـه، وكذلـك كان الزاكـي طمـل، فوضعـا في ذهـن الزبـير ذكريـات لا تُنسـى. عندمـا غـادر الزبـير إلى مـصر تـرك خلفـه قـادة عظامـاً لعبـوا أدواراً عظيمـة في تاريـخ السـودان وفي التاريـخ الأفريقـي الحديـث، غـير أن بعضهـم واجـه

مصيراً قاسياً، فبعضهم مات بالسم، وبعضهم جُوِّع حتى مات، ومنهم من لقي حتفه بحدِ السيف أو رمياً بالرصاص، منهم قائداه حمدان والزاكي، وقد أحزنه وهو في معتقله ذلك المصير الذي وجده حمدان أبوعنجة عندما مات مسموماً بشربة دسوها له، وكانت أحزان الزبير تتضاعف والأنباء المريعة تطرق مسامعه، بأن الزاكي طمل اعتقله التعايشي ووضعه في غرفة طينية صغيرة أشبه بالقبر، ولم يسمح له بشيء من الطعام حتى أراحه الموت من قسوة معذبيه، الذين كذبوا عندما قالوا إنه هلك في السجن على صفة فظيعة، وحالة شنيعة، وإنه بمجرد خروج روجه اشتعلت النار في جسمه واسود وجهه..! كل هذه الذكريات المحزنة كانت تترافق مع ذلك المشهد الأكثر حزناً وإيلاماً، وجيسي يعدم ابنه الحبيب سليمان ورفاقه رمياً بالرصاص.

(٦)

في سـبيل تفعيـل مشروعـه الحضـاري للحـاق بقطـار المدنيـة، بـدأ الزبـير يفتـح الطـرق للتجـارة ويشـجع عـلى الزراعـة والتعمـير في مملكتـه المتسـعة، وفي سـبيل ذلـك لجـأ إلى عقـد المعاهـدات بينـه وبـين القبائـل، وفـرض النظـام، وقـد نعـم الكثـيرون بسـبب سياسـة الزبـير الحكيمـة التـي ظـل يحكمهـم بهـا. حتـى قبائـل البدويـين شـعرت بالأمـان جـراء الاتفاقيـة التـي عقدهـا ورعاهـا الزبـير، بـأن يمارسـوا تجارتهـم في المـواشي ومنتجـات الألبـان مـع مندقبـا بضـمان حريـة مرورهـم عـبر المناطـق دون عائـق أو اعتـداء، مقابـل رسـوم عـلى تلـك القوافـل حسـب مـا تحمـل تلـك القوافـل مـن سـلع، سـواء أكانـت لـه أو لآخريـن، فـما زال الزبـير يتمسـك رغـم سـلطانه العظيـم بصفـة التاجـر. وافـق الجميـع عـلى هـذه المعاهـدة وباركوهـا وأقسـموا عـلى تنفيذهـا، فشـعروا بحيـاة طبيعيـة آمنـة بعـد مـا كانـت الطـرق بـين مندقبـا وكردفـان تمـور بحـوادث النهـب والسـلب وقطـع الطريـق عـلى القوافـل التجاريـة مـن قبـل المغيريـن، وخاصـةً مـن بعـض قبائـل الرزيقـات الذيـن عقـد الزبـير مـع مشـائخهم حِلفـاً لفتـح طريـق (شـكا) للتجـارة مـع دارفـور برسـم معلـوم، يتقاضونـه منـه، فباتـت التجـارة تنشـط ومضـت القوافـل تواصـل سـيرها، تحمـل السـلع مـن سـوريا وطرابلـس وتونـس ومراكـش.. وطيلـة أربعـة أعـوام وتحـت ظـل تلـك المعاهـدات التـي أبرمهـا الزبـير ورعاهـا، عـاش الجميـع في سـلام وأمـن. كانـت تلـك السـنوات الأربـع هـي سـنوات الاسـتقرار والرخـاء بمملكـة الزبـير، الـذي أدرك أن مصاهـرة القبائـل في مملكتـه تعـود بفوائـد المحبـة والتقديـر، لـذا

عـزم أن يتخـذ لـه زوجـات أُخريـات مـن تلـك القبائـل، وكانـت زوجتـه رانبـوه بنـت تكمـة قـد أهدتـه بنتـاً ثانيـة، وزوجتـه زينـب بنـت منصـور قـد وضعـت أكـبر أبنائهـا، فأطلـق عليـه الزبـير اسـم محمـد الحـارث، قبـل أن تهديـه فيـما بعـد ثـلاث بنـات، وعندمـا نفَّـذ الزبـير عزمـه تـزوج بخمـس مـن بحـر الغـزال، غـير أن الزبـير لم يـترك في عصمتـه إلا مـا حللـه لـه الـشرع، لـذا لم تكـن في عصمتـه أكثـر مـن أربـع زوجـات في وقـت واحـد، رغـم أنـه تـزوج في حياتـه اثنتـين وأربعـين زوجـة، خلفـن لـه سـتة وثلاثـين ابنـاً، وسـت وعشريـن بنتـاً.

(٧)

بدأت المتاعب تطل برأسها بعد مرور تلك السنوات الأربع، إذ بدأ عرب الرزيقات في اعتراض القوافل التجارية وقتل التجار وسلب بضائعهم وأموالهم، ناقضين بذلك العهد، ومخلين بالاتفاق، وبدأ التجار الذين يسلمون من تلك الهجمات الغادرة يلجأون للزبير ويشكون حالهم إليه، مطالبين بقهر أولئك البغاة وإلزامهم بما وافقوا عليه من عهد، فأدرك الزبير خطورة الأمر، وإن ترك أولئك البغاة دون كابح يعني تدمير التجارة وهدم كل ما بناه من أُسس الاستقرار والأمن والسلام، وبما أن الزبير يعلم أنهم خارج سلطته الإقليمية ويتبعون في ذلك لسلطان الفور السلطان إبراهيم ابن السلطان حسين، رأى أن الحكمة تستدعي مكاتبته، فأرسل بأمرهم كتاباً للسلطان إبراهيم، فيه ما فيه من التبجيل والاحترام والمنطق.

قال الزبير في كتابه للسلطان إبراهيم: إلى حضرة أمير الأمراء الكرام، مولانا السلطان إبراهيم ابن السلطان حسين، صاحب العزة والاقتدار والهيبة والفخار، أدام الله علاه آمين. أما بعد فنحن عبيد، أفندينا ولي النعم خديوي مصر المعظم، أتينا منذ عام ١٢٧٠ هجرية لفتح بلاد العبيد، فدانت لنا بلاد الفراتيت برمتها، وفتحنا الطريق منها إلى كردفان عن طريق شكا، فتعهد بحفظه مشائخ الرزيقات نظير جعل معلوم وضعناه لهم على التجار. ولكن لم يكن إلا اليسير حتى نكث الرزيقات العهد وربطوا الطريق وأباحوا دماء المسلمين وأموالهم، بدون وجه شرعي، وقد نهيناهم عن ذلك مراراً فلم ينتهوا، بل كانوا

يتفاخـرون بقوتهـم وخيولهـم العربيـة وأسـلحتهم الناريـة وقتلهـم للمقـدوم عبـد العزيـز أبي أحمـد شـطة وآدم طربـوش أبي الوزيـر بخيـت، وغيرهمـا مـن الفرسـان التابعـين لدولتكـم الفوراويـة، فأوجـب الله تعـالى علينـا حربهـم بدليـل قولـه: ﴿..فَقَاتِلُـوا الَّتِـي تَبْغِـي حَتَّـى تَفِـيءَ إِلَى أَمْـرِ اللَّهِ..﴾. ونحـن نتقـدم إليكـم بهـذا الكتـاب واثقـين أنكـم متـى علمتَـم حـال هـؤلاء العربـان الطغـاة، الذيـن خرجـوا عـن طاعـة سـلطنتكم منـذ ثلاثـين سـنة ونيـف، تنجدوننـا بسريـة مـن جيشـكم حتـى إذا مـا تـم لنـا إذلالهـم، نعـود فنسـوي الأمـر بيننـا، فإمـا أن تتركوهـم لنـا لنحكمهـم بالقسـط والعـدل، وإمـا أن نتركهـم لكـم فتفتحـوا الطريـق وتقدمـوا لنـا النفقـات التـي نبذلهـا عـلى عسـاكرنا في الحملـة عليهـم، والأمـل الإفـادة سريعـاً في حفـظ الله آمـين.

(٨)

لم يتلقَ الزبير بك رداً من السلطان حسين، ولا تزال غرائز البدو المتخلفة لا تطيق منظر القوافل الكثيرة التي كانت تمر، فتمادوا في مهاجمتها وسلبها وقتل عدد كبير من الرجال الذين يرافقونها، فأوفد الزبير مبعوثاً يذكرهم المعاهدة التي تواضعوا عليها، وكيف أنه أوفى بالتزاماته التي فرضتها عليه تلك المعاهدة، وكيف أنهم جنوا فوائدها وثمارها، رسماً وتجارةً وسلاماً، وبعد كل هذا تقتلون وتسرقون وتسلبون القادمين إليَّ؟

عاد الموفود خائباً فقد قالوا له: لقد ضقنا ذرعاً بهذه الاتفاقية ولم تعد تناسب عاداتنا، وهي غير لائقة بأمة محاربة يريد الزبير جرها للاتجار بالسمن والزبدة.

لم ييأس الزبير وعاد إلى التفاوض معهم من جديد، وذكرهم بقسمهم، وأنه قسمٌ لو تدرون عظيم، فقالوا ذلك أمر عفا عليه الزمان، ومع ذلك نجح الزبير في تجديد المعاهدة معهم، معلناً زيادة الرسم والعفو عن الذين سبق أن هاجموا القوافل، ولكن وبعد فترة قصيرة عاد البدو وخالفوا المعاهدة من جديد، عندما بدأوا مجدداً في مهاجمة القبائل، ورغم غضب الزبير إلا أنه آثر أن يخاطبهم من جديد آملاً أن يثوبوا إلى رشدهم، فبرز من بينهم رجل يدعى بريمة ناهضاً عنهم لمقابلة الزبير، وقد كان رجلاً حاد الذكاء، وحكيماً مؤمناً بالاتفاقية وفوائدها. التقاه الزبير وأبدى استعداده للدخول مع قومه في معاهدة

جديدة، موضحاً أن الطرق الآمنة مفتاح الرخاء، وأن قفلها أو الاعتداء على أصحاب القوافل التجارية التي تمر عليها مدعاة للحرب والقتال.

فهم بريمة رسالة الزبير وبات مقتنعاً بفحواها، وقبل أن يحملها إلى قومه أراد الزبير أن يختبر قوته، فحمله ستمئة قطعة من العاج ليمررها بسلام، فعاد بريمة بالعاج لقومه وعقد معهم مجلساً وفيه قال: إن الزبير والتجار جعلوا لنا جُعلاً معلوماً يصلنا في توقيته وميعاده، وبتنا بموجب الاتفاقية نمارس التجارة مع مندقبا في سلام، وإذا تمادينا في نهب القوافل التجارية فسوف ينقطع ركبها، ولن نراهم مجدداً، وبذلك نخسر جُعلنا المضمون مع الزبير، ولن تجدوا شيئاً تسلبونه، كما سنخسر تجارتنا الآمنة.

استمر بريمة في مدح الاتفاقية معدداً مزاياها، فلم يصبر عليه المجلس وقال له أحد فيه:

– لماذا نقوم دائماً بتنفيذ ما يريده هذا الرجل، فهو يدفع لنا مبلغاً صغيراً من المال، بينما إذا قمنا بسرقة القوافل فإننا سنحصل على كل شيء؟

رد عليه بريمة قائلاً:

– ولكنكم بعد قليل لن تجدوا ما تسرقونه، والزبير لن يترككم آمنين، فهو تاجر ولن يسمح لأحد أن يمس مصالحه التجارية.

أحد الغاضبين في المجلس قال لبريمة:

- إن كنت صديقاً للزبير، فاذهب وعش معه.

حديث الرجل أثار من في المجلس، فهبوا واستولوا على ما مع بريمة من عاج وهم يقولون:

- إن هذا الرجل ذو قوة عظيمة، ولن يمر وقت طويل حتى يجيء إلينا ليواجهنا ويفتح بلادنا كما فتح بلاد البنجوس والنيام نيام، وإنه لمن الأصوب أن نهب لقتاله جميعنا الآن.
قرروا بعد ذلك أن يكتبوا للزبير رسالة شديدة اللهجة.

كانت الرسالة التي تلقاها الزبير من البدو، رغم ما فيها من تحدٍ ورفض، كانت قصيرة ومختصرة وبتراء ومختومة، قالوا له فيها: لا يدورنَّ بخلدك أبداً أننا سنعود ونعقد معك أي معاهدة أخرى، فإن كانت عندك القوة الكافية فاخرج لقتالنا.

قرأ الزبير الرسالة وأمر أحد مساعديه بإرسال كاتب من كتاب بلاطه، وعندما وصل الكاتب أملاه الزبير رسالة إلى أولئك المشائخ قال فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

(من بعد السلام الوافر، أقول لكم بأني تلقيت رسالتكم وها هو ردي عليها، وسيحمله لكم رسولكم آمناً مطمئناً، فأنا طالب سلام ولستُ بطالب قتال أو حرب، ولا أرغب في قتال مسلم مثلي وعربي مثلي، أرغب أن أستمر في تجارتي ورعاية رعيتي، وأجدد لكم رغبتي في عقد معاهدة نصونها جميعاً ونرعاها، والسلام ختام)

جـاء الـرد سريعـاً عـلى هـذه الرسـالة، وقـد كان رداً مسـتفزاً وعدائيـاً جـاء فيـه:

(إن كنـت فعـلاً الرجـل القـوي الـذي يتحـدث عنـه النـاس، فعليـك أن تخـرج لقتالنـا وإلا فنحـن ماضـون إلى مهاجمتـك وتدمـير مدينتـك وإزالتهـا مـن الوجـود)

عندها قال الزبير لرسولهم:

- اذهب آمناً رغم أن قومك قد أعلنوا عليَّ الحرب.

(٩)

تذكر الزبير رجلاً كبيراً في السن كان قد حرره من قبضة البلالي يُدعى إدريس أبتر، فاستدعاه فبدا له أهلاً لثقته فقال له:
- حربٌ أخرى فرضوها عليَّ، فعندما أخرج لملاقاة العدو كن وكيلاً لتجارتي هنا.

- حاضر سيدي الزبير. هكذا رد إدريس أبتر.
لم تكن ثقة الزبير التي وضعها في إدريس أبتر في محلها، وهذا ما أثبتته الأيام، ولتلك قصة. وعندما بدأ الزبير يستعد لحرب البدو وصل لمندقبا صبيٌ بينه وبين السادسة عشرة خُطوة أو خطوتان، شفته العليا تتحرق شوقاً ليعتليها شارب، وجهه صارمٌ وحازم، تزدحم في دمائه جينات الفروسية والشجاعة والإقدام، ابتسم الزبير في وجهه ثم سأله:

- هل حفظتَ القرآن؟

- نعم سيدي، وتعلمت الفروسية وركوب الخيل.

عندها استدعى الزبير قائد جيش البازنقر وقال له:

- خذ هذا الفتى يا رابح ولا ترحمه، علمه بقوة وشدة حمل السلاح واستعماله، وحدث بأمره كل القادة ليعجموا عوده ولا يرأفوا به أبداً، ثم سلحوه ليرافقنا في حربنا الوشيكة، الحرب التي لن نتركها حتى نفتح طريق شكا، ونُؤمِّن للقوافل

مســارها وحتــى يُذعــن لنــا هــؤلاء البــدو.

- حــاضر ســيدي الزبــير، ولكــن مــن هــذا الفتــى الــذي يلقــى منــك كل هــذا الاهتــمام؟

- إنه ابني سليمان الحاج الزبير.

(١٠)

بلغت الاستعدادات أقصاها، فالزبير يعلم أن قواته التي تضم أربعة آلاف وخمسمئة مقاتل ستواجه جيشاً يربو مقاتلوه على خمسة عشر ألفاً، غير أنه كان يثق في نفسه ومطمئن أنه غير معتدٍ، وأن شجاعته وشجاعة أفراد جيشه ستقوده للنصر، وبعد أربعة أيام وصل جيش العربان البغاة على خيولهم ممنين أنفسهم بنصر على الزبير، ولكن جيش الزبير الذي عركته التجارب الحربية، وصقله التدريب الجيد، كان قد وضع خُطة جيدة لمجابهة العدو، فقد درَّب الزبير جنوده على إطلاق النيران وهم منبطحون أرضاً.

بموجب خُطة الزبير التكتيكية تم رشق العدو بالنيران، فسقط عدد كبير منهم، ولم يمضِ سوى نصف الساعة حتى أمكن صد العدوان، وأوقف تقدم قواته، فانسحبوا ولكنهم نظموا أنفسهم من جديد وأعادوا هجومهم بكرةٍ أخرى، فتصدى لهم جيش البازنقر فتراجعوا وعادوا مرة ثالثة وتراجعوا، وبحلول المساء استطاعوا أن يطوقوا الزبير وقواته، وأن يحيطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم من جميع الجهات، في شكل بيضاوي، استعداداً لحسم المعركة فجراً، وعندما سارت الليلةً موغلة في ظلامها، تسلل الزبير ورجلان من كبار قواده بهدوءٍ وخفيةً وطافوا حول خطوط العدو، وبعد أن تعرَّفوا على أضعف نقطة في مواقعهم، عادوا وأيقظوا جيشهم وداهموا به العدو قبل أن يبزغ الفجر، فأخذ جيش العدو على حين غرة، وكانت المفاجأة التي لم يتحسب لها العدو، الحرب والقتال

الليـلي، فانهزمـوا ولاذوا بالفـرار، وصـار الزبـير سـيداً للموقـف، ووقعـت في يـد الزبـير الكثـير مـن المغانـم، بينهـا سـتمئة فـرس كانـت بـذرة فرقتـه مـن الخيالـة، غـير أن الحـرب لم تنتـهِ عنـد هـذا الحـد، فقـد استمرت المعـارك لسبعة أشـهرٍ متصلـة، انتهـت بنـصر باهـر للزبـير، فـدان لـه ثلاثـة أربـاع البـدو بالتسـليم والطاعـة، وفـر الربـع الباقـي لائـذاً بسـلطان دارفـور، وأضحـت بـلاد شـكا تحـت سـيطرته، فبـدأ يكتـب صفحـةً جديـدةً مـن صفحـات كتابـه المـليء بالانتصـارات.

(١١)

بـدأ الفـارون مـن جحافـل جيـش البازنقـر فـور وصولهـم إلى سـلطان دارفـور لائذيـن بـه، يتوسـلون لديـه لتبنـي مطالبهـم لمحاربـة الزبـير وطـرده مـن شـكا، غـير أن الزبـير كان زاهـداً في حكـم هـذه المنطقـة، وإن كان يرغـب بشـدة أن يسـودها الأمـن والسـلام، فهـو يعـد نفسـه تاجـراً في المقـام الأول، وهـذا مـا دعـاه لأن يكتـب لحاكـم السـودان الجديـد إسـماعيل باشـا قائـلاً لـه:

- إننـي أحـد رعايـا الدولـة المصريـة، وإننـي قـد أُرغمـت واضطـررت مكرهـاً لقتـال هـؤلاء النـاس، وليـس لـديَّ أيـة رغبـة في تملـك تلـك البـلاد وأخذهـا لنفسـي، فأرسـلوا مديـراً ليحكمهـا، لأن لـديَّ الكثـير جـداً ممـا يشـغلني عـن تـولي القيـام بحكمهـا وإدارتهـا، لكنـي سـأقوم بـكل مـا أسـتطيعه، لأن أسـاعد أي شـخص آخـر تعينونـه، فقـط يجـب المبـادرة بمعالجـة هـذا الأمـر عـلى وجـه السرعـة وحسـمه فـوراً، لأنـه مـن الـضروري أن يتـم ذلـك دون أي تأخـير.

كانـت هـذه الرسـالة تعـبِّر بصـدقٍ عـن أفـكار وآراء الزبـير، فقـد اتسـعت أعمالـه التجاريـة في مندقبـا لدرجـة كبـيرة جـداً، وازدهـرت ومـلأت كلتـا يديـه، ولم يعـد طامحـاً في شيء أكثـر مـن أن يكـون التاجـر الحاكـم لتـك المديريـة، وأن يسـتمر في مشروعـه بتوطيـد أركان السـلم، وأخـذ النـاس إلى سـبل التمديـن والرخـاء، بالمزيـد مـن التشـجيع عـلى الزراعـة والتجـارة والقضـاء عـلى العـادات السـيئة وإنـارة طريقهـم إلى طريـق الإسـلام.

أُسـقِطَ في يـد الزبـير، إذ لم تجـد دعـواه التـي وردت في خطابه الاسـتجابة،

فعندما تسلَّم الحاكم إسماعيل أيوب لخطاب الزبير، قام برفعه إلى القاهرة، فجاء الرد من هناك بأن الزبير هو الرجل الوحيد المؤهل والكفء لحكم تلك الأقاليم المتوحشة، وأن ضمها إلى رقعة الحكم سيورط الحكومة في مناوشات وحروب صغيرة متواترة، وأن خير ما يمكن فعله هو أن يُترك الزبير حاكماً، على أن يدفع لهم الجزية، وأن يبقى فيما عدا ذلك مستقلاً يفرض ما شاء من ضرائب ويحكمها وفق ما يريد. تمعن الزبير في رد القاهرة وردد قائلاً: اللهم أعني وانصرني. لما كان الزبير رجلاً تنتظم حياته بالنظام ومراعاة الشرع، لم يقبل ما ورد برد القاهرة إلا بعد أن يكون الأمر موثقاً باتفاقية بين الطرفين، ليحتج بها كل طرفٍ على الآخر، فكان له ما أراد، إذ حُررت اتفاقية رسمية بذلك، حُددت فيها التفاصيل بشكل واضح. غير أن سلطان دارفور لم يكن راضياً عن هذه الاتفاقية التي تمت بين الزبير والحكومة المصرية، مدعياً أن شكا تتبع له وهي جزء من إقليمه، منكراً أي حق للحكومة المصرية للتصرف فيها. كان ذلك متزامناً مع تلك الطلبات التي ما تفتأ تطرق أذن السلطان حسين لمحاربة الزبير وطرده من شكا، حتى بات مقتنعاً بالأمر ساعياً إليه، وما درى أنه كان يسعى إلى حتفه بظلفه.

(١٢)

كان الزبير يحترم السلطان حسين وبدأ يخاطبه كثيراً من أجل أن يتفادى أي صدام معه، وكان يقول لخاصته إن السلطان حسين ابن إبراهيم، هو أمير الأمراء الكرام، وزين الأكرمين الفخام، ورث العزة والفخار كابراً عن كابر، وهو سليل سلاطين حملوا راية الإسلام، كان أولهم السلطان سولون سليمان، وكان فيهم السلطان محمد الفضل عبد الرحمن، الذي كان شجاعاً ومقداماً، فعندما دعاه الوالي محمد علي باشا للتسليم رد عليه بخطاب قال فيه:

(إلى حضرة الكوكب العالي والنير المتلألئ، بهجة الأنام، وقدوة الليالي، صاحب العز والافتخار، أخينا العزيز محمد علي باشا، إنكم طالبون دولتنا وطاعتنا وانقيادنا لكم، هل بلغكم أننا كفار وجب لكم قتالنا وأُبيح ضرب الجزية علينا؟ أو غركم قتالكم مع ملوك سنار والشايقية؟، فنحن السلاطين وهم الرعية..! أَوَرَدَ لك دليل من الله تجد فيه ملكك؟ أم ورد لك حديث من رسول الله تجد فيه تمليكك؟ أم خطر لك خاطر من عقلك بأن لك رباً قوياً ولنا رب ضعيف؟ الحمد لله نحن مسلمون، وما نحن كافرون ولا مبتدعون، ندين بكتاب الله وسنة رسول الله، ونؤدي الفرائض، ونترك المحرمات، ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، والذي لم يصلّ نأمره بالصلاة، والذي لم يزكّ نأخذ منه الزكاة ونضعها في بيت المال، ولا ندخرها، ونرد الأمانات إلى أهلها، ونعطي كل ذي حق حقه، حتى دانت لنا القبائل العظام، ومن أتى دولتنا يرجع مكرماً بإذن الله تعالى، ألم تر قوله صلى الله عليه وسلم: «لَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ لَدَكَّ اللهُ الْبَاغِيَ مِنْهُمَا». أما

علمت أن دارفور محروسة محمية بسيوف قطع هندية، وخيول جرد أدهمية، وعليها كهولة وشبان يسرعون إلى الهيجــاء بكرة وعشية؟!. أما علمت أن عندنا العبُّاد والزهاد والأقطاب والأولياء الصالحين من ظهرت لهم الكرامات في وقتنا هذا، وهم بيننا يدفعون شر ناركم، فتصير رماداً، ويرجعون الملك إلى أهله؟ ويكفي من بعد ذلك، والله يكفي شر الظالمين.)

(١٣)

لكل ذلك كان الزبير يريد تفادي الحرب مع السلطان إبراهيم، غير أن رسالة وقعت في يد الزبير كان قد حررها السلطان حسين إبراهيم لبعض مساعديه وأتباعه، ملأها شتماً وإقذاعاً ضد الزبير وعزماً على حربه، على أن الزبير تمسك بالسلم وعاود كتابة رسائله للسلطان حسين، ولكن السلطان لم يأبه بها وطالب الزبير بإخلاء شكا، فرد عليه الزبير قائلاً: لقد كانت تلك البلاد خاضعةً لك طيلة ست وثلاثين سنة، وعلى طول هذه المدة كان اقتناص الرقيق مستمراً فيها، وظلت الطرق غير مأمونة، وليس لديك القوة لحفظ النظام فيها، ولا أحد يستطيع تحقيق ذلك سواي، وقد حاولت أنت عدة مرات قبل ذلك ولم تنجح، وأنت تريد مني الآن أن أتركها ولكني لن أفعل، فأنا مصمم على تأكيد وضمان سلامة هذه الطرق. كان واضحاً أن السلطان يسير في طريق الحرب، رغم أن الزبير بذل جهداً في سبيل الوصول معه إلى تفاهم واقترح، أن يطرح الموضوع أمام مجلس من الحكماء والعقلاء ملتزماً من جانبه بقبول نتائج تحكيم ذلك المجلس، إذا ما سُمح فيه بالنقاش الحر، فرفض السلطان إبراهيم هذا الاقتراح وأرسل للزبير قائلاً:

- إنني أنا ملك، أما أنت فلست بشيء، ولهذا فلن أتفاهم معك.

(١٤)

قبل أن يبدأ السلطان إبراهيم صدامه مع الزبير، لجأ لمحاولات دبلوماسية لحسم صراعه مع الزبير، فأرسل للخديوي إسماعيل شاكياً تعديات الزبير على حدود بلاده، وتأييد الحكمدار لتلك التعديات، كما ذكّر الخديوي بالعلاقات الطيبة التي كانت قائمة بين سلطنة دارفور ومصر أيام أبيه، وطلب منه التدخل للحد من هذه التعديات بصفته الشخصية أو التدخل للوساطة بينه وبين الزبير، غير أن الخديوي لم يعط اهتماماً لهذه الرسالة، وحين فشل السلطان إبراهيم في مسعاه قرر اللجوء إلى السلطات العثمانية عن طريق أمير مكة المكرمة، الشريف عبد الله بن محمد بن عون، لما له من مكانة وحظوة لدى العثمانيين، فأرسل السلطان إبراهيم وفداً سرياً إلى الحجاز برئاسة وزيره وزوج أخته الحاج إدريس، حاملاً المكاتبات اللازمة ومبلغ مئتي ألف ريال، نصفها للأستانة والنصف الآخر للشريف عبد الله، وذلك للحصول على دعم سياسي أو عسكري ضد الخديوي إسماعيل وحكومة السودان، وقد سلك الوفدطريق الواحات إلى أسيوط ليأخذطريقه إلى الحجاز ومن هناك إلى الأستانة، غير أن الحكمدار كشف تلك الخطة فبادر بإبلاغها للقاهرة، وبناءً على ذلك أصدر الخديوي أوامره بمراقبة الوفد وتتبع خطواته والقبض عليه عند وصوله أسيوط، مع مراقبة موانئ الإسكندرية والسويس، منعاً لوجود وفد آخر في طريقه لمغادرة البلاد.

بدا وفد السلطان إبراهيم في ورطة، وقد أحسَّ أفراده أنهم غير مرغوب فيهم في مصر، التي لن تسمح لهم بالمغادرة إلى الحجاز أو الأستانة، ولم يشفع لهم ما يحملونه من هدايا لينتهي

الأمر بهم إلى الحجز ومصادرة ما يحملونه من أموال، وكان هذا الأمر طبيعياً، إذ لن تسمح الإرادة السنية لنفسها بالدخول في مشاكل جانبية مع الوالي في مصر، وبذلك فشلت مساعي السلطان حسين في حسم صراعه مع الزبير دبلوماسياً أو قل إن نواياه في تأليب السلطات في مصر والأستانة لطرد الزبير أصابها الفشل، وهذا ما أدى لتسارع خطواته نحو الصدام مع الزبير حربياً، وقد بدا الزبير متعجباً من تصرفات السلطان حسين، وأسرَّ لمجلسه أن السلطان كان بإمكانه أن ينال هدفه عن طريق التحكيم، لا عن طريق التهديد بالحرب أو تأليب الباب العالي عليه، ثم بدأ الزبير محاولة أخرى ربما تؤدي لحقن دماء المسلمين، فكتب لعلماء دارفور من الفقهاء يحثهم على أن ينصحوا السلطان حسين من اللجوء للحرب، حقناً لدماء المسلمين، غير أن الزبير لم يتلقَ منهم رداً، الأمر الذي دعاه لكتابة رسالة إلى السلطان حسين طالبه فيها بأن يسلمه المدعوين (منزل وعليان) باعتبارهما يتحملان الوزر الأكبر في قطع الطرق والاعتداء على القوافل والتسبب في ما جرى من معارك، ووعد الزبير أنه سيقدمها لمحاكمة عادلة تُراعى فيها الأصول الشرعية.

(١٥)

وضع السلطان حسين مكاتبات الزبير جانباً وبدأ في تجهيز جيش قوامه أربعون ألف مقاتل، من بينهم تسعة آلاف من الخيالة، وثلاثة وعشرون مدفعاً، وعيّن على رأسه رجلاً اسمه شكتا، أحد أرجح مستشاريه عقلاً، وعندما بدأ شكتا يقود جيشه ويتقدم نحو موضع الزبير، وأسرعت العيون بإخبار الزبير بشأن هذا التحرك، فأخذ يستعد وخرج على رأس خمسة آلاف مقاتل لملاقاة أعدائه، فتقابل الجيشان في موضع يقع على مسيرة أربع وعشرين ساعة إلى الشمال الغربي من شكا، فتحاربا وهُزم الزبير وفقد نحو أربعمائة من رجاله، بخلاف الجرحى، وتقهقر الزبير صوب شكا، ولكن قوات شكتا لاحقته على بعد ست ساعات من ذلك الموضع وهاجمته، واستمر القتال من الثالثة بعد الظهر إلى حلول المساء، فأصاب قوات الزبير الرهق، غير أن الزبير تمكن أن يصل بهم إلى مدينته المحصنة شكا، فلم تتركه خيالة العدو وبدأت تهاجمه هناك طوال الليل، وعند انبلاج الصبح كان أعداء الزبير يحكمون حصارهم على شكا الحصينة، ولكن موقف الزبير كان قد تحسن بعودته إلى شكا، حيث استجم جيشه بها وتزود بالطعام، كما أن قوته العددية تضاعفت بضم من كان قد تركهم فيها، وبذلك أصبح مستعداً ومهيأً أكثر للحرب.

(١٦)

عندما سطعت الشمس بنورها كانت مدافع العدو الماردة تطلق قذائف عنيفة الدوي، قوية الضرم، ودارت رحى حرب طاحنة ساحقة، استبسلت فيها قوات الزبير، وفي هذه المعركة الشرسة سقط شكتا قائد جيش السلطان صريعاً، فاضطرب جيشه الذي فقد الرأس، ولم يمضِ وقت طويل حتى انجلت المعركة بانتصار الزبير وفرار جيش السلطان، تاركاً خلفه كل مدفعيته ودروعه وجِماله المحملة بالذخائر، وعدداً كبيراً من الخيول والأسلحة الصغيرة، وكل ما كان في معسكرهم من مؤنٍ وعتادٍ، لتكون مغنماً للزبير وجيشه. الناظر لهذه الغنائم العسكرية سيدرك بسهولة أنها من النوع القديم جداً، مقارنة بأسلحة الزبير الحديثة التي استوردها من القاهرة مع بنادقه الفرنسية الجيدة، ولعل هذا كان عنصراً من عناصر انتصار الزبير، إذا ما أُضيف له عناصر أخرى، كالتدريب والتكتيك الحربي، وبسالة جيش البازنقر الذي يضم عدداً من قبائل (النيام نيام)، من آكلي البشر الذين كانوا يهرعون نحو قتلى العدو والتهام جثثهم، الأمر الذي دفع بالرعب والفزع إلى قلوبهم. لم يركن الزبير لهذا الانتصار، بل تحسب أن العدو سينظم صفوفه ويعود، لذا أسرع بتزويد جيشه بكل ما غنمه من موارد وإمدادات، وأضاف لخيالته المزيد مع الدعم المعنوي الذي ارتفعت وتيرته بعد هذه المعركة الشرسة التي أنهاها لصالحه.

كما توقع الزبير، فقد أرسلت دارفور جيشاً ثانياً لمحاربته، جيشاً

عرمرماً يقوده زعيم قوي الشكيمة يُدعى (أبونا)، غير أن الزبير كان مطمئناً هذه المرة، واثقاً في نفسه وقوة جيشه، وفي أن النصر سيكون حليفه، فتقدم لملاقاة جيش أبونا في الكلكلة، حيث بدأ القتال العنيف عند الثامنة صباحاً وانتهى بنصر مبين للزبير، الذي تمكن جيشه من قتل أبونا، قائد جيش الفور، وأخذ سبعة من أبنائه أسرى، بالإضافة إلى كميات ضخمة من الغنائم والذخيرة، وعاد الزبير بكل ذلك إلى شكا، ولكنه أيضاً لم يستكن لنصره الثاني، فهو يعلم أنهم لن يتركوه، فلم تمضِ سوى عشرين يوماً حتى أتوا له بكرةٍ ثالثةٍ، بجيش يقوده الفارس نور الذي لم يكن مصيره أفضل من مصير سابقيه، وإن فضّل الفرار على الموت. فرضت هذه الانتصارات الثلاثة تخلي البدو الذين كانوا يدينون بالولاء لسلطان دارفور عنه، ويمموا وجوههم شطر الزبير، مذعنين له بالطاعة، فازدادت قوات الزبير، وبلغ جيشه اثني عشرة ألفاً من المشاة، وعشرة آلاف من الخيالة، أحسَّ الزبير بعدها أنه حاز قوة تسمح له وتدفع به للتقدم إلى مدينة دارا، ثاني أكبر مدينة آنذاك في دارفور بعد الفاشر، وقبل أن يصل الزبير بجيش البازنقر الذي صار فيه ابنه سليمان أحد قواده، حدث أمر مهم.

(١٧)

كانت القرى التي تقع في الطريق إلى دارا تسلّم للزبير وتذعن له، غير أن أعوان الزبير قبضوا على شخص في قرية يقال لها (السروج) وأتوا به للزبير مخفوراً، وقبل أن يسأل عن أمره فاجأه الرجل المقبوض عليه بقوله:

- أنت يا سيدي الزبير المهدي المنتظر، إنك لا تدرك ذلك ولكني قد رأيت ذلك في رؤية ورؤاي لا تكذب أبداً..!

نظر إليه الزبير بتهكم وقال له:

- لا تردد مثل هذا القول، أنا لستً بمهدي منتظر، إنما أنا مجاهد وأعرف شرع الله جيداً.

ثم التفت لخفره وسألهم:

- ما بال هذا الرجل؟

فقالوا له:

- إنه يا سيدي فقيه من فقهاء الرزيقات من قبيلة التعايشة، يقرأ لهم الأسماء في خلوته من أجل أن تخيب أسلحتنا وتخبو نيرانها، وقد جعلوا له بقرة في كل (مُراح)، وقد ألقينا القبض عليه وهو يمارس هذا السحر والشعوذة علينا.

- إذاً فهو ساحر.

هكذا قال الزبير، ثم قال للرجل:

- ما اسمك؟

- اسمي عبد الله ود محمد آدم تور شين.

- أتدري ماذا سأفعل بك؟

- لا أدري.

- بل تدري إن كنت مسلماً، فحكم الساحر في الإسلام هو القتل.

بعدها التفت الزبير لمساعديه وقال لهم:

- ماذا تنتظرون، خذوا هذا الرجل واقتلوه..!

(١٨)

كانت أخبار السودان تأتي للزبير وهو في منفاه، وتختلط بمشاعره ونفسه الأسيرة. كلها ذكريات يأخذ بعضها برقاب الأخريات، تحسر على ما آل إليه حال السودان من بعده، وعندما تذكّر وجه التعايشي الذي أمر بإعدامه ذات مرة، كان يقول لنفسه: لو لا التزامي بالشورى ومعارضة العلماء، لنفذ فيه حكم الإعدام، ولنجا السودان من هذه الفوضى التي تضرب بأطنابها كل أجزائه.

كان مع الزبير اثنا عشر عالماً من علماء الشرع، جعلهم يقسمون أمامه بأن لو رأوا في أحكامه اعوجاجاً عن الشرع، أن ينبهوه إليه، فعندما أصدر حكمه بإعدام عبد الله التعايشي اعترض العلماء على هذا الحكم وقالوا له:

- إن الشرع لا يسمح لك بقتل أسير الحرب، فضلاً عن أن السياسة تنكر عليك قتل رجل يعتقد الناس في صلاحه، لأنك لو قتلته نفَّرت منك القبائل، وعدَّتك رجلاً ظالماً مخيفاً.

نزل الزبير على مشورة ورأي علمائه، وقام بإلغاء حكم الإعدام الذي أصدره بحق التعايشي.

لا تزال الذكريات تلحُّ على خاطر الزبير، فرأى مشاهد أخرى من قصة هذا الرجل الذي نجا من الإعدام، والذي ورث عن والده محمد آدم البرناوي الأصل والملقب بتور شين، لقبح منظره، علوم الرمل، فقد كان تور شين مشهوراً

بادعـاءات علمـه بالغيـب، وبذلـك نـال حظـوة كبـيرة خاصـة عندمـا صدقـت بعـض تكهناتـه، فقـد كان (التعايشـة) يغـزون بـلاد السـود مـن وقـتٍ إلى آخـر، فـكان إذا بشّرهـم بالنـصر غـزوا، وإن حذّرهـم انتهـوا، فجمـع بذلـك مـالاً كثـيراً، وتـزوج بأكثـر مـن امـرأة مـن نسـاء التعايشـة، وأنجـب عبـد الله.

يذكـر الزبـير أنـه عندمـا تـم لـه فتـح دارفـور، طلـب منـه عبـد الله أرضـاً في قيجـة غـرب الكلكلـة فأعطاهـا لـه، بـشرط أن يكـف عـما يمارسـه مـن دجـلٍ، غـير أن عبـد الله عـاد وأرسـل للزبـير رسـالة قـال لـه فيهـا:

(رأيـتُ في الحلـم أنـك المهـدي المنتظـر، وإني أحـد أتباعـك، فاخـبرني إن كنـت مهـدي الزمـان لأتبعـك).

فرد عليه الزبير برسالة قال له فيها:

(اسـتقم كـما أمرتـك، أنـا لسـتُ بالمهـدي، وإنـما أنـا جنـدي مـن جنـود الله، أحـارب مـن طغـى وتمـرد).

ومنـذ ذلـك الوقـت بقـي عبـد الله التعايـشي في قيجـة، وقـرر أن يرحـل منهـا هـو وأبـوه وتلامذتـه قاصديـن الحجـاز، وبقـوا سـائرين إلى أن أتـوا دار الجِمـع في كردفـان، فنزلـوا عنـد شـيخها عسـاكر أبي كلام في أبي رُكبـة، وهنـاك مـات أبـوه ودُفـن في أبي ركبة، إلى أن اشـتهر أمـر محمـد أحمـد في الجزيـرة أبـا، فهاجـر إليـه وصـار مـن أعـزَّ أنصـاره.

(١٩)

بدأت أصوات الحروب تجلجل في رأس الزبير وهو بمصر وأربع سنوات تفصل بين قرنين، كان فرحاً بما حققه ابنه بالتبني رابح فضل الله، الذي أقام ملكاً عظيماً في برنو التشادية، وأطلق على عاصمته اسم (إنجمينا)، كانت هذه الرؤى تأتيه في ليل بهيم لم يقطع هدوءه إلا بعض كبار الفرنسيين من أصحاب النفوذ في فرنسا، فأخذوا يطرقون باب قصره بعد منتصف الليل طرقاً ينبئ عن سرية زيارتهم.

كان الفرنسيون قد ادعوا أن إنجمينا تقع في نطاق نفوذهم، فجردوا جيشاً لإخراج رابح منها عنوةً، غير أن رابح تلميذ الزبير هزم تلك الجيوش في أكثر من معركة دامية، ففكروا في الاتصال بالزبير في القاهرة، وكانوا يعلمون مدى تأثيره على رابح، بقصد أن يقنعه بالانسحاب من إنجمينا.

الزبير الذي كان سعيداً بانتصارات رابح على الفرنسيين، وما حققه من سلطان ومجد بتشاد، ما كان ليقبل من الفرنسيين طلبهم الذي دعموه بمبالغ طائلة، نظر إليها الزبير ودمعة تكاد تطفر من عينيه، وهو يذكر رابح والغزوات، فأحسَّ بنسمة حزينة ناعمة تهب في صدره وتسوق له مواكب الماضي وذكريات أعوام طويلة خلت ومضت، بعد أن قذفت في كيانهم رائحة البارود وهتافات النصر وأهازيجه. عندها نظر الزبير إلى أولئك الفرنسيين نهض ونادى زوجته الإنجليزية الفرنسية الأصل، مدام كوخ، لتكون معه في وداع زائريه وسار نحو

بوابة الخروج، فأيقن الفرنسيون أن الباشا قد أنهى الزيارة، وعندما خرجوا قال لهم وهم يوالونه ظهورهم:

- لن أبيع ابني من أجل حفنة من النقود، إن رابح امتداد لمعلمه ومربيه، وحق له أن يستحوذ المجد.

خرج الفرنسيون وقد تيقنوا أن مهمتهم التي جاءت بهم للزبير انتهى أمرها بالفشل الذريع، وما كان أمامهم سوى أن يواصلوا حربهم ضد رابح بكافة الوسائل وبأعنف الطرق، وفي ذاكرتهم تلك الهزائم التي نالوها على يد البطل رابح.

(٢٠)

عندما أسلم القرن التاسع عشر قيادة الزمان للقرن العشرين، بات ما صار معروفاً، فقد اتحدت القوات الفرنسية تحت قيادة حاكم الشاري بتشاد المدعو جنتيل، لكسر شوكة رابح، لتدور المعارك سجالاً بين الطرفين لتنتهي بمعركة كوسوري بالقرب من بحيرة تشاد، وفي هذه المعركة أُصيب رابح إصابة قاتلة أسقطته من فوق حصانه، فظن القائد فورولامي أن خصمه قد مات، فترجل عن حصانه ليركل جثة رابح ويضع حذاءه العسكري النجس فوق صدره، علامة الانتصار عليه، ونفثاً لغيظه المكتوم، لما ألحقه بهم من هزائم مريرة، ولكن البطل رابح ينتفض كالطير الجريح وينتزع مسدسه ويطلق على رأس القائد الفرنسي رصاصةً قاتلةً أردته صريعاً، فسقط ميتاً إلى جواره، دون أن يتذوق طعم حلاوة النصر، والقائد البطل رابح يحس بدبيب الموت يسري في أوصاله، فيتحامل على نفسه ويظل يزحف حتى وصل إلى نهر شاري القريب من ميدان المعركة، فيرمي نفسه داخل النهر حتى لا يجد الفرنسيون جثته فيمثلون بها.

وقع الخبر على الزبير وقعاً أليماً فقال:

- مات ابني الثاني رابح على أيدي الفرنسيين، مات ميتة الأبطال وذهب ذهاب الصناديد الأشداء، فليرحمك الله يا رابح، كنت أتوسم فيك تعويضاً عن ابني سليمان الذي قتله بالغدر والخيانة الضابط جيسي، كلاكما يا أحبائي متما برصاص الأجنبي، قدَّر الله وما شاء فعل.

(٢١)

كان الزبير ينتظر قبل أن يتحرك رداً من السلطان إبراهيم على رسائل سبق وأرسلها له لعل يكون في رده ما يحقن الدماء ويوقف المعارك، فيتوقف زحفه، وكان أحد تلك الخطابات يقول:

(من الزبير رحمة الجميعابي إلى السلطان إبراهيم

أما بعد السلام، فقد كتبتُ إليكم أولاً وثانياً بشأن الرزيقات، فلم أحظَ بجواب منكم، بل رأيت كتاباً مختوماً بختمكم إلى الشيخ مادبو بن علي وغيره من مشايخ الرزيقات، تكثرون فيه من ألفاظ الشتم والسُّباب لي بقولكم أني جلابي باغ، وتقولون إنكم تجردون الجيوش لطردي من البلاد، مع أنّي سبق وأخبرتكم بالسبب الذي من أجله دخلت بلاد شكا، وقلت إني ما جئت ثائراً ولا باغياً، بل جئت لتأديب الرزيقات الذين سعوا في الأرض فساداً وخرجوا من سلطانكم، وقد استنجدتكم عليهم فلم تنجدوني، وسألتكم تسليم منزل وعليان اللذين هما أصل الفساد، فما سلمتوهما وصممت على الحرب. وذلك ليس من قصدي ولا مرادي، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها». خصوصاً وأنه لم يكن بيننا وبينكم ولا كان بين آبائنا وآبائكم حرب ولا عداء، ولا أمرتنا دولتنا بمحاربتكم. أما وقد اخترتم هذه السبيل، فاعلموا يقيناً أن جميع ما يُسفك من دماء الطائفتين من المسلمين، إنما أنتم المسؤولون عنه بين يدي الله يوم

القيامــة، إذ تجتمــع الخصــوم. وبعــد هــذا الإنــذار الجــلي، فــإذا حاربتمونــا فاعلمــوا أننــا منصــورون عليكــم، لأننــا بجانــب الحــق والعــدل، وأنتــم بجانــب البغــي والظلــم، فضــلاً عــن أننــا ليــوث حربيــة وصلــة عباســية وســلالة هاشــمية، ولنــا النــصر مــن رســول الله كــما قــال عليــه الصــلاة والســلام: «اللهــم انــصر العبــاس وأبنــاءه»).

مــا كان يأملــه الزبــير لم يحــدث، إنــما الــذي حــدث أن ارتفعــت وتــيرة الحــرب إلى أقصاهــا.

لم يحِـد السـلطان حسـين إبراهيـم أبـداً عـن مبدئـه بمحاربـة الزبـير وطـرده مـن شـكا، وكل أرضٍ آلـت إليـه باعتبارهـا جـزءاً مـن سـلطنته، وواصـل سياسـة التجاهـل والتقليـل مـن شـأن الزبـير، ورفـض أن يفاوضـه أو أن يسـتجيب إلى مطالبـه كلهـا، بـما فيهـا تسـليمه منـزل وعليـان، وكان الزبـير يعدهمـا رأس الحيـة وأُس البليـة والفتنـة، وقـد حزَّ في نفـس الزبـير أن علـماء دارفـور الفقيـه سـلامة بـن الفقيـه مالـك، والفقيـه فخـر الديـن بـن الفقيـه محمـد سـالم، والفقيـه سـالم شـيخ العزيمـة والإمـام الضـو بـن الإمـام المـصري، قـد أصابهـم الوجـل، فصمتـوا عـن الـرد عـلى الرسـالة المطولـة التـي وجههـا لهـم وقـال في نهايتهـا:

(فالأمـل مـن حضراتكـم يـا علـماء الإسـلام، أن تفيدونـا عـما دعـا سـلطانكم إلى محاربتنـا، وهـلاكِ عسـاكر المسـلمين منـا ومنـه، فـإن كان لـه وجـه شرعـي في ذلـك، ونحـن المخالفـون للشريعـة، فنحـن نشـكره عـلى أجـره، ونطلـب المغفـرة مـن الله ومنـه، وإن كان هـو المخالـف، فكفـى بـالله شـهيداً بيننـا وبينـه، ولا حـول ولا قـوة إلا بـالله العظيـم).

أعـداء الزبـير لم يتركـوه وهـو في شـكا متقدمـاً نحـو دارا، إذ بـدأ الشرتـاي أحمـد نمـر يحـاصر ويهاجـم اسـتحكاماته، آمـلاً وقـف الزحـف حتـى تصـل الجيـوش التـي أعدهـا السـلطان حسـين لمحاربتـه، عندهـا استنهض الزبـير أحـد قـواد البازنقـر وهـو رابـح، فخـرج إليـه بفرقـة مـن الجيـش فقتـل الشرتـاي ومـن معـه، وغنـم مـا عندهـم مـن خيـول ودروع وخـوذ ومـواشٍ.

بعدهـا بـدأ الزبـير ينظـر تلـك النظـرة التـي يعـرف معناهـا قـواده سـليمان الزبـير ورابـح فضـل الله والنـور عنقـرة والزاكـي طمـل وحمـدان أبوعنجـة ومحمـد عبـد القـادر وغيرهـم، إنهـا نظـرة الاسـتعداد للحـرب والتحـرك للنـصر، فانطلقـت الموسـيقى وتعالـت صيحـات الجنـود الذيـن امتـلأت نفوسـهم بأحاسـيس النـصر والزبـير يقـول: (هيـا بنـا إلى دارا). فزحـف عليهـا لتصـير المدينـة الدارفوريـة الثانيـة بعـد الفـاشر في قبضـة الزبـير، وحفـر حولهـا خندقـاً بعمـق اثني عـشر قدمـاً، وظـل يقيـم بداخـل هـذه الاسـتحكامات لمـدة اسـتطالت لأربعـة أشـهر.

(٢٢)

من دارا كتب الزبير رسالة للسلطان حسين، حوت إنذاراً شديد اللهجة، قال له فيها:

(إني سألتكم في بادئ الرأي أن تساعدوني على الرزيقات الذين سعوا في الأرض فساداً، ثم سألتكم مراراً تسليم منزل وعليان اللذين التجآ إليكم فراراً من وجه العدل، فما أجبتم بل أرسلتم الجيوش لمحاربتي، فأوجب الله تعالى علينا محاربتكم حتى تستقيموا أنتم ومن معكم من المفسدين في الأرض، وقد لقينا جيوشكم ونصرنا الله عليهم، ودخلنا مدينة دارا وصار القصد الآن إدخالكم أنتم وبلادكم تحت طاعة الحكومة الخديوية، فيا حضرة الأمير إن كنت تحسب نفسك عبداً لله، وموقناً أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، فبادر واخلع المُلك عن نفسك بالتسليم إلى ولي نعمتنا الخديوي المعظم، حباً في السلام وحجباً لدماء المسلمين، وإذا سلمت فاسلم ونترك لك خزائنك وأموالك وتبقى مكرماً مبجلاً عند الجميع، وإلا فإننا لا بُدَّ أن ننال ما نروم بالرغم عنك، وأنت المسؤول بين يدي الله عن دماء المسلمين والسلام).

كان الزبير يتعامل بنبلٍ مع المهزومين من أعدائه، بل كان يشهد لهم بما فيهم من صفات ولا ينحو للتشفي والانتقام ولا للتعذيب والعقاب، وكان هذا واضحاً في كثير من رسائله التي كان يرسلها، ومن ذلك قوله للسلطان حسين:

(وتقدم وزيركم أحمد شطة ومقدومكم سعد النور بمن

معهـما مـن الملـوك والـشراتي والجيـوش الكثـيرة المجنـدة، فهاجمانـا دفعتـين، ففـي الدفعـة الأولى هاجمـا قسـماً مـن عسـاكرنا الذيـن انفـردوا منـا لغـزوة عـلى بعـض العربـان العصـاة، ثـم هاجمانـا في مراكزنـا، فلـم تمـضِ سـاعة واحـدة حتـى انهزمـا أمامنـا شر انهـزام، أمـا المقـدوم سـعد النـور جـزاه الله كل خـير، فإنـه قاتـل قتـال الأبطـال ومـات بـين كـرات المدافـع، والفضـل مـا شـهدت بـه الأعـداء. وأمـا وزيركـم أحمـد شـطة أمـير الجيـش، فقـد فـرَّ عـلى قدميـه حافيـاً يطلـب النجـاة حتـى قُتـل مطـروداً بمـن معـه مـن أخـلاط النـاس، بعيـداً مـن محـل الواقعـة، ولا بُـدَّ أن الخـوذة التـي كان يلبسـها عـلى رأسـه وصلتكـم، فأكـدت لكـم خـبر موتـه، وبعـد الواقعـة أمرنـا بجمـع جثـث الوزيـر والمقـدوم ومـن قُتـل معهـما مـن أولاد السـلاطين والملـوك والـشراتي، فكفناهـم بأفخـر الأنسـجة وصلينـا عليهـم ودفناهـم بتـمام الإكـرام).

هكـذا كانـت أخـلاق الزبـير، وكان هـذا هـو النبـل الـذي يتسربـل بـه ولا يخلعـه.

(٢٣)

عندما وصلت رسالة الزبير إلى السلطان إبراهيم وهي تحوي ذلك الإنذار الشديد اللهجة، طار صوابه وأعد جيشاً عرمرماً بلغ عدد مقاتليه مئة ألف مقاتل، بينهم عدد كبير من الفرسان المدرعين والمشاة المسلحين بالبنادق، وعقد لواءه لعمه الأمير حسب الله، فتوجهوا إلى مدينة دارا حيث كان يقيم الزبير، وعندما وصلوها حاصروها من استحكاماتها الموجودة في الجهات الأربع وكتبوا للزبير قائلين:

(لقد دخلت بلادنا وقتلت وزيرنا أحمد شطة، ثم الشرتاي أحمد نمر، فاخرج الآن من بلادنا لنشيعك بالسلامة والأمان).

نظر الزبير إلى كتابهم ورد عليهم قائلاً:

(إني دخلتُ بلادكم عنوةً، ولستُ أنوي الخروج منها إلا بقدر من الله، فإن كنتم قد جئتم لحرب فتقدموا لها وإلا فعودوا).

حمل الرسل رد الزبير ولكنهم قبل ذلك رأوا عساكر (النيام نيام)، الذين كانوا بجيش الزبير (البازنقر)، قد اجتمعوا على جثة آدمي يقتسمونها فيما بينهم، فأخذ بعضهم الرأس والرجل، وبعضهم الفخذين، وبعضهم الصدر، وشرعوا يشوونها على النار ويأكلونها بأسنانهم الحادة، فاقشعرت أبدانهم من هذا المشهد، فعادوا وأخبروا بما كان من هذا الأمر، وأمر رد الزبير على رسالتهم، ورغم ذلك قرروا الدخول في الحرب وصاروا يناوشون جنود الزبير في كل يوم من قبل طلوع الشمس إلى

ما بعد منتصف الليل، وكان جنود الزبير يردون عليهم بنيران كثيفة وصلتهم، غير أنهم صبروا عليها لسبعة أيام كاملة رغم سقوط أعداد كبيرة منهم قتلى، وفي اليوم الثامن نفضوا خيامهم ونزلوا بعيداً عن مرمى رصاص جنود الزبير.

لم تكن هي نهاية المعركة، بل بقي الزبير محاصراً في دارا حتى كاد يفرغ الزاد منها، وفي ليلة من الليالي كان الفور قد شربوا الخمر وشبعوا بلحم الضأن والإبل وناموا نوم الراحة، فانتهز الزبير هذه الفرصة الثمينة وخرج إليهم بثمانية آلاف رجل في جُنح الليل، وعندما اقتربوا منهم أطلقوا عليهم الرصاص كالمطر الوابل، فقاموا مذعورين إلى سلاحهم وصوبوا على جيش الزبير نيرانهم، ودارت رحى حرب ضروس كانت نهايتها هزيمة جيش الأمير حسب الله، الذي ولى الأدبار منهزماً، تاركين خلفهم قتلاهم وغنائم من دروع وخيم ومدافع وشيء كثير من الأسلحة والذخائر الحربية، وزادٍ كفَّى جيش الزبير لأربعة أشهر، غير أن الأمير حسب الله جمع شتات جيشه وهاجم الزبير وحصونه من فوق الأسوار، ليستمر القتال بينهما لأربع ساعاتٍ متوالية، وعندما استشعر الأمير حسب الله كثرة القتلى في جيشه أحسَّ بالهزيمة النكراء وانسحب، وقبل أن يعود الزبير لداخل المدينة انطلقت أهازيج النصر وملأت السماء إضاءات الألعاب النارية، غير أن أحد الفرحين بهذا النصر أراد أن يعانق الزبير، وعندما طار إليه بالعناق لاحظ أن الزبير لم يجاوبه ولم ترتفع يده إلى عنقه، فأحسَّ بالأسى، ولكن الزبير عندما أحسَّ بأسى معانقه قال له:

- انظر إلى يدي.

عندها أدرك المُعانق أن يد الزبير مصابة بطلق ناري، وأنها تنزف دماً من جرح بليغ. وهكذا كان الزبير يقود قواته في ساحات الوغى مقاتلاً لا يستسلم ولا يلين.

لم تمنع تلك الطلقة الطائشة الزبير من قيادة جيشه في ساحة المعركة، بل لم يأبه لها وواصل قتاله لأعدائه، فهو يعلم أن انزواء القائد هو بداية الهزيمة، وهو رجل لا يحب الهزائم، وقد خاض في حياته مئة وعشرين معركة انتصر فيها عدا ثلاث معارك، وما قاده لتلك الانتصارات كان من أهم أسبابها أنه يوفي صفة القائد كل معانيها واستحقاقاتها، فقد أدرك الزبير منذ وقت مبكر أن قدره يسوقه نحو القيادة العسكرية، وقد كان مستعداً لهذا القدر ومتمسكاً في الوقت ذاته بصفته كتاجر، لذا عندما أراد أن يحمي تجارته أنشأ لها حرساً قوياً تحقيقاً لهذا الهدف، فالتاجر في تلك المجاهل يكون عُرضة لمخاطر جمة، أدناها السلب ونهايتها القتل، غير أن تدافع الأحداث وتطورها وتناميها جعل من ذلك الحرس نواةً لجيش صنع به الزبير كثيراً من الأمجاد، فعندما وطِئَت قدماه بلاد (النيام نيام) في بحر الغزال، كان يرى أن أصحاب الجنايات كاللصوص والزُّناة يعرضون للبيع في الأسواق، حيث يتم ذبحهم بواسطة المشترين وتباع لحومهم، وكانت حاجة الزبير تتزايد لجمع المزيد من الرجال حوله، لذا بدأ يفتدي أولئك الذين يساقون للأسواق من الذبح، فينقذهم من المصير الرهيب الذي كان ينتظرهم ثم يؤهلهم تربوياً وعسكرياً بالإسلام والتدريب، فأخلصوا إليه وأحبوه.

(٢٤)

هكـذا بـدأ الزبـير يبنـي لنفسـه جيشـاً عظيـماً سـاعده في ذلـك تلـك المعاملـة الحسـنة التـي كان يُعامـل بهـا أفـراده وجنـوده وحراسـه، التـي أغـرت الكثيريـن سـواء مـن طبقـة الرقيـق أو غيرهـم، وأبنـاء هـذا الرجـل تـضرب أسـماعهم، أن يُقبلـوا نحـوه يطلبـون الأمـان في رحابـه، فقـد ذاع في الأنحـاء رفقـه وحسـن معاملتـه، وكان هـذا كافيـاً للانضـمام تحـت لوائـه، غـير أن كل هـذا لم يكـن ملبيـاً لطموحـات رجـل كالزبـير، صاحـب فكـر وقيـادة، مـا أهَّلـه لأن يكـوِّن جيشـاً وفقـاً للأسـس الحديثـة، وبـات صاحـب فضـل في تدريـب وتأهيـل أعـداد كبـيرة أضحـت تجيـد اسـتخدام السـلاح النـاري الـذي كان حكـراً عـلى الجيـش التركـي، وقـد نظـر الزبـير إلى أنظمـة الجيـش المـصري وأسـقطها عـلى جيشـه، مسـتفيداً مـن خـبرة قائديـه رابـح فضـل الله والنـور عنقـرة اللذيـن كانـت لهـما خـبرة سـابقة في جيـش الخديـوي إسـماعيل، لـذا وصـل بجيشـه إلى مرحلـة متقدمـة مـن التنظيـم، خاصـة أنـه قـد بـذل الكثـير مـن المجهـودات لتقويـة جيشـه بالمزيـد مـن العنـاصر المدربـة، ولتحقيـق هـذا الهـدف كان يرسـل بعـض قادتـه سراً إلى الخرطـوم لتجنيـد مـن تركـوا الخدمـة في جيـش الخديـوي، أو فُصلـوا منـه، وقـد نجـح رابـح في تجنيـد جماعـة مـن الهجانـة المسرحـين مـن الجيـش المـصري، كـما نجـح النـور عنقـرة في تجميـع فلـول وحدتـه السـابقة، كـما أرسـل الزبـير مسـتجدين مـن جيشـه إلى مـصر للتدريـب العسـكري وأعادهـم مـن جديـد.

في مهمـة عسـكرية أوفـد الزبـير بعض قـواده سراً إلى مصر لاسـتجلاب ترسـانة للأسـلحة، ومصنعـاً لصناعـة الذخـيرة، وكميـات مـن البارود

للمدافـع، وذلـك عـن طريـق الـشراء، ونجحـت هـذه المهمـة عـن طريـق بعـض التجـار الأجانـب العاملـين في تجـارة السـلاح والذخيرة، وبحسـه العسـكري والقيـادي حـرص الزبـير عـلى أن تكـون مخـازن ذخيرتـه وأسـلحته تحـت سـطح الأرض، تأمينـاً لهـا، وقـد أثبـت هـذا الأسـلوب جـدواه حينـما عمـد محمـد البـلالي عميـل حكومـة الخرطـوم الأجنبيـة للهجـوم عـلى معسـكر الزبـير، وأشـعل النـيران في مخـازن المـؤن التجاريـة والإداريـة، فأحالهـا إلى حطـام ورمـاد عـدا تلـك الأسـلحة والذخـيرة التـي كانـت مخزنـة تحـت سـطح الأرض وبعيـداً عـن العيـون. ومـن مظاهـر تحديـث الجيـش الـزي العسـكري وشـارات الرتـب والأعـلام والموسـيقى العسـكرية والألعـاب الناريـة والألحـان العسـكرية، أو مـا عُـرف بالجـلالات التـي اقتبسـتها فيـما بعـد قـوات مشـاة البحريـة الأمريكيـة (المارنيـز) بعـد أن اسـتخدمها الزبـير حينـما شـارك في حـرب البلقـان الأوروبيـة، كل هـذا كان مـن ابتـكار الزبـير وقـواده وإرثهـم العسـكري المجيـد.

كل ذلـك لم يـردع السـلطان حسـين إبراهيـم الـذي لم يقـدر خطـورة الزبـير، ولم يحترمـه كقائـد حـربي محنـك وشـجاع.

(٢٥)

ما كان لدى الزبير من استخبارات وإشارات عسكرية، كان كفيلاً بكشف قوة أعدائه وتحركاتهم، وما لم يكن يعلمه السلطان حسين أن الزبير قد عهد بجهازه الاستخباري لطائفة من أهله وذوي عصبته من الجميعاب والجموعية والجعليين، كصديقه وابن عمه محمد عبد القادر، وكان هذا الجهاز الاستخباري يعتمد نظام الإشارات أو الاتصالات عن طريق الوسائل التقليدية، كاستخدام طبل (الرونقا) في توصيل الشفرات العلنية والحمام الزاجل في حمل الرسائل السرية من وإلى الوحدات البعيدة، وهي وسيلة قديمة سبق أن استخدمتها الجيوش العربية والرومانية والفارسية وغيرها، وقد برعوا في اقتناص حمام العدو العابر واعتقال الجواسيس.

كان جيش الزبير مستعداً لجيوش السلطان حسين، وبات مؤهلاً لخوض المعارك والحروب، كالجيوش الأوروبية في ذلك الوقت، واستبانت بوضوح ثمار ما كان يغرسه الزبير في نفوس قادته وأفراد جيوشه، الذين تدافعوا لتحقيق مقاصده والذود عن القيادة مهما عظمت التضحيات، وبُذلت فيها المهج والأرواح، فبعضهم لا ينسى أبداً أن الزبير قد منحهم فرصة ذهبية للحياة، وإلا كانوا غذاءً في بطون البعض، وهيأ لهم فرص العيش الكريم من عملٍ وكسوةٍ وإعاشةٍ، وفوق ذلك كانوا يستشعرون معاملته الحَسنة واهتمامه بصحتهم ورفاهيتهم، فأحبوه وأخلصوا إليه.

بـدأ الزبـير في اسـتغلال مواهبـه في الصيـد ورياضـة الفروسـية لصالـح قـواده وجيشـه، فـكان يخـرج معهـم للصيـد واختبـار مهاراتهـم في الفروسـية والمغامـرة التـي طالمـا عشـقوها، فشـاركهم فيهـا باعتبـاره رفيقهـم، وكـما كان في الصيـد كان معهـم في الغنائـم التـي لم يكـن يسـتأثر بهـا ولا يقتسـمها مـع قادتـه، كـما كانـت تفعـل الجيـوش وقتهـا، إنـما كان يطلـق يدهـم في حصـص مجزيـة كلـما انتـصروا عـلى العـدو، وبذلـك نجـح في خلـق جيـش قوامـه التماسـك النفـسي والوحـدة العميقـة، وكأنـه كتلـة واحـدة، فلـم تنشـأ فيـه حـالات عصيـان أو تمـرد. وكان الزبـير الـذي تجمعـت تحـت يديـه أمـوال طائلـة يتذكـر وهـو يأمـر بصهـر آلاف كثـيرة مـن الريـالات المجيديـة لصالـح مصنـع الذخـيرة الـذي اسـتجلبه ليصنعـوا مـن ذلـك الصهـير رصاصـاً، ذلـك الطلـب الـذي تقـدم بـه إليـه ابـن عمـه محمـد عبـد القـادر عندمـا كانـا في مركـب أبي عمـوري مـن أجـل أن يعطيـه ريـالاً ولم يجـده عنـده، فضحـك لهـذه الذكـرى ونـادى ابـن عمـه محمـد عبـد القـادر ليسـتعيدا تلـك الذكريـات، وعندمـا وصلـه محمـد عبـد القـادر في ثلـة مـن القـادة لم يسـتطع الزبـير أن يسـتعيد ذكرياتـه مـع ابـن عمـه، فقـد قـال لـه قادتـه:

- اسـتجوبنا آخـر الجواسـيس الذيـن قبضنـا عليهـم، فأخبرنـا بـأن السـلطان حسـين قـد تحـرك بنفسـه عـلى رأس جيـش عرمـرم قاصـداً قتالنـا.

أطـرق الزبـير برأسـه نحـو الأرض وأحاسـيس شـتى تنتابـه، وعندمـا رفـع رأسـه كانـت عينـاه مربدتـين وهـو يقـول لقـواده:

- البجيك مشمر بتقابلوا عريان..!

لم يكـن أعـوان الزبـير يُخفـون عنـه شـيئاً، فعندمـا كانـت أصـوات قــوات الســلطان حســين تجلجــل في الآفــاق وتــزداد وتــيرة الاســتعدادات في معســكر الزبــير في دارا، جــاءه خــبر محــزن في إطـار أسـئلته الدائمـة عـن أهـل بيتـه، وكان الزبـير وقتهـا قـد بنـى بأكثـر مـن زوجـة، كان يسـأل عـن زوجتـه زينـب بـت منصـور وأولادهـا، وهـل طـاب لهـا المقـام بالجيـلي بعـد أن عـادت إلى هنـاك بسـبب تلـك الحـروب المتواتـرة التـي فُرضـت عليـه، وعندمـا وصلـت أسـئلته إلى أحـوال زوجتـه رانبـوه وبنتيـه اللائـي تركهـن خلفـه في مندقبـا صَعِـقَ بالنبـأ:

- سيدي الزبير لقد ماتت رانبوه، نسأل الله أن يرحمها.

بعنـفٍ اسـتطاع الزبـير أن يزجـر دموعـاً تريـد أن تتمـرد عـلى مقلتيه حرضتهـا تلـك الذكريـات وتلـك السـنوات التـي قذفـت في روحـه السـعادة ومضـت، فكـم أحـب هـذه الأمـيرة التـي أنقـذت حياتـه ذات يـوم، يـا إلهـي مـا أرقّ تلـك الكلـمات التـي كانـت تخاطبـه بهـا، مـا أعـذب ابتسـامتها التـي كانـت تـشرق مـن بـين ثنايـا أسـنان بيضـاء فتـضيء الوجـه المليـح.

غــادرت الذكريــات وأحاسيســها بعــد أن تماوجــت في صــدره، وجلســت فــوق وجهــه مشــاعر أخــرى ثــم ســألهم:

- هل دفنتموها؟

قالوا:

- نعـم سـيدي الزبـير، دفناهـا في مقابـر المسـلمين بعـد أن كفناهـا بأفخـر الثيـاب.

أطرق الزبير إطراقة حزينة وقال:

- عزيـزة ماتـت رانبـوه، الحمـد لله الـذي أماتهـا عـلى دين الإسـلام، اللهـم اغفـر لهـا وارحمهـا واجعـل قبرهـا روضـةً مـن ريـاض الجنة.

صمـت الزبـير صمتـاً جعـل الدمـوع تـذرف مـن أعـين رجالـه، فنظـر إليهـم وقـال لهـم بحـزم:

- لا وقت للدموع، فالأعداء على الأبواب.

(٢٦)

من مجلسه السلطاني وقصره المنيف، كان السلطان حسين قد أصدر أوامره لجيشه بالتحرك نحو مدينة دارا، التي احتلها الزبير بعد أن بلغه انكسار عمه الأمير حسب الله وانهزامه أمام الزبير، صاح السلطان وقال:

- أُريد مئة وخمسين ألفاً من الرجال، فيهم الفوارس والمسلحون بالبنادق، أُريد المدافع التي تجرها الخيول وتهتز لها الأرض، سأقودكم بنفسي نحو الزبير لنأخذ منه حقنا السليب، لن يفلت مني، لأني سأقود الجيش بنفسي، وكل رجال دولتي سيقودون فيالق الجيش المختلفة، وسيحكم سلطنتي من هنا من مدينة الفاشر في غيابي ابني الأكبر محمد الفضل، وكل قائد منكم عليه أن يخلف ابنه الأكبر، هيا بنا استعدوا للتحرك.

تحرك السلطان حسين بعزم على رأس جيشه حتى وصل به إلى مدينة دارا، التي حصنها الزبير باستحكامات منيعة، خنادق وأسوار عليها رجال أشداء، كأنما قلوبهم قد قُدت من الصخر، لا يخافون ولا يرتعبون.

أحاط السلطان حسين المدينة المحصنة من جهاتها الأربع، ثم بدأ هجومه الذي أراده أن يكون كاسحاً وحاسماً، غير أن الزبير وجيشه أمطروهم بوابل من الرصاص كالمطر، واستمرت الحرب سجالاً بين الطرفين، وبعد ساعةٍ من مغيب الشمس صمتت المدافع وسكت الرصاص.

لم يهدأ الزبير في تلك الليلة، فبدا طائفاً على وحداته العسكرية داخل مدينته المحصنة، يرفدهم بالنصائح والتوجيهات والأوامر، ويعلي من هممهم، وكذلك كان السلطان حسين وهو خارج أسوار الزبير المنيعة، وقبل طلوع الشمس عاود السلطان حسين هجماته على دارا وحصونها، ورجال الزبير الذين لم يغمض لهم جفن ردوا عليه بعنفٍ فارتدوا على أعقابهم، وبعد قسطٍ من الراحة امتدت إلى ما بعد الظهر، عاود السلطان حسين هجومه بكرة أخرى بعزمٍ صادقٍ وشجاعةٍ فائقةٍ، ورصاص رجال الزبير يحصدهم حصد الزرع، واستمر القتال حتى ناء الليل بكلكله، فعاد من بقي حياً من الطرفين إلى معسكره، وكان السلطان قد فقد في ذلك اليوم عدداً كبيراً من رجاله وآله، من أبناءٍ وإخوة وأعمام، ما دعاه لكتابة رسالة للزبير في تلك الليلة، وبعد أن ملأها شتماً وسُباباً، أقسم أنه سيعاود الكرة في الصباح ويطيح باستحكامات المدينة ويدخلها منتصراً ويصلي الجمعة في مسجد دارا. مع تباشير الفجر أطلق السلطان حسين على أسوار المدينة خمسة وأربعين مدفعاً، فلم يرد عليه الزبير الذي كان يشرع في الاستعداد لمعركة الصباح.

(٢٧)

أنـارت الشـمس الدنيـا لا يحجبهـا شيء سـوى اليسـير مـن الدخـان المتصاعـد في وهـن، والصقـور الجائعـة المتحفـزة، وهبـت نسـائم الصبـاح وهـي تحمـل روائـح الجثـث المتعفنـة، والـكل يتحسـس سـلاحه، ووجـوه رجـال الزبـير صلـدة وقلوبهـم تقـذف الـدم لأجسـادهم القويـة وصدورهـم الفتيـة. الديـك لم يـؤذن في ذلـك الفجـر والأبخـرة المتصاعـدة توقـف تصاعدهـا، والعقبـان شـبعت وطـارت واختفـت، واستعدادات الزبـير بلغـت قمتهـا، ولكـن راعـه هـذا الهـدوء ومعسـكر الأعـداء يبـدو خاليـاً حينـما حـط نـور الشـمس عـلى أجزائـه الكثـيرة في ذلـك الامتـداد العريـض، فـأراد رجـال الزبـير أن يتجهـوا نحـو المعسـكر الخـالي فرحـين، فمنعهـم الزبـير بعـد أن طافـت بذهنـه ذكـرى بعيـدة:

- صـبراً يـا رجـال، لعـل في الأمـر خدعـة، وليـأتِ معـي نفـر قليـل لنسـتطلع الأمـر.

عندمـا وصلـت فرقـة الاسـتطلاع بحـذر شـديد لمعسـكر قـوات جيـش السـلطان حسـين، تأكـد للزبـير أن ليـس في الأمـر خدعـة، فقـد وجـد أحـد الجرحـى مخلفـاً في المعسـكر، فقـال لـه الزبـير بعـد أن أمـر بتضميـد جراحـه:

- أنـت آمـن، فأنـا لا أقتـل الأسرى، وآمـر بتطبيـب الجرحـى ولـو كانـوا أعدائـي.

رأى الزبير دمعةً فوق وجه الجريح فقال له:

- لا تبكِ يا رجل، فقد قلت لك إنك آمن.

- لا أبكـي خوفـاً ولا وجـلاً، ولكنـي أبكـي عندمـا فهمـت كـم أنـت حليـم، وبكيـت لأننـا نقاتـل رجـلاً مثلـك.
- إذاً أخبرنـي أيـن السـلطان وأيـن رجالـه، هـل ذهبـوا ليدبـروا لنـا خدعـة؟

ابتسم الجريح بوجهه الذي امتلأ ألماً:

- لا يـا جلالـة الزبـير، فقـد سـئم كثـير مـن الرجـال مهاجمـة أسـوارك المنيعـة فهجـروا السـلطان.

- وأين السلطان ومن بقي معه؟

- تبـع السـلطان رجالـه الذيـن هجـروه وهربـوا ليجمـع شـتاتهم، ناويـاً السـير بهـم نحـو جبـل مـرة.

التفت الزبير إلى من معه وقال لهم:

- احملـوا هـذا الجريـح وأكملـوا علاجـه داخـل المدينـة، وليـأتِ لي بعـض الرجـال ليجمعـوا مـا خلفـه السـلطان ورجالـه مـن غنائـم.

عندمـا عـاد الجميـع بالغنائـم إلى داخـل المدينـة وبأخبـار فـرار جيـش السـلطان حسـين، شرع رجـال الزبـير وجنـوده في إقامـة احتفـال النـصر، إلا أن الزبـير منعهـم وقـال لهـم:

- عليكـم أن تدركـوا أن السـلطان حسـين رجـل قـوي وشـجاع، وأبي النفـس، ولـن يقبـل الهزيمـة أبـداً، ولا بُـدَّ أنـه قـد أدرك أنـه خـسر معركـة

ولم يخسر الحرب، ولكن إن أردتم أن تحتفلوا احتفالاً حقيقياً بالنصر، دعونا نلحق بالسلطان حسين ورجاله أينما حلَّ.

ردّ رجال الزبير عليه قائلين:

- فقط آمرنا وستجدنا طوع بنانك.

بدأ الزبير يشرع في الاستعداد للحاق بالسلطان حسين وجيشه، وعندما اكتملت استعداداته خرج بجيوشه متقفياً أثره حتى أدركه في بلدة يقال لها منواشي، وهي تقع على بُعد يومين إلى الجنوب الشرقي من الفاشر حاضرة دارفور، وبسرعة عاد جهاز الزبير الاستخباراتي للعمل، وبدأت العيون تخبر بأن السلطان حسين استطاع أن يجمع حوله ثلاثين ألف مقاتل، ويمتلك ثمانية مدافع مدمرة، وإزاء هذه القوة كان الزبير القائد يفكر بالخطة المناسبة لهزيمة السلطان بمنواشي، ولكن السلطان حسين الذي رتب عساكره باغته بجيشه ميمنةً وميسرةً، وكان هو في مكان القلب في جيشه.

(٢٨)

كانت مناوشي أرضَ حربٍ جديدة تختلف تضاريسها وطبيعتها عن تلك الغابات والمستنقعات الآسنة، التي كانت سُوحاً لمعارك الزبير السابقة، فهي منطقة تتسم بالتباين في ظواهرها الطبيعية من أرض صحراوية إلى شبه صحراوية، تتخللها تلال منخفضة، وكثبان تعرف باسم القيزان، وتلال ذات صخور رملية وأودية وخيران تمتلئ بمياه الأمطار خلال الموسم المطير، ورغم ذلك كانت هناك أشجار متفرقة تبعث عميقاً بجذورها اللاهثة في باطن الأرض، من أجل قطرات من الماء حتى لا تتجرع قطرات الألم وتموت واقفة.

كانت هي الأرض التي يجيد فوقها أبناء السلطنة الدارفورية العريقة وفوارسها الأشاوس القتال وفنونه، وهي أرض غريبة على جيش الزبير، ولكن البازنقر والبحارة لا يعرفون المستحيل ولا يستكينون أبداً، فعندما هجم عليهم جيش السلطان إبراهيم حسين قرض، يميناً ويساراً، وبدأوا يسمعون زخات الرصاص وحمحمة الخيول ورغاء الإبل ودوي المدافع، كانت الدماء قد تناثرت فتحاملوا وبدأوا في حصد أعدائهم وقائدهم الزبير يصرخ: لا تضيعوا رصاصكم هباءً تخيَّروا الرؤوس والصدور، صوبوا بنادقكم بدقةٍ نحو قوادهم وأمرائهم. نفذ جنود الزبير تعليماته فسقط من جيش السلطان الكثيرون رغم بسالتهم في القتال، الذي لم يلبث أن استحال إلى تلاحم، فخرجت السيوف من أغمادها واستطالت الحراب وطارت إلى الصدور والظهور.

ارتفعت هامة السلطان إبراهيم وأخذ يحدق في الشمس التي توسطت كبد السماء وهي تضيء تلك السيوف والحراب والنقع الكثيف فوق الرؤوس يكاد يحيل المكان ظلاماً، ودماء جنوده وأمرائه وأبنائه المتناثرة تثيره، فاندفع من قلب جيشه يتبعه فيلق متجاوزاً المدافع مُخترِقاً مقدمة جيش أعدائه، واستل سيفه وأخذ يصول ويجول في أرض المعركة ببسالة وشجاعة كالأسد الهصور، فانهزمت مقدمة جيش الزبير، فجال حلم عزيز برأسه تراءى له كأمنيةٍ لن تخيب: (سيعود للفاشر وعند أبوابها سيستقبله ابنه الأمير محمد الفضل وأبناء الأمراء ورجال قصره بأهازيج النصر التي تنغمها أصداء أصوات النحاس، وحينها سترتفع عقيرة الحكامات بأنغام المدح والحماسة، نساء السلطنة سيخرجن لاستقباله وهن يعتلين صهوات خيول مزينة بالحرير، وسيدخل قصر السلطنة هناك ومشاعر القائد المنتصر تأخذ بتلابيبه، ويستمتع بألوان حوائط القصر الحمراء، وأروقته المقنطرة، وسقوفه المزدانة بالمفارش الأنيقة والخيزران الجميل، وتعريشات الأبنوس، سيدخل إلى جناح حريمه المفروش بالرمل الفضي المنقوع بالعطور). كان حلماً رائعاً ولكنه كان ضائعاً عصياً على أرض الواقع، كان ضغثاً وهباءً منثوراً قصفت به قوات الزبير وكبلته عزيمتهم التي تماسكت وخرجت من أجوافهم تعشو للنصر الذي لا يعرفون سواه.

بدأت قوات السلطان تتقهقر والسلطان ثابت فوق صهوة جواده الأشقر الخنذيذ، وعندما فارق الجواد صاحبه حمحم حمحمة حزينة، ودم السلطان يسيل فوق السرج ويتناثر على اللجام ويتقاطر فوق أرض المعركة. سقوط السلطان إبراهيم لم تتبعه أنةُ ألم واحدة، ولم يصاحبه جزع، فمات دون حشرجة كما يموت البواسل، راوياً الأرض بالدم، موقِّعاً هزيمة جيشه الذي

تفرقـت إبلـه وخيولـه وهـي تحمـل الفاريـن إلى أنحـاء متفرقـة، وحطـت المعركـة أوزارهـا، وبـدأ الزبـير يتفقـد الأسرى والجرحـى وجثـث القتـلى مـن الطرفـين، فـرأى بـين قتـلى جيـش السـلطان الكثـير مـن الأمـراء وأكابـر دولـة الفـور، وعندمـا وقـف أمـام جثـة السـلطان إبراهيـم قـرض، ترحَّـم عليـه وقـال: (لم يبـقَ الآن شيء يـا جلالـة السـلطان، لقـد محـا المـوت كل مـا بيننـا مـن عِـداء). ثـم التفـت إلى أعوانـه وأمرهـم قائـلاً: (خـذوا جثـة السـلطان وجثـث أشراف قومـه وأكابرهـم وأمرائهـم، وصلـوا عليهـم صـلاة الجنـازة بعـد أن تكفنوهـم بالأنسـجة الفاخـرة وادفنوهـم، فـإن إكـرام الميـت دفنـه، فقـد كانـوا بواسـل وفـوارس وشـجعان. أمـا السـلطان فيدفـن في جامـع منـواشي دفنـاً يليـق بـه، ويجـب أن يكـون ذلـك باحتفـال عظيـم إجـلالاً لمقامـه وإقـراراً ببسـالته).

(٢٩)

قال الزبير كل ذلك على مسمع من قواده ورجاله وأسرى المعركة من جيش السلطان القتيل، فتعجبوا لهذا الأمر الذي كشف لهم بجلاء عن معدن الزبير ونبله، وحفظه لحرمات الموتى، وأنه لم يكن عدوانياً ولا وحشياً يسعى للانتقام والتشفي، وتكرست هذه المعاني أكثر في نفوس أولئك الأسرى، عندما خاطبهم الزبير قائلاً: (أما أنتم، فقد عفوت عنكم، فاذهبوا إلى حيث تشاؤون).

بعد التشييع المهيب للسلطان إبراهيم حسين قرض وأكابر قومه من القتلى، بدأت عملية جمع الغنائم التي انشغل بها رجال الزبير وقواده. كانوا يقولون له:

- سيدي الزبير بيك حاكم شكا وبحر الغزال، لقد غنمنا مدافع وجمالاً محملة بالذخيرة والعتاد، ووقعت في أيدينا مؤن وغذاءات، فآمرنا ماذا نفعل وكيف نقسم الغنائم، وماذا تريد أن يكون لك من هذه الغنائم؟

صمت الزبير صمتاً لا يستطيع أحد أن يقطعه، وهو يصحب صمته مع نظراته إلى الأفق البعيد على مد البصر، فيرى الطريق إلى الفاشر مفتوحاً وممهداً، فقطع صمته وقال لمن معه:

- لا أريد شيئاً من هذه الغنائم، إنها لكم وللجيش، أما أنا فقد غنمت سلطنة دارفور بأسرها.

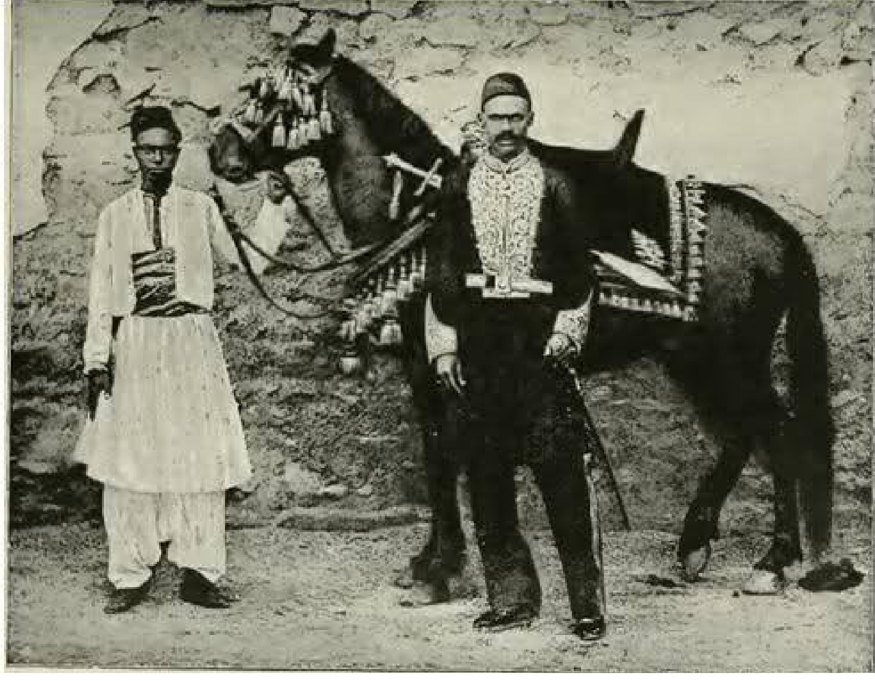
(٣٠)

دارفـور التـي كانـت تقـع في عـين عاصفـة الزبـير، كانـت عصيـة عـلى احتـلال الحكـم العثـماني الـذي كان يديـن لـه الزبـير بالـولاء، باعتبـاره الخلافـة الإسـلامية، وهـي التـي ألبسـته ثـوب الشرعيـة فأنعمـت عليـه بلقـب بيـك وعينتـه حاكـماً عـلى شـكا وبحـر الغـزال، ورأت أن تدعـم الزبـير في أهدافـه لفتـح الطـرق الآمنـة وحمايـة التجـار وقوافلهـم التجاريـة، وعندمـا اشـتعلت الرغبـة في فتـح دارفـور بعثـت بإسـماعيل باشـا أيـوب عـلى رأس جيـش ليهاجـم دارفـور مـن جهـة الـشرق، وكان الزبـير وقتهـا يعـاني مـن الهجـمات عليـه وهـو في مدينـة دارا، تلـك الهجـمات التـي كان يقودهـا الأمـير حسـب الله عـم السـلطان إبراهيـم وغـيره مـن قـواد السـلطان، في الوقـت الـذي كان فيـه إسـماعيل باشـا أيـوب يبطـئ في سـيره وكأنـه يتعمـد عـدم دعـم الزبـير.

لم يتبـين للزبـير أي أسـباب تجعـل إسـماعيل باشـا المكلـف بمهاجمـة دارفـور مـن جهـة الـشرق، أن يبطـئ في تنفيـذ هـذا التكليـف أو في مـده بالدعـم الـلازم للتمكـن مـن صـد أعدائـه الذيـن تكاثـروا عليـه، وكأنـه كان يتجنـب القتـال، وعندمـا وصـل إسـماعيل باشـا لموضـع يُقـال لـه (فوجـة)، كتـب للزبـير الـذي كان موجـوداً آنـذاك داخـل تحصيناتـه بمدينـة دارا قائـلاً لـه: (أنـا في طريقـي إليـك بالنجـدات، فتشـدد وقـاوم حتـى أصـل إليـك). رد الزبـير عليـه برسـالة قـال لـه فيهـا: (لمـاذا هـذا الإبطـاء، عليـك أن تجـدّ في مسـيرك وتـسرع حتـى لا تصـل بعـد فـوات الأوان، فالعـدو يحـدق بي بجيـوش لا حـصر لهـا).

وضح للزبير أن احتلاله لمدينة دارا لم يعجب إسماعيل باشا، وذلك من خلال رسالة أحزنت الزبير، قال له فيها إسماعيل باشا أيوب من مقره في فوجة: (إنني لم آمرك بالتقدم إلى دارا، ولم يكن هذا من بين ما كلفتك به حكومة الخديوي، فإن استطعت أن ترفع الحصار وتنجو بجيشك إلى هنا فافعل، وإلا فدبر أمرك بما تراه صواباً..!).

لم يعد الزبير بحاجة بعد ذلك لإسماعيل باشا وما معه من قوة، كان لا يزال يثق في جيشه وقواده، فتمكن من دحر أعدائه وهزيمتهم على أسوار دارا ولاحقهم إلى منواشي، وشرع في دخول الفاشر، وعندما دخلها دون مساعدة من أحد دانت له مملكة الفور برمتها، وطار الخبر إلى فوجة فأصاب إسماعيل باشا أيوب بما أصابه من مشاعر الغيرة والحنق.



الفصل الخامس
الفتح العظيم والاستدراج المقيت وحرب البلقان

(١)

هل نحتفل يا حدباي؟
هكـذا سـأل حامـد ود مزمـل الجميعـابي الضـوابي ابـن عمـه الزبـير في مجلس عقـده توطئـة لدخـول مدينـة الفـاشر حـاضرة الفور.

السـؤال دفـع ببعـض الشـجن لنفـس الزبـير، فهـو يحـب هـذا اللقـب (حدبـاي) ومـن يناديـه بـه هـم خاصتـه وأبنـاء عمومتـه وقبيلتـه، الذيـن لم يتأخـروا في مسـاندته أمثـال حامـد ويعقـوب ود النصيـح وحسـن ود ضقيـل ود الحبيـب أبـو ضفـيرة ورضـوان العبـادي ومحمـد عبـد القـادر وأبوبكـر منصـور وحمـاد الدكيـم، وغيرهـم من الذيـن اتخذهـم قـواداً للبحـارة وأوكل إليهـم جهـازه الاسـتخباراتي والإشراف عـلى أعمالـه التجاريـة والإداريـة، فلـم يخذلـوه أبـداً، ولم ينفضـوا مـن حولـه بتاتـاً، كانـوا فـوارسَ أشـداءً، وأبطـالاً أقويـاء، ومقاتلـين أشـاوسَ، فوضعـوا في قلبـه مـودةً وحبـاً.. كان يذكرهـم دائـماً ويحـزن عـلى الذيـن استشـهدوا في حروباتـه مدافعـين عـن الرايـة والعقيـدة، كانـت ذكرياتـه تقـوده لسـنوات ماضيـة إلى ملاعـب الصبا وخـلاوي الـدرس بالنيـل الأبيـض، حيـث التقـى هنـاك بأتـراب دفعهـم حبهـم إليـه عندمـا شـق المجاهيـل وسـعى نحـو المجـد، فوضعـوا معـه لبناتـه، ثـم ضربتـه الأشـجان وهـو يسـتعيد أوجـه الشـهداء وابتسـاماتهم وضحكاتهـم وكلماتهـم، ولكنـه لم يسـمح لدموعـه أن تـزور خديـه، وأخـذ يـرد عـلى قائـده البـارز الصنديـد حامـد ود مزمـل قائـلاً لـه:

- لا لا يـا ود مزمـل أخـوي، مـا في وكـت للاحتفـالات، أنـا نـاوي أدخـل الفـاشر ومـا بنتظـر إسـماعيل باشـا، كان انتظرناهـو انتظارنـا بطـول، خلونـا نمـشي وكلمـوا رابـح وسـليمان ورفاقهـما أنحنـا خـلاص زاحفـين.

(٢)

كان الزبـير يتوقـع مقاومـة شرسـة مـن فلـول السـلطان إبراهيـم وقواتـه الموجـودة بالفـاشر وهـو يهـم بدخولها دخـول الفاتحـين، غـير أن الأمـر لم يكـن كـما توقـع الزبـير، فقـد غـادرت عائلـة السـلطان إبراهيـم مدينـة الفـاشر التـي أخلاهـا أيضـاً مـا بقـي مـن قـادة وجنود السـلطان وأهلـه وعمـه الأمـير حسـب الله، الـذي ولـوه سـلطاناً عـلى غـرب دارفـور، فنظـم مـا اسـتطاع مـن القـوات واسـتعصم بجبـل مـرة، ليبقـى في مدينـة الفـاشر التجـار وبعـض العلـماء ومـن رضي بالبقـاء مـن المدنيـين.

كان الزبـير القائـد المنتـصر رحيـماً بالجميـع عندمـا أمنهـم عـلى حياتهم وأموالهـم، وأكـرم معاملتهـم، وبسـط بينهـم العـدل والسـلام، فعـاد الخائفـون وآب الهاربـون يحملهـم الليـل والنهـار، أتـوا مـن فجاجهـم العميقـة ملتمسـين العـدل مـن رجـل عـادل، طامعـين في الإكـرام من رجـل كريـم مقدمـين لـه الطاعـة والامتثـال، لتكتمـل في غضـون أيام قليلـة عـودة جميـع الأهـالي مـن أعاجـم وعربـان وحـضر وباديـة. وطـار خـبر الفتـح إلى المتباطـئ إسـماعيل باشـا أيـوب، فانتابتـه مشـاعر مـن فاتـه المجـد، إذ لا بُـدَّ أن يكـون لـه في المجـد نصيـبٌ، وكيـف وهـو لم يسـعَ إليـه ولم يكـن يهمـه إن مـات الزبـير أو بقـي عـلى قيـد الحيـاة، ولكنـه الآن يفتـح دارفـور منفـرداً بيـده لا بيـد عمـرو.

(٣)

كان الزبير يدرك وفق عقيدته أن فتوحاته ما هي إلا خدمة للإسلام، ورغم أنه عُيِّن حاكماً على بلاد شكا وبحر الغزال، وأُنعم عليه بلقب بيك، إلا أن دواخله لم تكن طامعة في مُلكٍ أو سلطانٍ، إنما الملك والسلطة أتيا إليه يجرجران أذيالهما، أتيا إلى رجل خُلق ليحكم.

تحرك إسماعيل باشا أيوب متخلياً عن بطئه، مدفوعاً بمشاعر متباينة نحو الفاشر عاصمة السلطنة، التي احتلها الزبير، السلطنة التي لم يرق لها غزل الدولة العثمانية، ولم تستجب له، ولكنها خضعت للزبير قائد البازنقر والبحارة، فوصلها وهو لا يدري كيف سيستقبله الزبير، هل سيعاقبه على تماطله، أم أنه سيذعن لأمر الأستانة بإسناد إدارة دارفور له، وهو لا يدري أن الزبير لم يكن خائناً للعهد أو مخالفاً لتعليمات الدولة الإسلامية، وعندما وصل إسماعيل باشا أيوب بجيشه إلى الفاشر المشرعة الأبواب، وهي في أحضان الزبير، حدث ما لم يكن يتوقعه، فقد استقبله الزبير مكرماً لقياه وأطلق في السماء مئة قذيفة مدفع ترحيباً به، فأخرج له غير ما كان يبطنه قائلاً:

- مبروك الانتصار يا زبير بيك.

قالها وهو يخفي تحسراً على النصر الذي فاته، متميزاً بالغيظ كاتمه، حانقاً في غير إعلان، مدخراً حنقه لمناسبة أخرى غير هذه، التي كان الأبطال يحتفلون فيها بانتصارهم الكبير وباستقبالهم للباشا إسماعيل أيوب، وفي نهاية الاحتفال قال له

الزبـير:

- الآن قـد نجحـت في ضـم دارفـور إلى المملكـة الإسـلامية، وأنـك أنـت المكلـف بحكمهـا لا أنـا، أنـت الآن حكمـدار دارفـور يـا باشـا.

هكـذا سـلم الزبـير بيـك رحمـة الجميعـابي سـلطان بـلاد شـكا وبحـر الغـزال حكـم دارفـور لإسـماعيل باشـا أيـوب، بعـد أن وضـع حـداً لمغامـرات الأعـراب والفـور، وحقـق حلـماً عزيـزاً للدولـة الإسـلامية العثمانيـة التـي زادت رقعتهـا بهـذا الفعـل مسـاحةً تضاهـي مسـاحة دولـة فرنسـا، فكـم هـي هديـة كبـيرة وعظيمــة.

(٤)

كان عـلى الزبـير أن يعـود إلى مدينـة دارا، ولكـن ليـس قبـل أن يُخضـع ذلـك الأمـير المعتصـم بجبـل مـرة، فالزبـير رجـل لا يحـب المفاجـآت، لـذا جهـز جيشـاً مؤلفـاً مـن اثنـي عـشر ألفـاً مـن المقاتلـين، لم يكـن مـن بينهـم سـوى مئتـي جنـدي مـن جنـود إسـماعيل باشـا أيـوب، ثـم بـدأ يزحـف عـلى جبـل مـرة، وعندمـا أدركـه، أدرك الأمـير حسـب الله قـوة الزبـير، وأنـه لا قبل لـه بقتالها، لـذا سـلم بـلا قتـال، وكان معـه بعـض أولاد السـلطان إبراهيـم ابن السـلطان حسـين، ونحـو ألـف ومئتـي رجـل مـن أعيـان البـلاد وكبرائهـا، ولم تكـن هـذه مهمـة سـهلة رغـم نجاحهـا بالتسـليم، فقـد اسـتغرقت سـتة وتسـعين يومـاً، قـاد بعدهـا الزبـير أسراه الكثـر إلى مدينـة الفـاشر.

بقـدر مـا كان الزبـير رجل حـرب، كان رجل سـلام تعجـز الكلمات عـن وصـف نبلـه وتسـامحه، فرغـم أن الأمـير حسـب الله قاتلـه في دارا قتـالاً شرسـاً، وقتـل مـن رجالـه وأهلـه الكثيريـن، إلا أن الزبـير لم ينتقـم منـه ولم يأمـر بإعدامـه، بـل سـمع منـه باهتـمام وهـو يعـرض عليـه قائـلاً: (سـاعدني يـا الزبـير لأنْ أحكـم هـذه البـلاد تحـت طاعـة الحكومـة الخديويـة، وأدفـع لهـا الجزيـة السـنوية، إنهـا بلادنـا ونحـن أولى مـن غيرنـا بحكمهـا).

بتلـك اللغـة كان الأمـير حسـب الله يخاطـب الزبـير، هكـذا كان يتحـدث الأسـير لآسره، فـأي أسـيرٍ هـذا، وأي آسرٍ ذاك؟

الأسـير يدهـش كل مـن حولـه بهـذا الطلـب الـذي بـدا تحقيقـه

أمـراً مسـتحيلاً، والآسر يصعـق الجميـع عندمـا قـال لأسـيره:

- أنـت أمـير وسـليل أكابـر وسـلاطين، والحكم ليـس غريبـاً عليك ويشـبهك، وأهـل دارفـور يجـب أن يحكموهـا تحـت رايـات الخلافة الإسـلامية، عليـه أوافـق عـلى طلبـك وسأسـاعدك بـكل قـوة في الأمـر بالتشـاور مـع الحكمـدار إسـماعيل..!

(٥)

وصل بعدها الزبير إلى مدينة الفاشر وفي معيته أكثر من ألف ومئتي أسير، على رأسهم الأمير حسب الله الذي امتلأت نفسه بالآمال والأمان، وفي مدينة الفاشر تحدث الزبير إلى حكمدار دارفور إسماعيل باشا أيوب قائلاً:

- يا باشا إن الأمير الأسير حسب الله قال لي رأياً استحسنته.

فسأله إسماعيل قائلاً:

- وماذا قال لك؟

قال الزبير:

- الأمير حسب الله قال لي إنه يريد أن يحكم هذه البلاد تحت طاعة الحكومة الخديوية، عارضاً دفع مئة ألف جنيه سنوياً، وأرى أن يُجاب لطلبه، ففيه راحة البلاد والحكومة معاً، خاصة أن معه الأمير محمد الفضل خليفة والده السلطان إبراهيم حسين، وهما يملكان دراية وخبرة بحكم بلادهما.

كان الأسير الأمير حسب الله والأمير محمد الفضل خليفة السلطان يدركان أن الزبير رجل لا يخلف وعده، لذا كانت الآمال ترفرف من حواليهما والزبير يخوض لأجلهما مفاوضات مع الباشا إسماعيل.

كان التوجس يغلب على حكمدار الخرطوم ودارفور إسماعيل باشا أيوب عندما يسمع رأياً أو اقتراحاً من حاكم بلاد بحر الغزال وشكا وفاتح دارفور، الزبير بيك، لا يدفعه لذلك إلا الغيرة التي تمكنت منه وهو يرى هذا الرجل القوي مُحاطاً بجيوشه ورجاله الذين يحبونه ومجده الذي انتزعه وانتصاراته التي حققها، بلا شك هو أقوى شخصية في السودان. تلك الخواطر كانت تطوف بنفسه التي قال لها: (هذا الرجل يملك طموحات لا حد لها، إنه يسعى لحكم دارفور بواسطة هؤلاء الفور والأعراب، ولا شك أنه طامح ليستقل بها ويضمها إلى ملكه في شكا وبحر الغزال، فيوسع دولته توطئة لحكم السودان بأكمله).

- فيمَ تفكر ولم تصمت يا باشا، فقد اقترحت عليك اقتراحاً بشأن إعطاء حكم هذه البلاد للأمير حسب الله والأمير محمد الفضل خليفة السلطان إبراهيم حسين؟

هكذا سأله الزبير، فأخرجه من خواطره ومن صمته وقال:

- هل تريد يا زبير بيك أن نُسلِّم هؤلاء الرعاع المتمردين حكم هذا الإقليم الذي داعب أحلامنا كثيراً، ألا ترى كيف أننا قد تكبدنا المشاق وصرفنا الأموال وفقدنا الأرواح من أجل أن نحكم هذا الإقليم؟

- لا سيدي الحكمدار، نحن لا نحمل أخلاق الغزاة قساة القلوب، وإن كنت قاسياً غليظ القلب لانفض الناس من حولي، وقد كان هدفنا أن نؤمن الطرق وأن يدين هذا الإقليم بالولاء والطاعة للدولة الإسلامية، وهذه الأهداف ستتحقق

بطريقة آمنة وسلمية، إن تركنا الحكم هنا لأهل هذا الإقليم.

عاد إسماعيل باشا لصمته وأخذه تفكير تمازجت معه مخاوفه وغيرته من الرجل الذي يدعى الزبير، ولما شعر بنظراته الحادة تتجه إليه قال له:

- هذا الرأي غير حكيم وغير منطقي، بل مخيف. هل ستذهب دماء رجالنا هباءً، هل سنصمت عن خسارتنا من الأموال في سبيل هذا الفتح؟

ابتسم الزبير ابتسامة هازئة، وقال لإسماعيل باشا أيوب:

- يا مولاي إنك لم تخسر قطرة دم واحدة في سبيل هذا الفتح، ولم تفقد فلساً واحداً في سبيله أيضاً، تلك الدماء دماء رجالي، وما صُرف على الفتح كان من أموالي وحدي، ولستُ نادماً لأني قد حققت أهدافي أن يعود السلام والأمان لهذه الربوع، وأن تنساب التجارة فيها وفوق طرقها بسلاسة وأمن، وأن تتبع هذه البلاد للدولة الإسلامية، ولا ضير وقد تحقق مُرادي أن نترك البلاد لتُحكم بواسطة أهلها.

- إذاً أنت تمتن على دولتنا بما قدمته لها وتريد أن تفرض آراءك علينا وتحكم هذه البلاد من وراء حجاب؟

- حاشا لله يا سيدي الباشا، أنا لا أمتن على أحد، وليس بمقدوري أن أمتن على الإرادة السنية، إنها التي تمثل إسلامنا العزيز الذي أمرنا أن نمتثل لأولي الأمر فينا، وأن نغيّر المنكر إن رأيناه بأيدينا أو بألسنتنا أو بقلوبنا، وذلك أضعف الإيمان.

أعـاد الزبـير إسـماعيل باشـا إلى صمتـه وقـرر أن يبقيـه صامتـاً حتـى ينهـي حديثـه معـه، فأضـاف قائـلاً:

– ليكـن معلومـاً لديـك سـيدي الباشـا أننـي عندمـا جئـت لجنـوب السـودان، جئـت محمـولاً عـلى ظهـر الصدفـة، وسرت فيـه بيـد الأقـدار. كانـت دواخـلي ومنـذ سـنوات طويلـة وأنـا في موطنـي بقريتـي الجبـلي تهتـف لي بـأني تاجـر، ولسـت سـلطاناً أو ملـكاً، أنـا لم أسـعَ لذلـك في حيـاتي، ومـا تحقـق منـه سِـيق لي ولم أخـطُ نحـوه، ولعلـك تذكَّـر يـا سـيدي الباشـا خطـابي إليـك عندمـا دانـت بحـر الغـزال وشـكا لي، الـذي قلـت لـك فيـه ضمـن مـا قلـت: (أرسـلوا مـن يتـولى حكـم البـلاد التـي فتحتهـا بالنيابـة عـن خديـوي مـصر، فـإذا مـا وصـل الحاكـم وتسـلم البـلاد عـدتُ إلى تجـارتي، تـاركاً كل مـا أنفقـت مـن الأمـوال في الفتـح هديـةً للحكومـة السـنية، وانتظـرت مكافأتهـا الأدبيـة حسـب مـا تقتضيـه عدالتهـا وكرمهـا) إذا تمعنـت يـا سـيدي الباشـا في معـاني هـذه الرسـالة سـيتضح لـك جليـاً أننـي لسـت طالـب سـلطة، ومـا توليـت أمـر تلـك البـلاد إلا إذعانـاً لرغبـة الجنـاب العـالي الـذي يعـرف قـدر ولائـي، وهـي ذات الرغبـة التـي جـاءت منـك أنـت في كتـاب منـك إليَّ، وقـد كان بإمـكاني وليـس بإمـكان أي شـخص آخـر، أن أكـون الحاكـم المطلـق بـإرادتي وبقـوتي لتلـك البـلاد، ولـكل البـلاد التـي فتحتهـا، ولكـن كوابـح الدِّيـن ومعطيـات الـولاء للدولـة الإسـلامية تمنعنـي مـن ذلـك، وحتـى عندمـا عُيِّنـت الحاكـم عـلى بحـر الغـزال وبـلاد شـكا كنـت خائفـاً أن أكـون ظلومـاً جهـولاً، فـالله تعـالى قـال في محكـم تنزيلـه: (إِنَّـا عَرَضْنَـا الْأَمَانَـةَ عَـلَى السَّـمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَـالِ فَأَبَـيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَـا وَأَشْـفَقْنَ مِنْهَـا وَحَمَلَهَـا الْإِنْسَـانُ إِنَّـهُ كَانَ ظَلُومًـا جَهُـولًا)

(٦)

نظـر إسـماعيل باشـا إلى وجـه الزبـير، فـأدرك أن الرجـل يتمسـك بمبادئـه وطاعتـه للدولـة الإسـلامية التـي يمثلهـا هنـا هـو، ولا شـك لـن يسـتطيع أن يعـصي لـه أمـراً، فقـال لـه بعـد جـدال طويـل حـول أمـر الأمـير حسـب الله:

- أنـا الحاكـم وأرفـض أن يتـولى الأمـير حسـب الله الحكـم، وآمـرك بالذهـاب إلى مدينـة دارا والإقامـة فيهـا بعسـاكرك، إلى أن أصـدر إليـك أمـراً آخـر بعودتـك إلى بحـر الغـزال.

كان لا بُـدَّ للزبـير مـن الامتثـال لهـذا الأمـر، ولم يمنعـه غيظـه، فاتجه بجيشـه إلى مدينـة دارا؛ تـاركاً خلفـه الأسرى وعـلى رأسـهم الأمـير حسـب الله والأمـير محمـد الفضـل، اللذيـن تبخـرت آمالهـما لمصـير يحـدده الباشـا إسـماعيل أيـوب حكمـدار دارفـور، وهـو يعلـم أن الغضـب لـن يتوقـف في دارفـور إلا بـترك الحكـم فيهـا لأهلهـا، وبلـغ الزبـير المصـير الـذي حـدده الباشـا إسـماعيل لأولئـك الأسرى، فقـد أرسـلهم وعـلى رأسـهم الأمـيران حسـب الله ومحمـد الفضـل إلى القاهـرة.

(٧)

لم يمكث الزبير سوى شهرٍ واحدٍ في دارا حتى حدث ما كان يتوقعه في جوف استغاثة حملتها رسالة من إسماعيل باشا، قال له فيها: (إن الأمير بوش، أخ الأمير حسب الله، شقَّ عصا الطاعة وجمع بقية أولاد السلاطين في جبل مرة، وملأ الدنيا عبثاً وإفساداً، فعليك أن تخرج إليه وتخمد ثورته).

امتثل الزبير للأمر، وقاد جيشه البازنقر والبحارة نحو جبل مرة للمرة الثانية، وعندما أدركه لم ينتهِ أمر بوش بالتسليم كما انتهى أمر شقيقه الأمير حسب الله، لتنشب الحرب بين الزبير وبوش واستمرت لخمسة عشر يوماً، قرر بعدها الأمير بوش أن يهرب من الجبل، فترك الزبير قسماً من جنوده يبلغون الألف ومئتي جندي في الجبل، وترك على رأسهم ابنه سليمان ليبدأ في مطاردة الأمير الهارب بوش.

أخذ الزبير يتتبع خُطى الأمير بوش بعزم لا يفتر، حتى أدركه في موضع يقال له (صرف الجداد) بالقرب من الكلكلة أو كبيكبية، فالتحم معه في قتال شديد لتنتهي المعركة بمقتل الأمير بوش وأخيه سيف الدين وسبعة وعشرين من كبراء جيشه، وبذلك نجح نهوض الزبير في إخماد ثورة الأمير بوش تماماً، وبدأ الزبير يتوغل بجيشه غرباً، فدانت له ديار تامة والمساليت وقمر وسلا، وهمَّ بدخول دار وادي بغرض إخضاعها للحكومة الخديوية، غير أن سلطانها محمد شريف الذي كتب له بالطاعة وبرغبته في حكم بلاده تحت طاعة

الدولـة الإسـلامية مـع دفـع الجزيـة السـنوية، كان قـد أرسـل سراً وزيـره أحمـد تنقـة إلى مـصر عـن طريـق صحـراء سـيوة، مشـتكياً للخديـوي، فأمـر الجنـاب العـالي برجـوع الزبـير إلى الفـاشر، وهـو أمـر علـم بـه الزبـير فيـما ورد إليـه مـن كتـاب أرسـله لـه إسـماعيل باشـا أيـوب، فعـاد إلى هنـاك وفي قلبـه حـسرة عـلى ضيـاع هـذا الفتـح، وهـي حـسرة لم يخفـف مـن وقعهـا ذلـك التقديـر الـذي وجـده الزبـير في الفـاشر، فقـد وجـد أن الجنـاب العـالي أنعـم عليـه برتبـة اللـواء مـع منحـه لقـب الباشـا، فاسـتراح بعدهـا الزبير باشـا بعـد عودتـه مـن غـزوة دار وادي، التـي كانـت آخـر غزواتـه وحروباتـه التـي زادت عـن المئـة وعشريـن معركـة، وانتـصر فيهـا جميعـاً ولم تفشـل منهـا سـوى ثـلاث معـارك، وحنـق وغيـظ ومؤامـرات إسـماعيل باشـا تتواتـر وتـزداد، ثـم جـرت محاولـة خطـيرة لقتـل الزبـير باشـا في الفـاشر.

(٨)

بـدأ إسـماعيل باشـا أيـوب حكمـدار دارفـور إدارتـه لهـا بالـشروع في تحصـين عاصمتهـا مدينـة الفـاشر ببنـاء اسـتحكامات منيعـة، وخنـادق عميقـة، وأبـراج عاليـة، مـع بنـاء ثكنات عسـكرية، وامتـد البناء ليشـمل ديوانـاً للحكومـة وداراً للحاكـم، وقسـم البـلاد لأربـع وحـدات إداريـة هـي: مديريـة الفـاشر، ودارا، وكبيكبيـة، وأم شـنقة، ثـم وزع منشـوراً في كل البـلاد دعـا فيـه النـاس إلى الفـاشر لأخـذ الأمـان، فصـارت الوفـود تأتيـه مـن المديريـات الأربـع، فيؤمنهـم ويرجعهـم إلى بلادهـم، ثـم أمـر فعمـرت سـوق كبـيرة في الفـاشر، فعـاد النـاس إلى معاطـاة أعمالهـم بشـكل طبيعـي، غـير أن إسـماعيل باشـا أيـوب شرع في وضـع ضرائـب باهظـة عـلى المواطنـين، إذ فـرض مبلـغ خمسـين قرشـاً يدفعهـا الفـرد في السـنة، عـلى أن يدفـع المـوسرون منهـم أكثـر مـن ذلـك.

هـذا القـرار أعـاد لنفـس الزبـير ذكـرى قديمـة مؤرقـة، فقـد كان ذات يـوم مـن أيـام طفولتـه مجتمعـاً مـع ابـن عمـه وصديقـه قرب النيل في قريتهـما (الجيـلي) يحكـي لـه تفاصيـل مغامرتـه الليليـة عندمـا كان يبحـث عـن (الباسـلة) تلـك المهـرة التـي كـم تمنـى أن يقتنيهـا رغـم سـنه الصغـيرة. اجتمعا يراقبـان الزراع أعمامهـم وآباءهـم وهـم يحصدون ما زرعوا بهمة ونشاط. أصاخ محمد إلى رفيقه الزبير وهو يورد التفاصيل بدقة، ثم يسأله بشغف ولكن ثمة أصوات دفعت بهما إلى دائرة الصمت والترقب؛ أصوات قابلها المزارعون بصمود وشجاعة، كان أصحاب تلك الأصوات المزمجرة وبعضها أعجمي أجش غرباء يركبون فوق جياد قوية، ويحملون العصي والسلاح ويلبسون الطرابيش ويسألون الجميع بفظاظة عن الضرائب.

(٩)

تلـك الذكـرى السـيئة كان لهـا أثـر بليـغ في نفـس الزبـير، شـكلت في نفسـه مـع أسـباب أخـرى شـخصيته العادلـة والرحيمـة، ولمـا سـمع قـرار إسـماعيل باشـا بفـرض تلـك الضرائـب عـلى أهـل دارفـور، ذهـب إليـه مغاضبـاً ومناصحـاً وقـال لـه:
- إسـماعيل باشـا أرجـو أن تسـمعني وتنفِّـذ مـا أقولـه لـك.
- مـاذا تريـد أن تقـول يـا سـعادة اللـواء الزبـير باشـا؟
- سبق أن قدمـت لـك نصيحـة بجعـل حكـم دارفـور لأهلهـا تحـت رايـات الدولـة الإسـلامية، ولم تأبـه لنصيحتـي ولم تأخـذ بهـا، بـل رفضتهـا جملـةً وتفصيـلاً، وأخشـى ألا تسـتبين نصيحتـي لـك إلا ضُحـى الغـد..!

ابتسم اسماعيل باشا أيوب ابتسامة فيها الكثير من التهكم وقال للزبير:

- أيهـا الباشـا الزبـير مـاذا تـرى بحـق الله؟ ألا تـرى أن النـاس هنـا قـد ارتضونـا حكامـاً وأتـوا إلينـا مـن جميـع الجهـات؟ ألا تـرى أيهـا الحاكـم أننـي فتحـت الأسـواق وأقـود هـؤلاء الفـور والأعـراب نحـو المدنيـة والتحضر؟ أي حاكـمٍ منهـم يمكـن أن يُؤتـى حكمتـي حتـى نـترك لـه الحكـم؟
- هـذا الأمـر يئسـت منـه ومـن رفضـك المتواصـل لـه، وقـد فـات أوانـه بعـد أن قـدت أمـراء دارفـور ووارثـي حكمهـا إلى القاهـرة، ولكنـي أرى تحـت الرمـاد وميـض نـار أخشـى أن يكـون لهـا ضرام.

(١٠)

مسحة من غضب طافت على وجه الباشا إسماعيل وهو يقول للزبير باشا:

- هل جئتني لتعيد إلى مسامعي طلباً مرفوضاً، وأمراً قد جرت تحت جسره مياه كثيرة يا حضرة اللواء الزبير باشا؟
- لا يا سيدي، لم يكن هذا ما جئت من أجله.
- إذاً حدثني.

- جئت معارضاً ومعترضاً على ما فرضته من ضرائب على أهل دارفور.

عندها ترك إسماعيل باشا مقعده وانتصب واقفاً ودائراً حول الزبير وهو يقول له:

- ألا تدري أن الضرائب هي من أهم مواردنا؟ كيف سنقابل مصروفات الحكم وما يفرضه علينا من تداعيات، هل تريد أن نقدم للناس هنا العيش ولا نأخذ منهم ضرائب؟ كل الدول يا الزبير تفرض ضرائب على مواطنيها.

- أعلم ذلك، ولكن ما حددته هو مبلغ كبير لن يطيقه الأهالي هنا، وسيجعلهم ينفرون منا ولن يرضوا به، وصدقني سوف يرفضون ويثورون.
- من يرفض سنأخذ منه الضريبة قسراً، ومن يثور سنقطع رأسه..!

- لا نريد أن نصل إلى هذه النتيجة، وتفادياً لها أرى أن تجعل الضريبة من قرشين إلى عشرة قروش كحدٍ أقصى، فبما فرضته يثقل كاهلهم.

- دعني أفكر في الأمر، ولكن أنا أدرى بما يجب أن أفعله، وعليك الآن أن تعود إلى بحر الغزال، وتفعل ذلك فوراً.

ترك الزبير باشا المكان آملاً أن يأخذ الحاكم بنصيحته، ولكنه لم يفعل لتثبت الأيام بعد ذلك حكمة الزبير باشا، وبُعد نظره، وسلامة آرائه، وصحة توقعاته.

(١١)

كان القلـق إزاء الضرائـب المفروضـة لا يـزال يـؤرق الزبـير باشـا، وحـال وصولـه إلى بحـر الغـزال بجيوشـه أرسـل رسـالة رسـمية لإسـماعيل باشـا أيـوب، أثبـت فيهـا رأيـه حـول الضرائـب مطالبـاً بتخفيضهـا إلى الحـد الـذي بينـه في نقاشـه معـه، فـزادت الرسـالة مـن حنـق وغيـظ إسـماعيل باشـا أيـوب عـلى الزبـير باشـا، وبـدأ في التآمـر عليـه، فأرسـل رسـالة لخديـوي مـصر إسـماعيل باشـا محمـد عـلي، حشـدها بـرؤى حاقـدة، وأكاذيـب مغرضـة، متهـماً فيهـا الزبـير باشـا بالتدخـل في إدارتـه لدارفـور، وسـعيه للاسـتقلال بهـا، طاعنـاً في إخلاصـه وولائـه، ونتيجـة لذلـك أرسـل خديـوي مـصر تلغرافـاً للزبـير باشـا يأمـره فيـه بعـدم تعرضـه للحكمدار إسـماعيل باشـا أيـوب في إدارتـه للبـلاد. لم تكـن هـذه نهايـة التآمـر عـلى الزبير باشـا مـن قبـل إسـماعيل باشـا أيـوب، بـل بلـغ تآمـره عليـه حـداً خطـيراً، عندمـا كان الزبـير باشـا يُبـدي آراءه حـول السياسـات غير الرشـيدة التـي كان ينتهجهـا، قـرر اغتيالـه عـن طريـق محمـد باشـا، أحـد رجـال إدارتـه، الـذي اسـتجلب نوعـاً فاتـكاً مـن السـم مـن إسـطنبول بتركيـا، ليضـع بـه حـداً لحيـاة الزبـير باشـا الـذي بلـغ آنـذاك الرابعـة والأربعـين مـن العمـر، وقـد انتهـز محمـد باشـا الاجتـماع الـذي دعـا إليـه التجـار وحـضره الزبـير باشـا، باعتبـاره كبـير التجـار، فـدس لـه السـم في فنجـان قهوتـه، ومـا أن اسـتقرت القهـوة في جوفـه حتـى أحـسَّ وكأنَّ تـلاً هائـلاً قـد انهـار فـوق رأسـه، فأمـر أن يُحمـل إلى داره، حيـث لـزم فراشـه بـين المـوت والحيـاة لمـدة سـبعة وأربعـين يومـاً، ورغـم نجاتـه إلا أن صحتـه لم تعـد كـما كانـت قبـل هـذه المؤامـرة الخسيسـة.

(١٢)

وضحت رؤية الزبير الثاقبة، فعندما بذل لهم نصحه بمنعرج اللوى لم يستبينوا النصح إلا ضُحى الغد، فلما أثقلت الضرائب كاهل الدارفوريين لم يلبثوا أن ولوا الأمير هارون الرشيد ابن الأمير سيف الدين ابن السلطان محمد الفضل سلطاناً عليهم، وثاروا معه على الحكومة، فأذاقوها الأمرين، وبعد عامين عاد إسماعيل باشا أيوب إلى القاهرة التي سبقه إليها الزبير باشا، فقام الخديوي بتعيين الإنجليزي غردون حاكماً على السودان، وآنذاك كان السلطان الثائر هارون الرشيد قد تمكن من محاصرة الفاشر التي كان يديرها حسن باشا حلمي الجويسر، وكاد يستولى عليها، وفي ذهنه وذهن ثواره ذلك العنف وتلك القسوة اللذين كانا سمة باشبوزق الحكومة في اقتضاء تلك الضرائب الباهظة، وعندما شعر حسن باشا باقتراب الهزيمة طلب المدد من الخرطوم، فأتاه منها جيش كبير بقيادة عبد الرازق باشا، فتصدى للثوار ونجح في رفع الحصار عنها وعن دارا وكلكل ثم طارد الأمير هارون الذي نجح في سحب من نجا من جيشه المهزوم، ولما علم غردون بأمر ثورة الأمير هارون أسرع إلى الفاشر فوجدها هادئة وأدرك أسباب الثورة، فأمر الجباة بالرفق في تحصيل الضرائب وعزل جانباً كبيراً من عساكر الباشبوزق القساة وعاد للخرطوم، غير أن الأمير هارون أعاده للفاشر وهو يجدد ثورته، وعندما عاد غردون لها أطلق رأيه بأن دارفور لن ينصلح حالها إلا إذا حكمها رجل من أهلها تحت طاعة الحكومة، وكان هذا هو رأي الزبير باشا ونصيحته السابقة التي لم يتبينوها إلا ضُحى

هكـذا عـاد غـردون وهـو يعيـد للأذهـان مـا قـال بـه الزبـير باشـا مـن قبـل، بإعطـاء الحكـم لأهـل دارفـور، فأصـدر حاكـم السـودان الجديـد قـراراً بموجبـه تـم عـزل حسـن باشـا حلمـي عـن الفـاشر وسـمى الضابـط الإيطـالي مسـاداليه بيـك مديـراً عـلى دارفـور، وكخطـوة أولى نحـو تسـليم الحكـم في دارفـور لأهلهـا قـام غـردون بتعيـين المقـدوم رحمـة قومـو مسـاعداً لمسـاداليه، وعمـل غـردون عـلى البحـث عـن عائلـة السـلطان إبراهيـم ليتخـير مـن بـين أبنائهـا أرشـدهم لحكـم دارفـور، ولكـن غـردون علـم أن الأمـير حسـب الله وعائلته وأتباعه البالغ عددهم ستة وتسعين فرداً من ذكور وإناث، قـد أرسـلهم إسـماعيل باشـا أيـوب إلى الخرطوم، فوصلوها وانضمـوا إلى أبناء السلطان إبراهيم قرض الذين تـم القبض عليهم بعد فرارهم وهم: محمد الفضل وعبد الرحمن جامع وعبد الرحمن شاطوط شقيق السلطان، ومعهم عائلاتهم وأتباعهم البالغ عددهم مائتـين وثلاثة وعشرين رجلًا، وبعد فترة وجيزة تـم نقلهم إلى القاهرة، حيث استقروا في الحي المعروف بسوق السلاح، وأجريت لهم المرتبات فعاشوا في سلام، وكان من بينهم الأمير عبد الحميد بن السلطان إبراهيم وتسعة عشر آخرون من إخوته، وفي خطوتـه التـي جـاءت متأخـرة عامـين عـما ارتـآه الزبـير باشـا، أرسـل غـردون في طلـب ابـن السـلطان إبراهيـم مـن القاهـرة ليوليـه دارفـور، وبالفعـل سـار موكـب ابـن السـلطان نحـو السـودان في مفاجـأة غـير متوقعـة، وبـدأ العـز القديـم يـتراءى لـه، ولكـن بوصولـه إلى مدينـة دنقـلا أنشـبت المنيـة فيـه أظفارهـا، فحـال المـوت دون بلـوغ الأمـل، وبقـي الحكـم في دارفـور كـما هـو.

(١٣)

قبل أن تجري كل هذه المياه كان الزبير باشا قد بلغ به ما بلغ من الاستياء من الإدارة في دارفور بواسطة حاكمها إسماعيل باشا أيوب، التي وصلت إلى حد المحاولة الخطيرة التي كادت تقضي على حياته، إضافة لما كان يوغر به إسماعيل باشا أيوب صدر الخديوي ضده، ورغم أن الزبير باشا كان يعلم تماماً أن هناك من كان يحسده على نبوغه التجاري واتساع رقعة أعماله وازدياد ثروته بشكل تضخمي، بسبب مواهبه الطبيعية حتى أصبح قوة يعمل لها ألف حساب في أي مكان، وما كان يغيب عن ذهن الزبير باشا أن المستعمر الإنجليزي كان يرى في تنامي قوته وارتباطه بمصر أمراً يدعو للقلق، خاصة وأنهم يسعون إلى إضعاف النفوذ المصري في السودان لإبعادها عن هذا المسرح والانفراد به، ويعلم أنهم يتوجسون من استقلاله بالسودان وليس خافياً عليه حنقهم عليه، وهو يتجاسر على حكم الجنوب السوداني بتعاليم الإسلام وسعيه لنشر الثقافة العربية على حساب الثقافة الزنجية الأفريقية، ما يعد هزيمة لمشروع التنصير القسري الذي كانت الكنيسة تخطط لتكريسه كمنفذ فكري غربي جديد، إلا أن الزبير باشا عندما طعن في ولائه المستمد من عقيدته الإسلامية فكر في السفر إلى مصر لمقابلة الخديوي.

لم يكن الزبير باشا وهو يفكر في السفر إلى مصر مدفوعاً بشيء غير إثبات ولائه ووضع المسائل الخلافية بينه وبين الحاكم إسماعيل باشا أيوب على طاولة الخديوي، غير أن مصر الخديوية

كانت تنظر إليه بعين الريبة والتوجس والخشية من عواقب تنامي قدراته العسكرية والاقتصادية، فساعدت على تنشيط المؤامرات ضد الزبير باشا ويمنعها الحياء من محاربة رجل قدم لها أعظم هدية، بضم تلك الرقاع الواسعة لسلطانها، وقد ساعدت أجواء سوء الإدارة وفساد الذمم والضمائر في عهد السودان التركي المصري الذي بلغ حداً كبيراً على تعرض الزبير باشا للمؤامرات والدسائس، ولكن الزبير باشا الذي كان صادقاً مع نفسه ومع دينه كان يعمل بما يمليه عليه ضميره، وتفرضه عليه عقيدته، وقد ساءه إلى حد بعيد أن يعمل إسماعيل باشا أيوب على تشويه صورته أمام الخديوي، بإرسال أكاذيبه ووشاياته عنه إلى القاهرة، ليبرزه في صورة المعارض للحكم والساعي لأهداف ومصالح تتعارض مع مصالح الدولة والحكم الإسلامي، كتفكيره في الاستقلال بالسودان.

لكل ذلك استقر رأي الزبير باشا على السفر إلى مصر، وهو أمر أقلق إسماعيل باشا أيوب وأفقده توازنه، إذ لا شك ستنكشف أكاذيبه أمام الزبير باشا صاحب الحجة والحق.

(١٤)

جمع الزبير باشا قادته ومعهم ابنه سليمان ومجموعة مستشاريه ومجالسه العدلية وشرح لهم بشكل وافٍ رؤيته السياسية وفساد الإدارة وظلم الناس، ولا يمكن أن يتم الإصلاح إلا بمقابلة الخديوي بالقاهرة وشرح الأمر له، انقسم المجلس في رأيه، فبعضهم أيد الزبير باشا في رؤيته والبعض رفض أن يسافر الزبير باشا، وكان دافعهم الخوف عليه من أعدائه وعدم تمكنه من العودة، غير أن الزبير باشا تمكن من أن تتم مباركة قراره بالسفر بعد أن أوضح للجميع وقال لهم إنني أسعى لمقابلة الجناب العالي لأعرض عليه حقيقة الحال وأنظر معه ومع رجال حكومته في تنظيم البلاد التي فتحناها على أيدينا، وما يمكن أن نضيفه إليها في المستقبل، بعدها أعد الزبير باشا رسالته للجناب العالي حوت تلك المعاني وطلباً للسماح له بمقابلته.

لم يمضِ وقت كثير حتى ورد الرد تلغرافياً من الجناب العالي على الزبير باشا، جاء فيه: (سعادتو زبير باشا لقد كانت أفكاري متعلقة بك، لكن بالنظر لما بيني وبينك من بُعد المسافة، ولما هو بالغ مسامعي عما أنت فيه من المشغوليات الجسيمة، ظننت أنه لا يتيسر حضورك، فلما ورد تلغرافك بطلب مقابلتي بمصر صرت ممنوناً، فبادر واحضر إلى مصر لأجل المداولة معك في تشكيل حكمدارية تكون مفوضة بك، وتحت إرادتك، وها قد تنبه على جميع طلباتك بغاية الإعزاز والإكرام)

(١٥)

بـدأ الزبـير باشـا يتلـو مـا ورد إليـه مـن سـمو الخديـوي إسـماعيل باشـا محمـد عـلي، خديـوي مـصر، عـلى أسـماع قادتـه ورجالـه، فهلـل البعـض وتبادلـوا التهـاني، وعندمـا رأى الزبـير باشـا أن الابتسـامات علـت الوجـوه وأدهـا بتقطيبـة ثـم قـال:

- كنـت سـأفرح مثلكـم لـو أن الخديـوي سـمح لي بالسـفر إليـه ومقابلتـه، ولكـن ورود هـذه البرقيـة بهـذا الشـكل دفـع إلى نفسي بعـض الهواجـس، فسـموه لم يسـمع منـي بعـد، ولكنـه يقـول مسـبقاً دعوتـه للمداولـة لأجـل تشـكيل حكومـة تكـون مفوضـة بي. هـذا الأمـر أقلقنـي وأشـعرني أنـه محـض استـدراج معـه أحـسُّ بـأني لـن أعـودَ إلى السـودان.

عندهـا شـعر رجـال الزبـير بـما شـعر بـه، أخـذوا يقترحـون عليـه بـإصرار عـدم السـفر إلى مـصر ويقولـون لـه: (لا تسـافر يـا باشـا) ولكـن الزبـير فاجأهـم بقولـه:

- رغـم كل شيء إلا أني سأسـافر، نعـم سأسـافر، لأنـه مـن مقتضيـات الإخـلاص والـولاء أن أسـتجيب لكلمـة الخديـوي، ومـن دواعـي شرف النفـس الصادقـة أن أحافـظ عـلى كلمـة قلتهـا.

تداخلـت المشـاعر وتباينـت في النفـوس، فبـدأ البعـض ينظـر إلى قائدهـم الزبـير باشـا نظـرة عميقـة، وكأنهـم يريـدون أن يكرسـوا صورتـه في أذهانهـم للأبـد، وكأنـما الوقـت وقـت وداع والبعـض يحـدوه أمـل آخـر، وعـلى كل بـدأت الرحلـة إلى مـصر وكانـت رحلـة تاريخيـة خلدهـا الشـعراء والشـاعرات.

(١٦)

لم يخلُ وداع الزبير باشا وهو يتهيأ للسفر إلى مصر من الأشجان والدموع، فالزبير باشا لم يتخلَ في يوم من الأيام عن أهله ورجاله وقادته وأفراد جيشه، إلا عندما يكون في مهمة تلزمه النهوض سواء كانت تجارية أو سياسية أو حربية، لذا لم يكن يغيب كثيراً عن أعينهم، وهم الآن لا يدرون هل سيعود لهم قائدهم المحبوب أم لا، هل ستعانق أعينهم وجهه من جديد أم لا؟

وقفت القوة التشريفية من جيشه مصطفة فوق البساط، وامتطى الفرسان جيادهم وركب الهجانة جمالهم وأفراد سلاح المدفعية وقفوا خلف مدافعهم، والمشاة يتمسكون ببنادقهم بانتظام، وأفراد فرقة الموسيقى العسكرية يضعون أمامهم طبولهم وآلاتهم الموسيقية النحاسية، وأفراد الألعاب النارية يستعدون لإطلاق ما في أيديهم في يوم الوداع، وقواد جيشه يقفون في المقدمة بهامات مرتفعة وأجساد منتصبة ووجوه حزينة، البطل سليمان الزبير والبطل رابح فضل الله، والبطل حامد ود مزمل، والبطل النور عنقرة، والبطل الزاكي طمل، والبطل حمدان أبوعنجة، وفرسان وأبطال الجموعية بقيادة ابن عمه محمد عبد القادر وغيرهم من القادة، جميع من كان في ساحة الوداع المهيبة كان يلبس زيه العسكري كاملاً، وكل فرد يحمل رتبته وشارته، وفي الساحة ترتفع الأعلام عالياً كأنها تنظر للسحب التي تراكمت فوق السماء، وظللت الأرض، وكأنها تغازل تلك العصافير وهي تزقزق فوق أفنانها على الشجر.

الـكل كان يضـع كفـه مفـردة عـلى جانـب رأسـه، شـارعاً في التحيـة العسـكرية والزبـير باشـا بردائـه العسـكري ونياشـينه ورتبـة اللـواء يقـف منتصبـاً فـوق منصـة الـوداع، وهـو يحيـي جنـوده في اسـتعراضهم العسـكري الـذي كان يمـر مـن أمامـه والمدفعجيـة يطلقـون مئـات القذائـف في الهـواء والألعـاب الناريـة تـضيء الأفـق، ويعانـق الرصـاص وأزيـزه في سـمائه، كل ذلـك كان منسـجماً مـع الموسـيقى التـي كانـت تعزفهـا فرقـة الزنقـران دون توقـف. وخلـف المنصـة، كان هنـاك مـن يضـع اللمسـات الأخـيرة لركـب الزبـير باشـا الـذي ضـم حاشـيته وعائلتـه وبعـض أتباعـه والمـؤن اللازمـة، والهدايـا التـي قـرر أن يحملهـا للخديـوي ألـف جنـدي مسـلح، ومئـة جـواد مـن جيـاد الخيـل العربيـة، ومئـة وخمسـة وسـتين قنطـاراً مـن سـن الفيـل المتناهيـة الكـبر والجـودة، وأربعـة أسـود وأربعـة نمـور وسـت عـشرة ببغـاء. وعندمـا اكتمـل الاسـتعداد لهـذه الرحلـة التاريخيـة الضخمـة وانتهـت مراسـم الـوداع الرسـمية، وضـع الزبـير باشـا كفـه للتحيـة العسـكرية عـن وجهـه البهـي الـذي بـدا بشـاربين خفيفـين ولحيـة صغـيرة، وأخـذ يـودع الجميـع بحجابـه السـهل وقلبـه الذكـي وإرادتـه القويـة وطبعـه الكريـم وصوتـه الحديـدي ولهجتـه الفصيحـة، وداعـاً مؤثـراً، فحزنـت السـماء وتقاطـر منهـا شيء كأنـه رذاذ مطـر، كأنـه دمـوع.

(١٧)

ترجـل الزبـير باشـا نحـو موكبـه المهيـب الـذي تمـت محاصرتـه مـن جهاتـه الأربـع بالأهـالي الذيـن أحبـوه، وبجنـوده الأوفيـاء وقـواده الأشـاوس، وقبـل أن يعتـلي مركبـه بـدأت المزامـير تطلـق لحنـاً حزينـاً لم يحتملـه أحـد القـادة، فـضرب ببروتكـول المراسـم عـرض الحائـط وأخـذ ينطلـق مهـرولاً مـن الصـف الأول للقـادة تجـاه الزبـير باشـا، وهبطـت كفـه فـوق كتفـه فالتفـت إليـه الزبـير باشـا، فـرأى وجهـاً قـد عصـف بـه الحـزن والأسـى، فقـال لـه الزبـير باشـا:

- لا تحـزن يـا ابنـي رابـح، أنـا يـا غـرق يـا جيـت حازمهـا، ومخـلي فيكـم ولـدي سـليمان الحـاج.

بشفاه مرتعشة رد رابح قائلاً:

- سـمعاً وطاعـةً لـه، ولكنـي أخشـى ألا أرى وجهـك الصبـوح يـا أبي مـرة أخـرى، أخشـى أن يكـون هـذا وداعنـا الأخـير.

هنيهـات مـن الصمـت سـمحت لسـاعدي رابـح المضطربتـين أن تلتفـا حـول عنـق الزبـير، فجذبـه الزبـير إلى أحضانـه فخـرج نشـيج مـن جـوف رابـح، وعندمـا تمكـن مـن لسـانه اسـتحال إلى بـكاء مُـر، ضرب آذان القـادة فأحسـوا في قلوبهـم بوخـزة وألم، فطـاروا بالعنـاق نحـو الزبـير ورابـح، واتسـعت دائـرة العنـاق وتسـاقط الدمـع السـخين في مشـهد يعجـز القلـم عـن تصويـره، ولم ينتـهِ ذلـك العنـاق إلا بعـد أن زأرت الأسـود وضرضرت النمـور في

أقفاصها في موكب الزبير، وطارت العصافير من أفنانها وهزيم الرعد ينتظم السماء والرياح بهزيزها تضرب الأشجار فتحف حفيفاً حزيناً.

اعتلى الزبير باشا مركبه في مقدمة الركب وهو يرفع للجميع كف الوداع، فارتفعت أكفهم لا تودعه فحسب، إنما تتمنى له سلامة الوصول والعودة بصدق ووفاء تكاد تنزف له القلوب، والأهالي الحزانى من حواليهم عقدوا أمرهم على شيء، فعندما تحرك ركب الزبير باشا اندفعت جموع الأهالي من خلفه بسيوف مسلولة وحراب مشرعة وهم يهرولون مودعين وباكين، ولم يعودوا حتى اختفى ركب الزبير في الأفق وفي رؤاه خواطر وأشجان. وهناك في ساحة الوداع والأحزان عندما جفت الدموع كان سليمان الحاج الزبير باشا ينظر للأفق الذي انسرب فيه والده، وعيناه لا تطيقانه، فأشاح بوجهه نحو الأشجار فرأى فوقها بومة تنعب وغراباً ينعق فقال: أعوذ بالله. وعندما تخلص من المشاعر التي انتابته وأثقلت نفسه التفت إلى القادة وإلى أفراد الجيش، وأخذ يصدر لهم الأوامر والتوجيهات، فعلم الجميع أن سليمان بات القائد المكلف لجيش البازنقر والبحارة، وكان ركب والده الزبير هناك يقطع الدروب والمسافات والسهول التي كان يعرف الباشا نهادها نهدة نهدة، ووهادها وهدة وهدة، وأخذ يضع الذكريات المضيئة في المواضع والقرى والبنادر التي كان يمر بها موكب الرحيل والسفر، فيخرج أهلها مستقبلين مستبشرين بمقدم الرجل العظيم، الرجال يحمحمون والنساء يزغردن والأطفال يتصايحون والكل يهلل ويكبر، حمحمات وزغاريد وصياح وتهليل وتكبير يأخذ ببعضه بعضاً على طول الطريق، حتى وصل الزبير باشا إلى مدينة الأبيض.

(١٨)

أناخ الزبير باشا رواحله في مدينة الأبيض وسط أجواء من الاستقبال الحميم والفرحة الكبرى بمقدمه ومروره، وعندما أوغل الليل بدأت الصور تتداعى في ذهب الزبير باشا وهي تنقل له مشاهد كثيرة من الوداع والاستقبال الذي كان يتجدد في مسيرته نحو مصر، فبدا في حالة عظيمة من الأشجان ضاعفها هديل القماري الذي كان يغشى أذنيه فيغزو وجدانه:

بَعَدْ مَا قُنَا رُقْنَا ومِنْ سَهَرْنَا هَجَعْنَا
كَرْ يَا قُمْري لا تْسَربْ عَلينا وَجعْنَا
حَبينَا البَوادي ومِن أهلنا نجعْنَا
يا رَيتْ كُنَا مِن أَولْ شُهُورَنا رَجَعْنَا..

غير أنّ الأقدار دائماً ما كانت تنسج للزبير باشا حله وترحاله، كأنما كانت تراجيديا لا يفهم معناها، ولعبة لا تفصح عن مغزاها، والصباح يطل وتكشف الشمس عن الدنيا وما فيها والركب يستعد لاستئناف الرحلة من جديد صوب الخرطوم، غير أنّ ما وجده الزبير باشا من حفاوة في مدينة الأبيض عروس الرمال حاضرة مديرية كردفان، جعل حال لسانه يقول وهو يغادرها بموكبه المهيب:

أفدي الأبيض أفدي النازلين بها**مثوى الأكارم أشياعي وأنصاري

إنّ الذي قد كساكم من صنائعه**ثوب الفضيلة عراكم عن العارِ

حوافر الخيول تضرب الأرض وأخفاف الجمال تنهب الطريق، وركب الزبير باشا يحفه استقبال وراء استقبال، ويشيعه وداع إثر وداع حتى وصل إلى الخرطوم.

قبل مغادرة الزبير باشا للأبيض وفد إليه ملكان أولهما ملك البرقو الذي جاءه وفي نفسه هوًى وطاعة راضياً بالخضوع له ودفع الجزية، واعداً بفتح الطرق وتأمينها؛ جاءه في وفد مصطحباً فرسين هدية له فقال له الزبير:

- عليك أن تسارع وتلحق بي في القاهرة لأناقش أمرك وأمر قومك أمام الخديوي، وهناك نضع معاهدة بيننا ونبصم عليها.

وعندما ودعه رد الهدية بأحسن منها أربعة خيول مطهمة، فعاد ملك البرقو لقومه متلفحاً بالبشارة، سعيداً بقرب عهد مملكته للانضمام إلى دولة إسلامية عادلة، يقف على رأسها رجل عظيم يدعى الزبير باشا.

ومن منطقة جبلية في كردفان جنوب الأبيض تدعى تقلي، أسرج ملكها خيوله صوب الزبير باشا وهو يتهيأ لمواصلة رحلته التاريخية وفي نفسه عزم ألا يفوته شرف لقاء الزبير باشا وضم مملكته إلى أراضيه، ليستظل بالرفاهية وإنقاذ مجتمعه من ما هم فيه من بداءةٍ وتخلفٍ، وعندما أدركه وأكرم الزبير باشا وفادته، أعلن الولاء مرتضياً دفع الجزية، معلناً قبوله بحكم تقلي تحت راياته، رغم أن تقلي كانت تستعصي دائماً للخضوع لأحد محافظةً على استقلالها، نائيةً عن أطماع حكام دارفور وكردفان، غير أنّ الزبير باشا شأنه شأن آخر لذا قال

لـه:

- لقـد سـمعنا عنـك الكثـير سـيدي الزبـير باشـا، سـمعنا عـن عدلـك وإحسـانك وكرمـك وفروسـيتك، وإذا رأيـت أن تقبلنـا فإننـا سـنعلن جميعـاً الخضـوع لـك.

فأجابه الزبير باشا قائلاً:

- يسـعدني ذلـك يـا جلالـة الملـك، فقـط دعنـي أرتـب الأمـر مـع الخديـوي حـال وصـولي للقاهـرة.

(١٩)

آمـالٌ وأمـانٍ بـدت تختلـج في صـدر الزبـير باشـا، راجيـاً أن تتحقـق في زيارتـه للقاهـرة، كانـت تدهمـه بشـكل ملـح فهـا هـو الآن يدخل في طـورٍ مـن أطـوار مجاهداتـه الجديـدة بعـد أن حقـق الكثـير جـداً، وبـدأت الملـوك والوفـود تلتقيـه أثنـاء سـيره بـولاءٍ وطاعـةٍ وفرحةٍ، فيـما ينبـئ بتقبلـه زعيـماً للسـودان كلـه. إنهـا بشـارات يسـتعذب حملهـا لخديـوي مـصر إسـماعيل باشـا إبراهيـم محمـد عـلي باشـا، وفي خاطـره أن إسـماعيل باشـا أيـوب حاكـم دارفـور رجـل تافـه مـن سـقط المتـاع، ولكنـه تأدبـاً لـن يقـول رأيـه هـذا للخديـوي، ولكـن سـيقول لـه: (لقـد قـدم هـذا الرجـل سـيدي الخديـوي وهـو لا يعلـم شـيئاً عـن مـن سـيحكمهم، ولم يفكـر في شيء سـوى أن يصبـح غنيـاً، ولم يكـن تعاملـه مـع أهـل دارفـور لائقـاً، فـأول مـا فعلـه هـو إرسـال كبـار رجالهـا وأمرائهـا وحتـى النسـوة اللـواتي ينتمـين إلى عائـلات ذوات مكانـة رفيعـة إلى القاهـرة، لقـد بعـث بهـم مسـوقين بالأغـلال حتـى أن بعضهـم مـات في الطريـق، هـذه يـا سـيدي ليسـت الطريقـة الأمثـل للحكـم، كان عليـه أن يتخـذ مـن رجـال دارفـور الأمـراء والكبـار أصدقـاءً لـه، بـدلاً مـن معاملتهـم بهـذه المعاملـة التـي لا تليـق بهـم، وليتـه توقـف عنـد هـذا الحـد يـا سـيدي، لقـد توغـل في قسـوته أكثـر وهـو يفـرض عـلى أهـل دارفـور ضرائـب نقديـة باهظـة، فرضهـا عـلى أنـاس لم يسـبق لهـم أن واجهـوا ضريبـة، لقـد كان الـزُّراع وغيرهـم في تلـك المناحـي يـؤدون مـا كُتـب عليهـم عينـاً مـن الحِنطـة، أو بـأي نـوع مـن البضائـع تكـون في حوزتهـم، أمـا الضريبـة النقديـة ضريبـةً الدقنيـة، فإنهـم لا يسـتطيعونها ولـو رغبـوا في سـدادها).

(٢٠)

كان الركب يسير نحو الخرطوم ولا تزال الخواطر ترتب للزبير باشا أفكاره ورؤاه التي ينوي أن ينثرها على طاولة الخديوي إسماعيل بقصر عابدين في القاهرة، ولم يزل أمر الضرائب يؤرقه، فيثير خاطراً من خواطره المناداحة فيقول لنفسه: (سأكون واضحاً وصادقاً مع الخديوي وأقول له: ارتفاع الضرائب وجبايتها بقسوةٍ وعنفٍ يا سيدي الخديوي، ملأ الناس فزعاً ورعباً، إنّ أغلبهم فقراء يا سيدي، لذا فرَّ أغلبهم، وهجروا ديارهم، واتجهت وفودٌ منهم صوبي متوسلين لأشفع لهم بالتوسط لدى حاكم دارفور، فذهبت إليه محتجاً ومعترضاً وقلت له: هذه ليست حكومة ولكنه سلب ونهب وفساد، وما تفعله بالناس هنا سيدمر البلاد وسيهب أهلها عاجلاً أم آجلاً ويقفون ضدك. عندما وردت سيدي الخديوي برقيتك التي أمرتني فيها بعدم التعرض لسياسات إسماعيل باشا أيوب ومعارضتها، علمت أنه من أوغر صدرك ضدي بالأكاذيب، ولكن الحقائق يا سيدي أن أيوب لم يصغ إلى قولي ولم يعمل بنصحي ولم يستمع لصوت العقل، ولم تكن لديه شفقة أو عطف لمن هم بحاجة إليه، ولم يشأ أن يغرس البذرة ويزرع بأناةٍ وصبرٍ، بل أراد أن يكتنز كل المحاصيل ويكنسها كنساً ويذهب بها، فدمر البلاد من أجل أن يحقق لنفسه الثراء. وأقول لك يا سيدي الخديوي إنه يجب الانتباه للحكام الذين تبتعثونهم لحكم أقاليم السودان المختلفة، إذ يجب أن يكونوا طيبين وشرفاء، فقد رأينا حكاماً يأتون فقراء ويعودون أغنياء، وكل من جاء جائعاً حل مكان من كان نصف قانع وراضٍ بحاله، ولن يكون والحال هكذا يا سيدي الخديوي سهلاً الاحتفاظ بالسودان وحتماً ستفقدونه).

(٢١)

نقعٌ كثيفٌ تثيره الحوافر والأخفاف وأصوات أبواق ونحاس، وأصوات رجالٍ ونساءَ، ومشاهد ذبحٍ ونحرٍ أخرجت الزبير باشا من خواطره ولقائه المتخيل بخديوي مصر، وأنبأت بوصوله للخرطوم. وبعد احتفاء الناس وأكابرهم به وتهنئته بسلامة الوصول، اتجه ركب الزبير باشا شمالاً متوقفاً بسراياه التي بناها بمنطقة السقاي وقريته الجيلي، حيث كان استقباله يجل عن الوصف، ارتفعت الرايات وتعالى صوت النحاس وابتسامة واهنة تشق طريقها من جوف والدته شمة وتحط بهدوءٍ على وجهها وقد كانت تعاني حمل المرض وحمل السنوات فوق أكتافها، وقالت له بصوتٍ واهنٍ:

- حباب ولدي حدباي، حبابك وحباب اليوم الجابك، يا ملك يا سلطان السلاطين، تعال لي جاي بدور أشم ريحتك بدور أودعك، قالوا لي مسافر لي مصر.

صمت الزبير باشا وتهدجت أنفاسه وهو بين أحضانها التي لم تعد قوية وقادرة على ضمه أكثر، فسأل الله أن يطيل عمرها ويعود وهي على قيد الحياة، ولكن الله اختارها إلى جواره وهو في مصر، فبكاها مُرَّ البكاء.

برفقٍ تخلّص من أحضانها ونظر إلى ذلك الرجل الذي كان يستعين بعصاه، وبدا ظهره محدودباً أكثر، إنه والده رحمة، فانكب يقبل جبينه ويديه ثم يودعه وداعاً مؤثراً، ولم يكن يدري أن هذا هو الوداع الأخير لأب فاضل قاده في دروب

العلـم والمجـد، وهـا هـو شـقيقه بطـران الـذي آثـر أن يبقـى في الشـمال ليحافـظ ويرعـى الأسرة وثـروة شـقيقه الزبـير باشـا ومخـازن أسـلحته، فقـال لـه الزبـير باشـا وهـو يودعـه:

- ابقَ عشرة على العقَاب يا بطران.

عندمـا بـدأت خطـوات الزبـير باشـا تتجـه نحـو ركبـه المسـافر، قالـت والدتـه لبنتيهـا فاطمـة وعائشـة:

- قبـال مـا تودعـوا الباشـا شـيلو الـتراب مـن تحـت قدميـه مـن أثـرو عشـان يعـود لينـا بالسـلامة..!

الركـب يتجـه أكثـر نحـو الشـمال والزبـير باشـا ينظـر مـن البعـد إلى مسـقط رأسـه قريـة واوسي، وتنسـاب إليـه ذكريـات الطفولـة الباكـرة، ثـم يتوغـل الركـب أكثـر في ديـار الجعليـة وتبـدأ المواكـب تحفـه كوكبـاً كوكبـاً، وتودعـه صفـاً صفـاً، حتـى أدرك مدينـة بربـر التـي خرجـت عـن بكـرة أبيهـا لاسـتقباله ثـم وداعـه ليصـل إلى أبي حمـد، ويتجـه شـاقاً بـلاد الشـايقية فرحبـوا بـه وهـو يقـول لهـم: (انتـو مـا أولاد عمنـا)

(٢٢)

في العـاشر مـن يونيـو مـن عـام ١٨٧٥م، حـطَّ ركـب الزبـير باشـا في أرض النوبـة المصريـة بطريـق قريـة كورسـكو، ثـم تجاوزهـا إلى أن بلـغ هدفـه بالقاهـرة مدينـة الجيـزة، حيـث انتهـت هـذه الرحلـة التاريخيـة التـي خلدتهـا شـاعرته بـت مسـيمس حينـما قالـت:

في الخرطوم نزل ادلى بالبابور**وفي بربر رسا بالقهوة غفرو يدور
جابولو الجمال اتوجه العتمور**حلق الريف نزل قال لي مصر دستور
في بلد النصارى كم سحت بالبابور**كل صبح جديد راكب على الحنتور
من قومة الجهل إنتا المن قديم منصور**أدوك الأمان خايفين عليك الجور
في السودان قبيل ما بشبهوك الناس**ويا جبل الدهب الصافي ماك نحاس
بارود النصارى عن قمزة الكباس**خليت المجوس ألين من القرطاس
عدا عصرو زين في ديار بلاد الناس**وفي دار الغروب دقيت للرجال أساس
كم كتل سلاطين خلى ديارا يباس**ود رحمة الزبير تم الرجالة خلاس

كانـت نفـس الزبـير باشـا وفطرتـه الطبيعيـة ميَّالـة للتحضُّـر، ولهـذا عمـل مـا في وسـعه لنـشر الحضـارة والتمديـن في المناطـق التـي آلـت إليـه في جنـوب وغـرب السـودان، وعندمـا رأى القاهـرة للمـرة الأولى وهـو يحـط فيهـا بعـد رحلتـه التاريخيـة، انبهـر بمظاهر الحداثـة والعمـران فيهـا، وحشـدته الأمـاني لينعـم السـودان بمثـل هـذا التطـور عـلى يـده أو يـد غـيره. راعـه جمـال القاهـرة تلفتـاً وتحـيراً، فقـد كانـت القاهـرة آخـذة بأسـباب التقـدم، شـوارعها مضيئـة بالغـاز، وميـاه الـشرب العذبـة تنتقـل بالأنابيـب إلى المبـاني والمسـاكن، فانـزوى السـقَّاءون للمقعـد الخلفـي. الميادين خـضراء

والشـوارع فسـيحة، وقصـورٌ ومبـانٍ وجسـور تطـل عـلى النيـل، وحدائـق متناثـرة غنيـة بالأشـجار والنخيـل والنباتـات النـادرة. شـعر الزبـير باشـا بـأن كل هـذا الجـمال يرحـب بـه، وسـعد كثـيراً وهـو يضـع قدمـه في باحـة قـصر الجيـزة لمقابلـة خديـوي مـصر وتحيتـه يـداً بيـدٍ للمـرة الأولى. كان بالقـصر قاعـات وصالونـات تتميـز بألوانهـا الزاهيـة المختلفـة، ومفارشـها الفخيمـة، وسـقوفها التـي تضيئهـا الشـمعدانات الكبـيرة كبـدور عـلى صـدر السـماء. القـصر يحـوي مسرحـاً بمقاعـد ذات لـون ذهبـي، وكثـيراً مـن الأجنحـة والتحـف البديعـة ذات الثـراء التاريخـي البـاذخ. هنـاك أسـلحة عتيقـة نُسِّـقت بنظـام، فبـدت كمعـرض أخـذ لـب الزبـير، وهنـاك في ركـن غـير قـصي في باحـة مـن باحـات القـصر، يقبـع متحـف مقتنيـات أسرة محمـد عـلي باشـا، مـن أدواتٍ وأوانٍ مـن الفضـة والكرسـتال والبلـور الملـون وغـير ذلـك مـن التحـف النـادرة.

(٢٣)

بـدا خديـوي مـصر إسـماعيل باشـا وهـو يسـتقبل الزبـير باشـا بحفـاوةٍ وقامـةٍ أقـرب للقِـصر، وجسـد أقـرب للامتـلاء والبدانـة. وجهـه الدائـري تلـف حولـه ذقـن زاحفـة بجـوار أذنيـه وتصـل شـعر رأسـه في تهذيـبٍ وتنسـيقٍ، وتمتـد أسـفل فكـه وتعلـو ملتحمـة بشـاربه الـذي يغطـي شـفته العليـا. طربـوش أحمـر أنيـق يرتـاح فـوق رأسـه، تحتـه عينـان ذكيتـان ووجـه وسـيم. البِذلـة الإفرنجيـة السـوداء المتدليـة إلى ركبتيـه تظهـر تحتهـا قميصـاً ناصـع البيـاض، مذهـب الأزرار، مجمـلاً بربطـة عنـق أنيقـة بالـكاد تطـل مـن تحـت بِذلتـه التـي تزينهـا نياشـين كبـيرة تحتـل جانـب صـدره الأيـسر. اللـواء الزبـير باشـا حاكـم شـكا وبحـر الغـزال بقامتـه المديـدة، ولباسـه الرسـمي المرصـع بالشـارات ورتبـة اللـواء، يتقـدم نحـو خديـوي مـصر الـذي مـدَّ لـه يـده مبتسـماً وهزَّهـا في مـودةٍ وهـو يقـول لـه: أهـلاً بسـعادة الحاكـم الزبـير باشـا في مـصر، مرحبـاً بـك وتهانينـا لكـم بسـلامة وصولكـم وقدومكـم إلينـا.
- شرف أن ألتقيك سيدي الخديوي أنا سعيد حقاً بهذا اللقاء.

- وأنا سعيد بزيارتك فأنت رجل تستحق احترامنا وتقديرنا.

- أنا سعيد لأنني أخدم الدولة الإسلامية.

كان اللقـاء ودوداً تعـددت فيـه الابتسـامات والضحـكات، وانتهـى بتقديم الزبـير باشـا هديتـه الفخمـة للخديـوي الـذي سـعد بهـا غايـة السـعادة، وأمـر بإنزالـه بقـصر الزعفـران بالعباسـية هـو وعائلتـه وأتباعـه، وترتيـب كل مـا يحتاجـون إليـه لتفـترق الخُطـى عـلى أمـل لقـاءٍ قريـبٍ.

(٢٤)

مكث الزبير باشا بقصر الزعفران زهاء الثلاثة أسابيع لا يشغله شيءٌ سوى التفكير في أمر بلاده، آملاً صدور الإشارة للقائه الرسمي الثاني بخديوي مصر، ليضع أمامه الرؤى والحقائق، فيصيب الهدف الذي من أجله سعى بهذه الزيارة. كان القلق ينتابه من حينٍ إلى آخر، وهو في انتظار تلك الإشارة. قلقٌ لم تكن تقطعه تلك الحفاوة الترحيبية البالغة من كبار رجال مصر ووزرائها. عندما وردت الإشارة تحمل في طياتها دعوة الخديوي إلى لقائه بقصر الجيزة، زال قلقه وخفق قلبه، وسارع في تلبية الدعوة محتقباً آماله وأمانيه ورؤاه الإصلاحية. وكعادته كان الخديوي إسماعيل ودوداً معه وكريماً على نحوٍ لا يُصدق. يجد الزبير باشا صعوبة في طرح كل ما لديه على الخديوي الذي كان يستمعُ إليه بطريقة جيدة. أخيراً قال له الزبير باشا:

- كل الأمر الآن بين يديك سيدي الخديوي، ونحن بانتظار رأيكم وأوامركم السنية. رد عليه الخديوي قائلاً:

- قطعاً سأفعل ما فيه الخير للبلاد والعباد، وأشكرك على وضوحك ورؤاك الصائبة، غير أنّ ما ذكرته لك سابقاً في برقيتي بشأن تشكيل حكمدارية تكون مفوضة بك وتحت إدارتك، يلزمه بعض الوقت لإصدار الفرمانات المناسبة، وهذا لا يمنع أن تستعد للسفر قريباً إلى السودان. بعد أحاديث متفرقة بينهما ودع الخديوي ضيفه الزبير بذات الحميمية والمودة التي استقبله بها، فخرج من قصر الجيزة وهو في غاية السعادة، وهذا ما لاحظته حاشيته وأتباعه بقصر الزعفران مقر إقامته بالعباسية، الذين تربو أعدادهم على ثلاثمئة شخص من

شمـاليين وجنوبيـين.

لم يخـفِ الزبـير باشـا سـعادته عـن زوجتـه السـيدة زينـب بنـت منصـور التـي رافقتـه إلى مـصر، بعـد أن انضمـت للرحلـة مـن الجيـلي، فقالـت لـه:

- إن شاء الله دائماً فرحان ومنصور يا باشا.

فقال:

- لقـد سـمعني الخديـوي جيـداً وأثنـى عـليَّ ووصفنـي بالرجـل المؤمـن، وأسـأل الله أن يمتـد بي العمـر لتقديـم المزيـد مـن الخدمـة للإسـلام والسـودان.

بعفويتها وبساطتها سألته:

- أهـا مـا كلمـك عـن الهديـة الجبتهـا ليهـو، إن شـاء الله يكـون مبسـوط منهـا؟

فرد عليها قائلاً:

- أبـدى لي سـموه سـعادته بهديتـي لـه، وإن قـال لي إن أعظـم هدايـاك هـي تلـك الرقعـة الواسـعة التـي ضممتهـا للدولـة الإسـلامية والتـي تعـادل مسـاحة دولـة فرنسـا أو أكثـر.

أخـذ الزهـو يغـزو كيـان السـيدة زينـب بنـت منصـور غـير أنهـا تذكـرت شـيئاً فسـألته:

- إنتا يا أبو ميسرة الألف نفر الجبتهم للخديوي ديل عبيد؟

ابتسم الزبير باشا وقال لها:

- بتعرفيني يا زينب زولاً بخاف ربي، أنا ما تاجر رقيق والألف نفر ديل من جنودي الذين أحبهم ويحبونني وبينهم خمسة وسبعون من أبناء ملوك وزعماء المناطق التي فتحتها، إنهم هنا دعم مني لحماية الدولة الإسلامية، لم آتِ بهم قسراً ولم أضعهم في الأغلال، كما فعل إسماعيل باشا أيوب، هم بكامل أسلحتهم وأزيائهم العسكرية، فضلاً عن هذا أريد أن أمنحهم فرصة لن تواتيهم أبداً لمشاهدة التقدم والتمدن هنا في مصر، ولن أسمح بمعاملتهم معاملة الرقيق.

(٢٥)

عندمـا كان الزبـير باشـا يسـتعد للعـودة إلى السـودان بحاشـيته ومرافقيـه الكُثـر، كان عليـه إنجـاز العديـد مـن الأعـمال وتلبيـة الكثـير مـن الدعـوات، وكانـت أحاسـيس التاجـر تعتمـلُ في دواخلـه، لـذا أقـدم عـلى شراء سـفينتين بمبلـغ ضخـم، ومـلأ هاتـين السـفينتين بشـتى أنـواع البضائـع، ولمـا فـرغ الزبـير مـن كل ذلـك وصـار مسـتعداً للسـفر، أخـذ ينتظـر الإذن لـه بالسـفر، غـير أن انتظـاره طـال وامتـد لخمسـة أشـهرٍ كاملـة، كان خلالهـا يلتقـي بالخديـوي في المناسـبات العامـة ويتحدثـان حديثـاً لطيفـاً حـول الشـأن العـام، وعندمـا يسـأله الإذن بالمقابلـة والسـفر ومناقشـة مـا تـم التصريـح بـه في شـأن السـودان ودارفـور، كان سـؤاله يُقابـل بالمماطلـة والتسـويف.

أخـيراً وبعـد كل تلـك المـدة أذن الخديـوي للزبـير باشـا بمقابلتـه، وقـال لـه بـكل صراحـة ووضـوح: لا لـزوم ولا فائـدة لأن نتحـدث معـاً أبـداً، فأنـا أعـرف أنـك رجـلٌ مقتـدر وأنـا واثـق مـن أنـك سـتحكم دارفـور حكـماً جيـداً، ولكنـي وبـكل صراحـة أنـا خائـفٌ منـك.! فقـد جعلـت نفسـك قويـاً جـداً، وإني لأخشـى إذا أعطيتـك السـلطة التـي تريـد أن تؤسـس إمبراطوريـة في دارفـور تنافـس بهـا، بـل ربـما تخضـع لهـا مـصر ذاتهـا، فمـصر ليسـت قويـة للحـد الـذي تحتمـل معـه وجـود جـيران لهـم مثـل مـا لـك مـن قـوة، ولذلـك عليـك أن توطـن نفسـك عـلى أن تعيـش معـي هنـا في القاهـرة، وسـأكفل لـك معاملـة كريمـة حسـنة، وسـتكون لـك الحريـة الكاملـة المطلقـة، فقـط لن يسـمح لك بالعـودة إلى السـودان

مـرةً أُخـرى..!

كلـمات الخديـوي كان لهـا وقـع الصاعقـة عـلى رأس الزبـير باشـا، رغـم مـا كان يتوقعـه وهـو في دارفـور قبـل أن تبـدأ رحلتـه إلى مصر التـي حـاول أعوانـه منعـه منهـا، مـن أنـه قـد لا يعـود للسـودان، ولكـن احترامـه لكلمتـه وشرف نفسـه حـالا دون أن يسـمع منهـم ذلـك، وهاهـم الآن يجولـون بخاطـره تجـوالاً مؤثـراً تصحبهـم رؤيـة مؤرقـة تقـول لـه: لـن تعـود لـترى مـسرح مجاهداتـك بعـد اليـوم، لـن تـرى الصحـاب ورفقـاء السـلاح والتجـار، لـن تـرى شـعبك الـذي أحببتـه وأحبـك، وأهلـك وعشـيرتك وأرض فطامـك ومـاضي شـبابك ومثـوى أحبتـك، ورحمـة وشـمة وبطـران وفاطمـة وعائشـة وتاجـك وقصـورك وأمـلاكك. فـيرد الزبـير باشـا عـلى تلـك الرؤيـة: قـدَّر الله ومـا شـاء فعـل.

رغـم طبيعتـه البسـيطة وسـليقته العربيـة الواضحـة، وعقيدتـه الإسـلامية الراسـخة، والـولاء الـذي قطعـه عـلى نفسـه للدولـة الإسـلامية، أدرك الزبـير باشـا أنّ السياسـة حيـل ومنـاورات ودسـائس، وأن ظاهـر مـا كان يقـال لـه اسـتبان باطنـه، وأن عقليتـه الإسـلامية السـودانية تتقاطـع كثـيراً مـع العقليـة التركيـة المصريـة، ولكنـه سـيظل عـلى عهـده في الـولاء والطاعـة للدولـة العثمانيـة الإسـلامية.

(٢٦)

كانت عينا الخديوي مثبتتين على الأرض إثر إطراقة خجولة، وعندما تخلّص منها واجهتا وجهاً صلداً ونفساً مؤمنةً وشفتين تقولان له:
- أمرك يا مولاي.

صمتٌ كالظلام حطَّ عليهما، ومشاعر لا توصف من الأسى أطبقتْ بهما، واستدارة كاستدارة الجبل تنتظم خُطى الزبير باشا تشده إلى الخروج من قصر الجيزة، والخديوي ينظر فيرى فوق ظهر مُغادِره حدبةً كالصخرة فيقول:
- زبير باشا لا تحزن، فلا تزال باشا ولن توضع في سجن أو معتقل، ستبقى في قصري ضيفاً عزيزاً مكرماً مع من معك من حاشية وأهل، وستجري لك ولهم المرتبات، وستصحبك الرفقة الأنيسة وتوضع أمام قصرك الحناتير، أنت حر في القاهرة وفي كل مصر. لن تكون محجوراً عن الذهاب في أنحائها أو الظهور في حفلاتنا ومهرجاناتنا، وسأحرص بنفسي أن تصلك الدعوات لها.

قال له الزبير باشا: شكراً يا مولاي، وعاد إلى استدارته دون أن يلحظ نهوض الخديوي، وسار إلى خارج القصر ودوائر سوداء قاتمة تسير أمامه وتوصله إلى قصر الزعفران في العباسية. وفيها لاحظت زوجته زينب بنت منصور ما عليه من أسًى، فسألته فأجابها، فحاولت التخفيف عنه، ولكنه فاجأها بنومٍ لا قلق فيه ولا اضطراب.

(٢٧)

لم يكـن مـن السـهل أن يغيـب أمـر اسـتبقاء الزبـير باشـا في مـصر بـالإرادة السـنية على حاشـية ومرافقـي الزبير باشـا، الذيـن أغضبهم الأمـر، فـكان لهـم أمـر آخـر دبـروه بليـلٍ، وأخـذوا تفاصيلـه للزبير باشـا، فتحـدث بـه إليـه عبـد الله أبـاروً مـن طاقـم إدارتـه قائـلاً:

- عندمـا جئنـا يـا سـيدي الباشـا إلى هنـا واسـتقبلوك بقذائـف المدافـع، باعتبـارك مـن الغـزاة الفاتحـين، لم يخطـر عـلى بالنـا أن يصـدروا أمـراً بحجـزك في القاهـرة، كنـا نترقـب أن يبنـوا لـك تمثـالاً يُزاحِـمُ السـحبَ، فالأمـر يـا سـيدي سـاءنا وأحبطنـا.

بـدا الزبـير باشـا هادئـاً وهـو ينظـر إلى أبـارو ويقـول لـه:

- ابنـي عبـد الله مـا عسـانا أن نفعـل حيـال الإرادة السـنية، غـير أن نعيـد لهـا طلباتنـا بالسـماح لنـا بالعـودة إلى السـودان؟

- لا يـا سـيدي، إنهـم لـن يسـمحوا لـك بالعـودة، هـم خائفـون منـك، وأرجـو أن تحقـق مخاوفهـم وأن تعود للسـودان وتحتلـه جميعاً.

ابتسـم الزبـير باشـا وقـال:

- كيـف أنـزع مـن دولـة الإسـلام السـودان وقـد قضيـت فيـه سـنواتٍ طويلـةً وأنـا أجاهـد مـن أجـل ضـم رقـاع جديـدة لـه، وفي سـبيل ذلـك صافحـت المـوت عـدة مـرات، ثـم قـل لي كيـف أعـود للسـودان دون إذن معـالي الخديـوي؟

- دبرنـا الأمـر يـا سـيدي، فأنـت حـر في مـصر ولم يضعـوا عـلى أعضائـك الأغـلال، بـل وضعـوك في قـصر تنـام فيـه عـلى وسـائد ريـش النعـام، ومـأذونٌ لـك بالتحـرك في جميـع أنحـاء مـصر، عليـه فقـد تخيَّرنا أقـوى الإبل لتقلـك سراً عن طريـق صحـراء العتمور إلى

السـودان، وسـيهب السـودان أجمعـه لاسـتقبالك اسـتقبال الفاتحين. مسـحة مـن الغضـب رانـت عـلى وجـه الزبـير باشـا وهـو يسـأل أبـارو:

- كم معركة شهدتها معي؟

- الكثير منها يا سيدي.

- هل رأيتني أهرب؟

- أبداً سيدي.

- إذن لماذا تعرضون الهرب عليَّ الآن؟

- الأمر يختلف الآن يا سيدي.

- لا، إنها كلها معارك..!

قبـل أن يعلّـق أبـارو عـلى مـا قالـه الزبـير وهـو يمثـل المجموعـة التـي تريـد أن تزيـن لـه الهـروب إلى السـودان قـال لهـم:
- أرجـو أن تسـمعوني جيـداً، أنـا لسـتُ بالأنـاني ولا بالرجـل المتطلـع الطمـوح، وإن كل مـا أريـده هـو أن ألتـزم الصـدق أبـداً، وأن أقـوم بـأداء العمـل الطيـب، وأن أفعـل الخـير وأحـرص كل الحـرص عـلى اسـمي وسـمعتي، وأعلـم أننـي لسـتُ محتجـزاً أو مصفـداً بالأغـلال أو موضوعـاً خلـف أو داخـل أسـوار القضبـان الحديديـة، أو مُحاطـاً بالحـراس، وإنـه لمـن السـهل أن أغـادر مـصر التـي منعـوني مـن مغادرتهـا، وأن أهـرب منهـا ولكـن هـذا خطـأ،

فلو هربت للطخت ومرغت اسمي وشرفي وسمعتي وكرامتي في الوحل، هي أشياء أحرص أن أحتفظ بها طاهرة نقية ونظيفة إلى النهاية، وإلى الأبد حتى يقال عني فيما بعد، لقد عاش الزبير باشا رجلاً حتى مات.

(٢٨)

بعد رفضه للهرب التفت الزبير باشا إلى معركة إقناع الخديوي ليعود إلى السودان، غير أن الخديوي إسماعيل كان يبقيه في مصر بأعذار مختلفة، آخرها انشغال الدولة الإسلامية العثمانية بالحرب ضد روسيا، فأظهر الزبير باشا أسًى، وسأل الله أن يديم عز الدولة الإسلامية، وأن يبعد عنها شر أعدائها، خاصة الروس، الذين دخلوا في سلسلة من الحروب ضد الدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر، لأطماعهم في غزو أراضي خانية القرم العثمانية، ولرغبتهم في السيطرة على البحر الأسود وممراته؛ البوسفور والدردنيل، نحو مياه المتوسط الدافئة، وبحلول عام ١٨٧٧م قادت الإمبراطورية الروسية قوات التحالف الأرثوذكسي الشرقي المتآلف من العديد من دول البلقان التي تصاعدت فيها الروح القومية تحملها الرغبة في استرداد الأراضي التي خسرتها أثناء حرب القرم، لتعيد نفسها للبحر الأسود ليدور القتال في البلقان والقوقاز.

ويعود الزبير باشا إلى قصره في العباسية تحمله أرجل الأسى، وفي الصباح كانت تقف أمام قصره مجموعة من العربات التي تجرها الخيول الملكية، وتعتليها مجموعة من أفراد القوات المسلحة يقودهم الأمير حسن باشا في زيارة مفاجئة للزبير باشا. لا شك أنه ضيفٌ كبير على الزبير باشا، ولكن ما الذي أتى به بكل هذه التشريفات؟ استقبله الزبير باشا في قصره وقال له:
ـ مرحباً بسمو الأمير الفريق حسن باشا. أنا جد سعيدٌ بهذه الزيارة، وإنه لشرف عظيم أن تزورني في داري.

ـ أنا أيضاً سعيد بزيارة اللواء الزبير باشا.
ـ أرجو أن يكون والدك مولانا الخديوي إسماعيل باشا بخير.

ـ هو بخير وهو من أشار لي بزيارتك.

استبشر كل من كان في قصر الزبير باشا من حاشية ومرافقين بهذه الزيارة، التي قدَّم خلالها الأمير حسن للزبير باشا سيفاً فضياً براقاً وهو يقول له:
ـ هذه هدية والدي مولانا الخديوي لسعادتك اللواء الزبير باشا.

بدأت الآمال ترفرف والأحلام تصير أجمل، والكل يتوق أن يكون الأمير حسن باشا يحمل للزبير باشا مع ذلك السيف إذناً له بالعودة إلى السودان، وفرماناً بتعيينه حاكماً على دارفور مع بلاد شكا وبحر الغزال، البلاد التي بذل من أجل ضمها للدولة العثمانية كل مُرتخصٍ وغالٍ، غير أنّ الأمر لم يكن كذلك أبداً.

(٢٩)

حكمـة الزبـير باشـا وحصافتـه أملتـا عليـه عـدم سـؤال الأمـير حسـن عـن سـبب زيارتـه المفاجئـة، رغـم أنـه كان يُمني نفسـه أن يكـون السـبب مـن وراء هـذه الزيـارة هـو إذن الخديـوي بعودتـه حاكـماً إلى السـودان، وبـدلاً مـن ذلـك جـرت أحاديـث الزبـير باشـا مـع الأمـير حسـن عـن حُسـن الضيافـة وامتنانـه لهدايـا الخديـوي إسـماعيل لـه، وأخـيراً أفصـح الأمـير حسـن عـن سـبب زيارتـه قائـلاً للزبـير:

– سـبق يـا فخامـة اللـواء أن قلـت لـك إن هـذه الزيـارة أشـار بي عليهـا والـدي الخديـوي، وقـد تعلـم يـا باشـا أن الجيـش العثـماني الإسـلامي في تركيـا والبلقـان بقيـادة السـردار محمـد عـلي يعـاني هجومـاً ضاريـاً وحربـاً شـعواء مـن جيـش الإمبراطوريـة الروسـية وأعوانهـا، لهـذا عهـد والـدي إليَّ قيـادة حملـة تتكـون مـن اثنـي عـشر ألفـاً للحـرب هنـاك، وقـد تـم ترشـيحك لقيـادة فرقـة تتكـون مـن أربعـة آلاف مقاتـل ضمـن حملتنـا ونرجـو موافقتـك.

صمـت الزبـير باشـا وجالـت بخاطـره مشـاهد حسـب أنـه قـد نسـيها، مشـاهد الحـرب والقتـال وصليـل السـيوف وزخـات الرصـاص وطعـم النـصر، وعندمـا تخلَّـص مـن صمتـه تخلَّـص الأمـير مـن قلقـه وترقبـه. قـال لـه الزبـير:

– هـذا الأمـر يسـعدني، فمدافعتـي عـن الإسـلام وأرض المسـلمين ليسـت محـل رجـاء، فانقـل لمعـالي الخديـوي موافقتـي، فقـط سـأصحب معـي جنـود البازنقـر الألـف الذيـن صحبتهـم

معـي إلى جلالتـه عنـد قدومـي إلى هنـا، إنهـم جنـود أوفيـاء متدربـون عـلى القتـال، بارعـون فيـه، ومُطيعـون لأوامـري.
ـ لك ذلك يا زبير، ولك امتناني وشكري.

خـرج الأمـير تشـيّعه كلـمات الزبـير المودعـة، واختفـى موكبـه مـن أمـام قـصر الزعفـران بالعباسـية، لتلتـف حاشـية وأهـل الزبـير باشـا حولـه يدفعهـم الأمـل وحـب الاسـتطلاع، فعرفـوا مـا جـرى، وأن الزبـير باشـا سـيعود محاربـاً، ولكـن ليـس في السـودان سـيعبر المتوسـط إلى بـلاد تنهمـرُ فوقهـا الثلـوج وينهمـر فيهـا الرصـاص. قالـت لـه زوجتـه زينـب بـت منصـور:
ـ سـجمي يـا الباشـا إنتـا مـاشي تحـارب الـروس في بـلاد العُجُـم أم بـرداً بكتـل..؟!

ـ إتي ماك عارفه الكتال ما بهمني؟

ـ والله إنتـا قـدرو وأكـتر، عـاد بترجـاك في القـصر ده لامـن تعـود بـإذن الله.

ـ لا لا يـا زينـب، إنتـي تسـوقي معـاك عيالـك وبتـين رامبـوه وتمـشي السـودان، إمكـن ربنـا كاتـب لي مـا أستشـهد ويسـمحوا لي وأجيكـم هنا ك .

ـ كلامـك مـا فيهـو تعقيـب يـا الباشـا أبـو الحـارث، وبنـات رامبـوه زي بنـاتي ربنـا يرحـم أُمَّهِـنْ.

(٣٠)

هكـذا شـاءت الأقـدار أن يسـطعَ نجـم الزبـير باشـا مـن جديـد وهــو يعتــلي السـفينة التـي مخـرت بـه عُبـاب البحـر الأبيـض وثبجـه العـالي، واقفـاً فيهـا كالصـاري، قائـداً لأربعـة آلاف مقاتـل، وعندمـا حـط بجيشـه بـأرض البلقـان كانـت معركـة مدينـة (صـارى نصـو حلـر) بـين الجيـش العثـماني والجيـش الـروسي عـلى وشـك الوقـوع، وتأهـب الجيـش العثـماني تحـت قيـادة الـسردار محمـد عـلي باشـا لمنازلـة الجيـش الـروسي تحـت قيـادة البرنـس الكسـندر ولي عهـد قيـصر روسـيا، ولكـن البرنـس الكسـندر كان قـد اتخـذ لـه تحصينـات منيعـة في تلـك المدينـة.

رأى قائـد الجيـش العثـماني أنـه لا يمكـن النيـل مـن القـوات الروسـية إلا بفتـح ثغـرة في حصـون المدينـة، ليتدفق الجيـش العثماني خـلال الجيـش الـروسي. فقـال الزبـير: أنـا لهـا. كانـت خطـوط العـدو وتحصيناتـه منيعـة وأقـوى أكثـر ممـا كان يتصـوره الزبـير أو غـيره، فحـاول الزبـير بفرقتـه أن ينـال مـن هـذه التحصينـات بالهجـوم عليهـا بالمواجهـة رغـم عنفهـا، إلا أنـه لم يسـتطع، فعـاد إلى معسـكره يشـغله التفكـير ولا يـزوره النـوم، ويقلقـه تصميمـه عـلى النـصر، وقبـل الفجـر واتتـه الفكـرة الجهنميـة، فوجـه قواتـه بالاسـتعداد وأن ينفـذوا مـا يأمرهـم بـه بدقـةٍ متناهيـةٍ.

في الفجـر فوجـئ الأعـداء والنـوم يداعـب أجفانهـم برجـال الزبـير وهـم يدفعـون أمامهـم حشـوداً مـن الخيـل، كان الزبـير قـد أمـر بـأن يوضـع فـوق صهواتهـا القـش، وأن تـضرم فيـه النـار،

فلما أحست الخيل بالنار فوق ظهورها مضت تعدو وتثب وتصهل ورجال الزبير من خلفها يوجهونها نحو صفوف الأعداء ويهتفون هتافات داوية، فما لبث الهرج والمرج أن وقع بين الأعداء الروس ومن والاهم جراء هذه المفاجأة الصاعقة، فانتهز الزبير هذه الفرصة وقذف إلى المعركة بكل قوته محارباً في صفوف قواته، وموجهاً وآمراً لهم، فلم يمضِ قليل من الوقت حتى كان قد زحزح الجيش الروسي عن مواقعه وفتح الثغرة المنشودة في صفوفهم، فلم يلبث الجيش العثماني أن تدفق من خلالها واحتدمت المعركة، واستمر القتال إلى ما بعد منتصف الليل، وانتهت المعركة بانتصار الجيش العثماني بفضل شجاعة ودهاء الزبير باشا.

وعندما انطلقت الألعاب النارية صوب السماء في صبيحة يوم الانتصار والزنقران يعزفون أناشيد النصر والجنود تحمحم حلوقهم بالجلالات التي طالما اشتاقوا إليها، جاء الأمير حسن باشا الابن الثالث للخديوي إسماعيل وقائد الحملة المصرية يزور الزبير في معسكره والثلوج تتساقط على الرؤوس، وهو يسقط بين أحضان الزبير ويعانقه ويقبِّله، ثم يشد على يده مصافحاً بقوةٍ ويقول له:

- لم أكن أصدق كل ما كان يقال عن شجاعتك ودهائك في القتال في ربوع السودان، ولكنني بعد أن رأيتك بالأمس وأنت كلما سقط من تحتك جواد تستبدل به غيره ثم تمضي متقدماً الصفوف، آمنت أن ما يقال عنك إنما هو في الواقع شيء قليل بالقياس لما أنت عليه، كنت أظنُّك بما تملك من عقلية عسكرية فذة، أنك درست في أعتى الكليات الحربية بالعالم، وما ظننت أن خبرتك في القتال في ربوع السودان قد أكسبتك

هــذه العقليــة، وهــذا الدهــاء العســكري غــير المســبوق، جنــودك الآن يعزفــون أجمــل ألحــان النــصر، الشــكر لــك يــا فخامــة اللــواء الزبــير باشــا.

فرد عليه الزبير قائلاً:

- لا تشــكرني يــا ســمو الأمــير عــلى واجــب يتحتــم أداؤه، إنــما نحن نحــارب مــن أجــل حمايــة عقيدتنــا وصــون إســلامنا، فهــل هنالــك واجــب أدعــى مــن هــذا؟ نعــم ســمو الأمــير كســبنا معركــة مهمــة ولكنــا لم نكســب الحــرب بعــد، وإن شــاء الله يكــون النــصر حليفنــا ضــد أعــداء المســلمين مــن الــروس وأتباعهــم، وســأظل جنديــاً مخلصــاً مــن أجــل الإســلام، وســأظل أحمــل الرايــة أو أســقط دونهــا.

(٣١)

بقي الزبير باشا يذود عن حياض المسلمين في تلك الأصقاع النائية لا عزمه وَهِيَ، ولا يده كلَّت، ولا سيفه نبا. غير أن طبيعة تلك البلاد ذات الأجواء الباردة والموجات الثلجية القاسية أوقعته فريسة للمرض، فحاول أن يتحامل على نفسه ليبقى دائماً بفرقته في طليعة المهاجمين، ولكن حالته الصحية ساءت للحد الذي فرض على القيادة إعفاءه من التقدم وإرساله إلى المستشفى بالأستانة للعلاج، حيث بقي هناك إلى أن تماثل للشفاء، فعلمت عائلات تركية كبرى أن البطل الزبير باشا في المستشفى، فقادهم الإعجاب به لزيارته لتطل عليه إحداهن وقد تملكها الإعجاب بالزبير باشا، وقررت أن ترتبط به ارتباطاً أبدياً، فتزوجها وسط فرحة أهلها ورفاقه، وكان السلطان عبد الحميد سلطان الدولة الإسلامية العثمانية قد وصلته أخبار بطولة الزبير باشا وحُسن بلائه في معركة (صارى نصو حلر)، فأمر (ياوره) بالسهر على راحته طيلة مدة إقامته في الأستانة، وأتبع أمره أن يقيم الزبير باشا في أحد قصوره المطلة على خليج البوسفور..!

بقي الزبير باشا في أحد قصور السلطان عبد الحميد الثاني المطل على خليج البوسفور مصطحباً زوجته التركية ذات الأصول الشركسية، حتى جاءه خبر فرح له كثيراً، وهو دعوة السلطان عبد الحميد الثاني لزيارته. فيا له من شرف عظيم ودعوة كريمة. اليوم سيزور السلطان الذي عرض عليه اليهود أموالاً طائلة من أجل أن يسمح بتهجيرهم لأرض

فلسطين الواقعة تحت سلطانه فقال لهم: إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً، فلن أقبل ما تطلبون، إن أرض فلسطين ليست ملكي، إنما هي ملك للأمة الإسلامية، وما حصل عليه المسلمون بدمائهم لا يمكن أن يُباع، وربما إذا تفتت دولتي يوماً يمكنكم أن تحصلوا على فلسطين دون مقابل.

(٣٢)

جاءت عربة فارهة أقلت الزبير باشا من قصره إلى قصر دولما باهتشة، قصر السلطان عبد الحميد الثاني ومقره الإداري لشؤون الدولة الإسلامية العثمانية، وهو قصر يقع في منطقة الباشيك طاش بإستانبول على الساحل الأوروبي من مضيق البوسفور، وكان بمثابة المركز الإداري الرئيسي للإمبراطورية العثمانية منذ عام ١٨٥٦ حتى ١٩٢٢م. وهو قصر يقع على جزء من الشريط الساحلي الذي يمتد من قر كوي وحتى ساري ير بين منطقتي القباطاش والباشيكطاش، وهو موازٍ لمنطقة اسكودار على الساحل الغربي بالمنفذ البحري الممتد من بحر مرمرة وحتى البوغاز ايجي. القصر السلطاني آية في الروعة والجمال، كأنما قد سُرق من الفردوس، واستقبال السلطان عبد الحميد الثاني فيه للواء الزبير باشا كان استقبالاً احتشد بالحفاوة والمودة والإعجاب ببطولته وغيرته على الإسلام والمسلمين.

قال له السلطان عبد الحميد:

- أهلاً بك في دارك وكل ديار المسلمين ديارك، ويشرفنا نسبك ومصاهرتك، فهذا فخرٌ لنا، فخرٌ أن تجري فينا دماء البطولة والشجاعة.

ـ سيدي السلطان أنا فخور وسعيد بلقائك وكرمك وحسن حديثك، أدامك الله عِـزّاً للمسلمين وحامي ديارهم.

بعدها دارت الأحاديث بين الرجلين، فعرف السلطان عبد الحميد تفاصيل دور الزبير باشا في السودان وأعجب بذلك كثيراً.

قبل أن ينتهي هذا اللقاء التاريخي وقف السلطان عبد الحميد وقلَّد الزبير باشا النيشان العثماني الثالث، وأنعم عليه برتبة الفريق، فصار الفريق الزبير باشا أول عربي وإفريقي ينال هذه الرتبة العسكرية الرفيعة.

بنفسٍ امتلأت فخراً وعِزّاً وسروراً، عاد الفريق الزبير باشا إلى مصر، وتم استقباله في القاهرة استقبال القائد المنتصر، وفي مقر إقامته بقصر الزعفران بالعباسية بدأت نفسه تحدثه عن اتساع حظوظه بالفوز بإذن الخديوي إسماعيل باشا للسماح له بالعودة إلى السودان، غير أنّ الخديوي لم يحقق له أمله وهو يقول له:

– ابنك سليمان ينوي أن يقودَ ثورةً ضدنا في جنوب السودان متعللاً بأسرنا لك، هنا أنت يا باشا ضيف عزيز علينا وليس أسيرنا.

(٣٣)

الأمر أقلق الزبير باشا ولم يكن يدري أن ما وصل للخديوي كان مجرد وشاية خبيثة، اختلق تفاصيلها المدعو السعيد بيك حسين الذي عينه غردون مديراً على شكا، وكان السعيد يعمل لدى سليمان بن الزبير، وهو من قبيلة الجميعاب، فاستماله غردون قبل أن يعينه مديراً على شكا، فكتب الزبير رسالة لابنه سليمان يحثه فيها على طاعة الحكومة وعدم الثورة في وجهها.

كان البريطانيون يعدون الجنرال غردون بطلاً قومياً، وجندياً تشبعت حياته بروح العهد الفيكتوري. كان نحيفاً وقوي البنية الجسدية، ويملك طاقة لا تنضب، يحب الحركة ولا يعرف الراحة أو السكون. رغم أن البعض يراه مجنوناً، ويظنه البعض سكيراً، ويعتبره البعض مهووساً دينياً، إلا أن نوبار باشا أول رئيس لوزراء مصر أُعجب به وعرض عليه العمل في الخدمة الخديوية، فوافق بعد أن نال موافقة الحكومة البريطانية.

في عام ١٨٧٤م وصل غردون إلى القاهرة وفي ١٨٧٥م، العام الذي غادر فيه الزبير باشا إلى مصر، وتم تعيين غردون الذي يصغر الزبير باشا بعامين حاكماً على الإستوائية، وعندما نشبت الحرب بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الروسية في عام ١٨٧٧م، التي شارك فيها الزبير باشا عُيِّن غردون حاكماً عاماً للسودان، لتبدأ خصومته لسليمان الزبير ووالده الزبير باشا بقصص أشبه بالتراجيديا، وبمؤامرات ملؤها الخِسة

والغـدر والخيانـة، وكان سـليمان بعـد مغـادرة والـده إلى مـصر قـد قـاد جيوشـه متجهـاً بهـا إلى مدينـة شـكا، حيـث أقـام فيهـا، وبعـد حضـور غـردون إلى دارفـور أرسـل إليـه أمـراً بمقابلتـه وجيشـه في دارفـور، فاسـتجاب سـليمان للأمـر وكان وراء هـذا الأمـر تلـك الوشـاية التـي بثهـا السـعيد بيـك حسـين في أُذني غـردون. بوصـول سـليمان زاره غـردون الـذي كان ينتـوي تفريـق جيـش سـليمان، فأصـدر إليـه أمـراً بذلـك، قبلـه سـليمان مسـتصحباً رسـالة والـده لـه، غـير أن غـردون عـاد وزار سـليمان مـرة أخـرى وطيَّـب خاطره وأنعـم عليـه بالرتبـة الثانيـة مـع لقـب بيـك، وجعلـه مديـراً عـلى بحـر الغـزال..!

(٣٤)

لم تتوقـف وشـايات الحاقديـن، فأشـعلت في نفـس غـردون غضبـاً عـلى سـليمان، فقـد سـعى إليـه إدريـس أبـتر بكذبـة أخـرى، وهـي أن سـليمان يعتـزم الاسـتقلال ببحـر الغـزال، دفعـه لذلـك تحريـض والـده لـه بخطـاب بعـث بـه إليـه مـن مـصر، رغـم أن الخطـاب كان يحمـل معنيًمغايـراً، وفيـه ينصـح الزبـير ابنـه بطاعـة الحكومـة. الغـدر والخيانـة أنسـيا إدريـس أبـتر وهـو يسـعى بفتنتـه أن الزبـير والـد سـليمان هـو مـن أنقـذه عندمـا كان يرسـف في أغلالـه عبـداً أسـيراً في قافلـة مـن قوافـل البـلالي، وهـو مـن اختـاره ليكـون وكيـلاً لـه في مندقبـا عندمـا خـرج لقتـال الرزيقـات، فعـاث في أرض مندقبـا فسـاداً وخـان الأمانـة والعهـد، وعبـث بتجـارة الزبـير وممتلكاتـه، وأحـال مندقبـا إلى سـوق للنخاسـة، وهـا هـو اليـوم يـأتي بكذبتـه لغـردون الـذي امتـلأ غضبـاً وأصـدر أمـراً بعـزل سـليمان وتعيـين إدريـس أبـتر مكانـه، لتبـدأ الثـورة تشـتعل في نفـس الشـبل الـذي هـو مـن ذاك الأسـد، فكيـف يتـم تعيـين خـادم والـده مكانـه بوشـايته الكاذبـة، الأمـر الـذي أشـعر سـليمان بالإهانـة.

(٣٥)

عندما بدأ غردون يراجع نفسه كان السيف قد سبق العذل، وأخذ سليمان يستعد للثورة رغم نتيجة التحقيق التي رُفعت لغردون من إبراهيم فوزي باشا، الذي كلفه غردون بالتحقيق في الأمر، وكان من الشخصيات العسكرية المصرية في السودان، الذي أثبت في تقريره أن اتهام إدريس أبتر لسليمان الزبير مجرد وشاية كيدية، لا أساس لها من الصحة، وأن إدريس اختلقها اختلاقاً لذر الرماد في العيون، لإخفاء ما ارتكبه من جرائم ومخالفات ومفاسد في الإقليم، خلال فترة توليه مقاليد الأمور نيابة عن الزبير باشا.

في ذلك الوقت كانت آمال الزبير باشا تتجدد للعودة إلى السودان، وذلك عندما أصدر السلطان عبد الحميد الثاني فرماناً قضى بإقالة خديوي مصر إسماعيل باشا، وفي هذا المعنى أُرسلت له رسالة تقول: (إلى سمو إسماعيل باشا خديوي مصر السابق، إن الصعوبات الداخلية والخارجية التي وقعت أخيراً في مصر قد بلغت من خطورة الشأن حداً، يؤدي استمراره إلى إثارة المشكلات والمخاطر لمصر والسلطنة العثمانية، ولما كان الباب العالي يرى أن توفير أسباب الراحة والطمأنينة للأهالي من أهم واجباته، ومما يقضيه الفرمان الذي خولكم حكم مصر، ولما تبين أن بقاءكم في الحكم يزيد المصاعب الحالية، فقد أصدر جلالة السلطان إرادته بناءً على قرار مجلس الوزراء بإسناد منصب الخديوية المصرية إلى صاحب السمو الأمير توفيق باشا، وأرسلت الإرادة السنية في تلغراف آخر

إلى سموه بتنصيبه خديوياً لمصر، وعليه أدعو سموكم عند تسلمكم هذه الرسالة إلى التخلي عن حكم مصر احتراماً للفرمان السلطاني).

ثلاثة أيام أمضاها إسماعيل في الاستعداد للسفر، وجمع كل ما استطاع من المال والمجوهرات والتحف الثمينة من القصور الخديوية، ونقلها إلى اليخت (المحروسة) وهي الباخرة نفسها التي أقلته من قبل مراتٍ عدة إلى سواحل أوروبا وهو في قمة المجد، ولأن السلطان العثماني رفض استقبال الخديوي المخلوع في الأستانة، فقد غادر إسماعيل مصر متجهاً مع زوجاته وحاشيته من الإسكندرية إلى نابولي. لم ييأس إسماعيل، وظل يرسل التماساً وراء الآخر من منفاه في أوروبا، حتى تعطّف السلطان عبد الحميد الثاني أخيراً ووافق على حضوره للأستانة التي انتقل إليها للإقامة بقصر إميرجان المطل على البوسفور، ولم يعد إلى مصر إلا ميتاً، بعدما قضى نحو ستة عشر عاماً في منفاه..!

الفصل السادس والأخير

(١)

لم يكـن قلـب الزبـير باشـا النبيـل يحمـل ضغينـةً أو حقـداً عـلى الخديـوي المخلـوع إسـماعيل باشـا، في ظـرفٍ تجـوز فيـه الضغائـن والأحقـاد، فقـد كان تحديـد إقامتـه جـبراً في مـصر بأمـرٍ مـن هـذا الخديـوي المعـزول، غـير أنـه لم يلُمـه عـلى ذلـك فقـد كان مدفوعـاً بذلـك التخـوف الـذي بثـه في كيانـه حاكـم دارفـور وبعـض الإنجليـز والوشـاة، وهـذا أمـر يقـدره ويسـتوعبه. كـما أنـه كان يثمـن كـرم الخديـوي السـابق معـه الـذي لم يحوجـه لـشيءٍ، فخصـص لـه قـصراً في العباسـية لإقامتـه، وعندمـا عـاد مـن حـرب البلقـان اسـتقبله بحفـاوة بالغـة في مقـره الـذي انتقـل إليـه بقـصر عابديـن، وأمـر بـأن يقيـم بمقـره السـابق قـصر الجيـزة، لـذا لم يبـدِ سـعادة لعزلـه وفـاءً لهـذا الكـرم والتزامـاً بخطـه ومنهجـه العقائـدي الصـارم، بإطاعـة أولي الأمـر. غـير أن ريـاح الأمـل ضربـت عليـه بلطـف وحرضـت مشـاعره أن تخبره بـأن أسـباب التخـوف ربـما تـزول عـن نفـس الخديـوي الجديـد توفيـق باشـا، بـما يسـمح بعودتـه للسـودان، ولكـن ابنـه سـليمان يشـتعل غضبـاً وثـورةً في جنـوب السـودان، لم يسـلم منهـا الخائـن إدريـس أبـتر الـذي تمـادى في أكاذيبـه ضـد سـليمان، فـما أن ينهـي واحـدة حتـى يبـدأ في نسـج أخـرى، وأخطرهـا كان اتهامـه لسـليمان بالهجـوم عـلى أحـد المراكـز الحكوميـة والاسـتيلاء عـلى جميـع مـا فيـه مـن أسـلحة وذخائـر، وكان مـن السـهل عـلى المحقـق اللـواء إبراهيـم باشـا اكتشـاف أباطيـل هـذا الرجـل، بـما قـام بـه مـن اسـتقصاء للحقائـق.

(٢)

ظل إدريس أبتر على نهجه الاستفزازي ضد الفتى سليمان الزبير، فبعد أن كتب إلى رؤساء الزرائب يخبرهم بتعيينه مديراً على بحر الغزال، ويأمرهم بالحضور إليه لتقديم فروض الولاء والطاعة، كتب لسليمان يدعوه للتسليم، فاستاء سليمان من أسلوب تابعه السابق، وبلغ به الحنق مبلغاً كبيراً، فرد عليه برسالة غاضبة قال له فيها: (إن ولائي للحكومة يمنعني من الخروج على طاعتها، إلا أن شرفي لا يسمح لي بالتسليم إلى من كان خادمي وخادم أبي من قبلي، ولا يمكنني أن أأتمنك على نفسي وأموالي بعد الذي رأيته من خيانتك وإنكارك للجميل، لأنك لو كنت أميناً وذاكراً للجميل لحفظت عيشنا وملحنا وتربيتنا لك، وعليه لا تنتظر مني التسليم، ولو كانت الحكومة قد أرسلت إليّ رجلاً غيرك، ولو كان عبداً، لسلمته وذهبت معه إلى غردون وأطلعته على جلية أمري وبينت له نفاقك والسلام).

لما بلغ هذا الخطاب إدريس أبتر استشاط غضباً، وبدأ التحضير لقتال سليمان ويهيئ معسكره للهجوم عليه، وفي سبيل ذلك ترك جنده في عُهدة أخيه عثمان أبتر، وكان رجلاً فظاً غليظ القلب، بينما طفق إدريس أبتر يطوف على زرائب التجار ويحرِّضهم على قتال سليمان الزبير، باذلاً لهم الوعود الكاذبة، والسب المقذع في حق سليمان الزبير.

كان سليمان منتبهاً لما يدور وأدرك أن إدريس قد أعلن الحرب عليه، فصاح في القائد رابح وصحبه الميامين أن هبوا معي

لاستئصال شأفة هذا الخائن، فبدأت أمواج البازنقر والبحارة تعلو وتزمجر وتتدفق إلى شواطئ إدريس أبتر، فتم تدمير معسكره وسقط الكثير من جنوده قتلى، كان بينهم شقيقه الفظ عثمان أبتر، ونجا شقيق آخر له فأسره سليمان، غير أن إدريس هرب من أرض المعركة وفرَّ من أمام سليمان الزبير، كما فرت حُمُرٌ من قسورة، فعاد سليمان إلى شقيقه الأسير ومنحه الأمان، وطلب منه أن يرشده إلى مكان شقيقه الهارب إدريس، ومن ثم بدأ سليمان في مطاردة إدريس مطاردة طار لها لبُّه، لكنه نجح في النجاة بنفسه ووصل إلى اللواء الباشا إبراهيم فوزي، الذي كان يعرف دخيلته ودسائسه وتآمره وسوء نيته، فقبض عليه بتهمة إثارة الفتنة في بحر الغزال وأرسله لغردون في الخرطوم مخفوراً، فقام غردون بعزله ووضعه في السجن وعيَّن بديلاً منه صديقه الضابط الإيطالي رومولو جيسي، الذي التحق بخدمة الحكومة المصرية في السودان، وقد دخله وفي جيبه عشرة جنيهات وخرج منه بعد سبع سنوات وبحوزته نصف مليون جنيه وعشرة آلاف أوقية من الذهب وكميات من العاج والفضة، غير أنه لم يستفد من هذه الثروة الطائلة المنهوبة، إنما اقتسمها رفاقه عندما مات مباشرة بعد أن خرج من السودان ووصل إلى السويس في مصر.

(٣)

عند تعيين جيسي على بحر الغزال كان سليمان الزبير قد استولى عليها بثورته التي اندلعت في ظروف بالغة التعقيد، محتشدة بأجواء المكائد والدسائس والمؤامرات، مشتعلة الأُوار تذكي نيرانها السياسة الإنجليزية الرامية إلى إبعاد رجل السودان القوي الزبير باشا عن مسرح الأحداث وتدمير منجزاته ومحو آثاره، فخرج عليهم ابنه فقرروا قتله وتصفية جيشه وانتزاع بحر الغزال من يديه، لذا عندما شرعت الباخرة بوردين في الإبحار من شواطئ الخرطوم نحو بحر الغزال بجيسي ـ هذا الضابط الإيطالي الهادئ الصلب القوي البنية والقصير القامة ـ كان صديقه غردون يضع يده فوق كتفه ويقول له وهو يودعه:

- أعلم أنك عبقريٌّ بفطرتك ولن تعجز عن تحقيق أهدافنا في بحر الغزال، وأولها القضاء على سليمان الزبير وتصفية جيشه، وقد زودناك بالقوات اللازمة والعتاد الكافي، وكن حذراً ألا يصله أي خطاب من والده.

ردَّ عليه جيسي قائلاً:

- سيدي غردون إنّ هذا الطفل المغرور المدعو سليمان الزبير لن يحوجني إلى وقتٍ حتى أقضي عليه ومن معه، بإمكاني أن أغريه بلعب أطفال..!

ضحك غردون وشدَّ على يد صديقه جيسي وقال له:

- أعلم أنك داهية يا صديقي، وداعاً وليعنك الرب.

(٤)

أبحرت الباخرة ورأس جيسي تمر عليه الخطط والأفكار، غير أنه حينما اصطدم بسليمان أدرك أنه يواجه رجلاً وليس طفلاً تغريه اللعب، واحتاج زهاء العام ليحسم أمر هذا الصنديد، وما كان له هذا لولا تلك الإمدادات التي طلبها، ولولا تلك الحِيل التي لجأ إليها وسكب فيها كل خبرته العسكرية، ولولا ذلك الغدر الذي حاق بسليمان.

بدأ جيسي زحفه نحو خور غطاس فوصله بعد صعوبة ومشقة شديدتين أفقدتاه بعضاً من جنوده بالهرب أو الموت، ولكنه واصل زحفه فوصل إلى أبي قرون في نفس اليوم، حيث انضم إليه بعض الزنوج المسلحين فعوضوه خسارته ليستمر زحفه، وظهرت إحدى طلائع قوات سليمان بقيادة القائد أبي بكر منصور الناعمابي الجميعابي، فصلاهم ناراً حامية على مدى يومين كاملين من الضفة المواجهة لمعسكر جيسي، فشاع فيه أن هذه المناورات ما هي إلا غطاء لسليمان وجيشه لعبور النهر بأعداد كبيرة، فدبَّ الذُّعر والقلق وسط معسكر جيسي، وكثرت أعداد الهاربين منه منضمين لقوات سليمان، غير أنّ جيسي بادر بالزحف فعبر النهر تحت حماية قذائف مدفعيته، وتوجه إلى محطة تجارية كبيرة في الطريق إلى واو تسمى (كوتشوك) فألفاها مدمرة ومحروقة من قِبل سليمان حتى لا يستفيد منها جيسي، فتركها وتقدم نحو واو فوجدها في نفس حال زريبة كوتشوك، ولكنه ارتكز فيها وتحصن داخلها، وأصبح مسيطراً على مجرى النهر، وأضحت مؤخرته

آمنة من أي هجوم، ساعده في ذلك ظروف الخريف وبعض الإمدادات، فأخذ يناوش مقدمة قوات الزبير ريثما يتحسن موقفه، وكان سليمان متحصناً بجيشه داخل ديم إدريس الحصين، واحتل الخيران المحيطة به جاعلاً منها كمائن يتصيد منها قوات جيسي، الذي أدرك أنه يواجه عدواً عنيداً ورجلاً صنديداً، وليس مجرد طفل..!

(٥)

أدرك جيسي أن الأهالي ينحازون لخصمه سليمان الزبير ويجد منهم المعاونة، لذا استعصت عليه مواجهته وجهاً لوجه، فأخذ يلجأ للخداع والمداورة والأساليب التي لا تتسق وأخلاق الفرسان، فقام بأسر فقيه من رجال سليمان وتعذيبه وهدده بالقتل وأجبره على كتابة رسالة ممهورة بخاتم الزبير لسليمان، يخبره فيها كذباً أن جيسي يزحف على نحو عاصمته ديم سليمان، وأن عليه الإسراع لحمايتها، وما أن وصلت الرسالة لسليمان حتى أسرع بمعظم قواته لعاصمته بغرض حمايتها من الهجوم المزعوم، فاغتنم جيسي الفرصة، واحتل ديم إدريس الحصين دون قتال يُذكر، فكانت هذه أول وأكبر ضربة يتلقاها سليمان نتيجة لهذه الخدعة الماكرة، فقرر مهاجمة جيسي في حصونه المنيعة بديم إدريس فقام باحتلال موقع يقال له ديم جلابة بقوات هائلة، فقد كانت قوات سليمان تربو على الأحد عشر ألف مقاتل يتزايدون في كل يوم، ثم اتجه نحو ديم إدريس وأخذ يهاجمه من أرضٍ مكشوفة، فأخذ جيسي يسرف في استخدام الرصاص من داخل حصونه المنيعة، وكبَّد سليمان خسائر فادحة في الأرواح، فآثر سليمان الانسحاب في اللحظة التي أوشك فيها على الانتصار، حمايةً لأرواح مقاتليه، وجيسي لم يكن يتوقع هذا الانسحاب وعدَّه انتصاراً في معركة توقع فيها الهزيمة من جيش سليمان الذي تعوَّد القتال على الطريقة الأوروبية، بخبرة استقاها من حروبه السابقة مع الزبير في دارفور وغيرها، وبذخائر وأسلحة استولى عليها عندما احتل الزرائب وما غنمه من قوات إدريس أبتر التي هزمها شرَّ هزيمة.

لم يـترك سـليمان جيـسي في حالـه، بـل عـاود مهاجمتـه وأخـذ يـضرب مواقعــه الحصينــة مــن جديــد بقنابــل أشــاعت الرعــب في نفــوس قواتـه، غـير أنّ الدخـول لتـك الحصـون لم يتحقـق لـه، فقـرر سـليمان احتـلال مزرعـة ذرة تحيـط بموقـع عـدوه، وقطـع مجـرى الميـاه الـذي كان يمـد ذلـك الديـم ليحاصرهـم، ويمنـع عنهـم المـاء والغـذاء تمهيـداً لهجـوم كاسـح يحسـم بـه هـذه الحـرب، وبعـد وضـع الخطـة اللازمـة للتنفيـذ نهـض أحـد الخونـة مـن معسـكر سـليمان وأفشـى أمرهـا لجيـسي، وبعـد وقوفـه عـلى تفاصيـل الخطـة قـام بإعـداد كمين مضـاد بقواتـه المسـلحة التـي اتخـذت مـن أعشـاب المنطقـة الكثيفـة سـواترَ، ومـا أن تقدمـت قـوات سـليمان لاحتـلال المواقـع المسـتهدفة حتـى فوجئـت بالرصـاص الكثيـف ينهـال عليهـا مـن جميـع الجهات بغـزارة وفجائيـة غـير متوقعـة، وهـم فـوق أرض طبيعيـة مكشـوفة وعدوهـم ينهـال عليهـم مـن وراء تلـك السـواتر، ولمـا أفاقـت قوات سـليمان مـن هـول المفاجـأة بـدأت تستبسـل وتقاتـل، فاحتدمـت المعركـة واسـتمر القتـال لسـاعات طويلـة، واسـتؤنف في صبـاح اليـوم التـالي دون أن يتمكـن سـليمان مـن تحقيـق هدفـه في الاسـتيلاء عـلى مزرعـة الـذرة أو مجـرى المـاء، فآثـر الانسـحاب مـن معركـة لا جـدوى مـن الاسـتمرار فيهـا.

(٦)

ركد الموقف بعدها ركوداً متقطعاً تتخلله مناوشات ومعارك صغيرة، كحرب استنزاف، غير أنّ سليمان استمر محاصراً لمعسكر عدوه لفترة طويلة كانت أضرارها جسيمة على الطرفين، فبينما قلت ذخيرة الرصاص في معسكر جيسي وتفشى داء الجدري بين رجاله وبدأ يحصدهم حصداً سريعاً، كانت قوات سليمان تعاني الجوع بسبب نفاد المؤن من الملح والطعام، وتذمر القوات من البحارة بسبب هذا الجوع.
بدا الموقف غير مريح للقائد سليمان، وما أراد أن يترك أمر حربه ضد جيسي يتخذ هذه الميوعة، فقرر حسم الحرب بوضع خطة هجوم كاسحة على معسكر جيسي، وبنى خطته على المباغتة والاستدراج، فكان لسليمان ما أراد، فأمر أن تتم مراقبة معسكر جيسي المحصور والمحاصر في نحو ثلاثة أرباع كيلو متر مراقبة جيدة من جميع الجهات، فأسفرت المراقبة بعد أيام عن رؤية أعداد كبيرة من جنود جيسي وهي تخرج لجلب حطب الوقود، فاستغل سليمان تفوقه العددي وشن عليهم هجوماً فقضى عليهم قضاءً مبرماً، وعندما خرجت طلائع أخرى من جنود جيسي بدأ سليمان يُعمِل خطة الاستدراج التي وضعها بإحكام، فتظاهر بالتقهقر تجاه معسكره فانطلت الخطة على العدو وخرجوا من مواقعهم الحصينة وأخذوا يطاردون قوات سليمان، وفجأة استدار سليمان عليهم ونفذ هجوماً كاسحاً وعنيفاً، وأدار معركة شرسة اشترك فيها قائد الأعداء جيسي بنفسه في القتال يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فقُتل من تحته جوادان ودنا منه الموت كثيراً، وبعد أن بلغت خسائره في الرجال مبلغاً كبيراً، أدرك أنها الهزيمة فانسحب وفلوله سريعاً من أرض المعركة، وأصبح متاحاً أمام سليمان العودة إلى متاريسه واستحكاماته التي حرمها منه جيسي طويلاً.

(٧)

في معسكره الذي فرَّ إليه جيسي مع فلوله وجرحاهُ؛ بدا حزيناً ومكتئباً، وبينما كان يحاول علاج الجرحى طوال الليل كانت أناشيد النصر وصوت الطبول تقرع مسامعه من معسكر القائد المنتصر سليمان الزبير، فأخذ يكتب رسالة لصديقه غردون يقول فيها: (أشعر بالحُمى يا صديقي وأحسُّ بأني سأفقد صوابي، وأحتاج سريعاً لنجدتك، لقد ظللت طوال الليل أعالج جرحاي بقدر ما في طاقتي من العلاج الطبي، بينما كانت تقرع مسمعي طبول الفرح التي كانت تدق في معسكر سليمان الذي كان رجاله يشعلون طوال الليل ألعاباً نارية مصحوبة بطلقات البنادق، احتفالاً بانتصاره، وكان عدد جرحاي يفوق حد التصور، أنا الآن في حالة من الضعف والانحطاط، أنجدني يا صديقي وإلا أغرقني الطوفان) ما أن وصلت الرسالة إلى غردون حتى سيَّر سريتين من أجل إنقاذ صديقه جيسي، تبعتها تعزيزات كبيرة لقلب ميزان القوة لصالحه، وبوصولها تدفقت في شرايين جيسي دماء المقاتل وتأهب للهجوم على معسكر سليمان، وبالفعل قاد هجوماً لا يبقي ولا يذر، أشعل به معسكر سليمان وأحال المخازن التي تحوي المؤن والعتاد إلى حرائق ورماد، فحاول رجال سليمان الخروج إلى المتاريس الأمامية فردهم رصاص جيسي على أعقابهم بخسائر جسيمة، وعند الظهر وصلت النيران إلى مواقعهم الدفاعية وفشلت محاولات رجال سليمان لإطفاء تلك الحرائق بالتراب، بسبب قلة المياه ثم انعدامها في الوقت الذي لم يكف رجال جيسي عن إطلاق النار عليهم، فاشتد بهم اليأس وأعياهم الظمأ ومضت النيران تلفح وجوههم

بحرارتها، ولم يجدوا بُدّاً سوى الخروج في جماعات والقتال في العراء وهم مكشوفون بالكامل لعدوهم، فانتهت المعركة إلى نهايتها المحتومة باحتلال جيسي مواقع سليمان التي كانت النار قد أحالتها إلى أكوام من الرماد، تتناثر فوقها الجثث المحترقة. رأى سليمان أن يعودَ ومن معه من الناجين إلى عاصمته وآخر محطاته (ديم سليمان) وفيها بدأ أنصاره يزودونه بمدد جديد لخدمة مجهوده الحربي، غير أنّ جيسي بدأ يزحف إليه بعد أن وصلته المزيد من الإمدادات من الخرطوم لتمكينه من حسم الحرب نهائياً ضد سليمان الزبير وقتله، غير أنّ سليمان ترك عاصمته قبل أن يصل إليها جيسي بثلاثة أيام، فاحتلها جيسي دون أن يطلق طلقة واحدة. ولم يكن انسحاب سليمان من عاصمته إلا لرغبته في نقل الحرب بينه وبين جيسي إلى الشمال بعيداً عن بحر الغزال، ليفرض على عدوه ظروف حرب كما يختارها هو، فارتكز في موقع يقال له (غرة) يقع بالقرب من الكلكلة منتظراً وصول جيسي إليه، وبذلك واتت جيسي فرصة أن يطلق يده في بحر الغزال كلها، فمضى يخضع الديم والزرائب ويعمل القتل والذبح فيمن بقي بهذه المناطق من أنصار سليمان، لا سيما الجميعاب والجموعية والجعليين، حتى استطاع أن يشيع الرعب في منطقة الديم كلها، ولكن الحرب بين الرجلين لم تنتهِ بعد.

(٨)

بـدا جيـسي حكيـماً وهـو يقـرر تأجيـل متابعـة زحفـه في أثر سـليمان الزبـير الـذي كان ينتظـره في موضـع (غرة) قـرب الكلكلـة إلى وقت لاحـق، وانـصرف إلى تطهـير مناطـق بحر الغـزال من خلايا سـليمان واحتلالهـا جميعـاً وتأمينهـا، بحيـث ينقطـع كل أمـل لـدى سـليمان بإمـدادٍ يأتيـه منهـا، وهـذه الرؤيـة التـي نفذهـا الداهيـة جيـسي بدقةٍ أبقـت سـليمان الزبـير محصـوراً في (غـرة) لا يملـك مـن أمـره شـيئاً.
بعـد أن فـرغ جيـسي مـن تأمـين بحـر الغـزال وتأمـين مؤخـرة جيشـه والاطمئنـان عـلى مؤنـه وخطـوط إمداداتـه، وبعد أن أرسـل إلى حاكـم دارفـور صديقـه (مسـداليا) و(ريجوليـه) حاكـم منطقـة دارا، وهمـا طلائـع الحكـم الأجنبـي في السـودان، وجاءتـه ردودهمـا الإيجابيـة بالموافقـة عـلى تزويـده بثلاثـة فصائـل نظاميـة مـن الجنود، بـدأ زحفـه نحـو الكلكلـة لمهاجمـة سـليمان الزبـير في غـرة، وقـد رأى سـليمان أن ليـس مـن الحكمـة أن يواجـه جيـش جيـسي مـن مرتكـزه، وعندمـا نـما إلى علمـه أن جيـسي اسـتعد تمامـاً للهجـوم عليـه؛ اتجـه إلى الجبـل الـذي كان يتحصـن فيـه الأمـير هـارون، أحد أمـراء الفـور الـذي كان يقـود ثـورة الأهـالي عـلى الحكـم المصري في دارفـور، احتجاجـاً عـلى الضرائـب الباهظـة التـي فرضهـا عليهـم.

(٩)

أراد جيسي أن يزعزع الروح المعنوية لسليمان وجيشه لاجئاً لإحدى ألاعيبه، فأرسل إلى سليمان إنذاراً قال له فيه: (إنني أمهلك خمس دقائق فقط للتسليم، فإذا مضت دون أن يصلني منك رد، فسأقوم بالهجوم عليك من كل صوب).

لم تعد مثل هذه الألاعيب تنطلي على سليمان وجيشه الباسل، ولم يؤتِ الإنذار النتيجة التي كان يأمل فيها جيسي، غير أنّ سليمان قام بالرد على جيسي رداً لم يكن يتوقعه، كان الرد بضرب مدفعي عنيف، وبدأت المعركة التي أبلى فيها جيش البازنقر بلاءً جيداً بقيادة رابح البطل الصنديد، واستمر القتال طوال اليوم بعنفٍ وقسوةٍ، وعُدَّت هذه المعركة من أقسى ما نشأ بين سليمان وجيسي من معارك.

عندما بدت تلوح في الأفق بوادر هزيمة جيسي والشمس تدنو نحو مغيبها، تراجع جيسي ولم يفكر في معاودة هجومه في اليوم التالي، بل أرسل يطلب إمداداً جديداً من صديقيه مسداليا وريجوليه، وأخذ يستميل مَنْ حوله مِنْ قبائل الرزيقات التي لم تكن قد نسيت بعد ما أصابها على يد الزبير باشا والد سليمان فانحازت لجيسي. رغم ذلك كان هجوم جيسي الأخير الذي صده سليمان هو آخر المعارك الحربية بين الرجلين في هذه الحرب الطويلة التي جرت بينهما واستغرقت عاماً كاملاً، وبدآ بعدها يستعدان لمعركة فاصلة تحسم الحرب، ولكنها لم تحدث وحلت مكانها أحداثٌ تراجيدية أخرى.

في الوقت الذي كان فيه سليمان يستعد للمعركة الفاصلة وهو الأضيَّق فُرصاً والأكثر إنهاكاً، وصله خطاب من والده الزبير

باشا، وكان خطاباً طويلاً يبين معتقد الزبير السياسي ويمتلئ بالحكمة والنصيحة والرجاء أن يتوقف سليمان عن حرب الحكومة، وأنّ تماديه في الحرب يضعف مركزه الأدبي في القاهرة ويضر به. نصح الزبير ابنه سليمان بأن يترك الحرب ويذهب لمقابلة غردون بالخرطوم أو دارفور، وهو على يقين أنه سيحسن معاملته؛ لأنّ الشرف وكرم السجية يوجبان عليه ذلك، لا سيما وأنه قد أوصاه به عند سفره من مصر ووعده خيراً. إنّ وصول هذه الرسالة إلى سليمان متأخرة ستة أشهر من تاريخ كتابتها، يؤكد الألاعيب والمؤامرات التي دبرها غردون وصنيعته جيسي، وأن تسليمها له في ذلك الوقت بالذات وقد اقتربت الحرب من نهايتها وراءه ما وراءه من استمرار الخِدع، ناهيك عن الحيلولة دون وصول العمدة محمد آدم إلى سليمان في الوقت المناسب، وهو الذي كلفه الزبير باشا بإيصال الرسالة.

(١٠)

عندما وصلت الرسالة لسليمان الزبير في الوقت الذي أراد لها غردون وجيسي أن تصل إليه، أخذ يقرأ ما ورد فيها بتمعنٍ عدة مرات، ليتدبَّر أمره على ضوء معانيها وعلى هُدًى من موقفه الميداني الذي هو فيه. وعندما تيقن جيسي أنّ سليمان قرأ رسالة والده التي يعرف جيسي كل حرف ورد فيها، أطلق رسالة لسليمان قال له فيها: (إن المشاكل التي بيننا يا سليمان يمكن حلها إن جلسنا معاً للحوار، ولك الأمان إن سلمت نفسك ورجالك لي)..!

ورث سليمان فيما ورث عن والده الزبير باشا حب الشورى والتنظيم، لذا عندما وصلته رسالتا والده وجيسي جمع حاشيته ومجلس حربه للتداول في أمر الرسالتين، فأوقع الأمر خلافاً في الرأي في مجلس الشورى الذي دعاه سليمان للانعقاد، فكان خيار مجلس الحرب بقيادة رابح يرى رفض التسليم لجيسي، وقد عبَّر رابح نفسه عن هذا الرأي بفكرٍ ثاقبٍ عندما قال:

- أخي وقائدي سليمان، لقد ناوأت جيسي فلا تتوقع منه عفواً إذا صرت في قبضته، ونحن سنقاتل معك إذا اخترت القتال، وإلا فيؤسفني الانفصال عنكم بعد أن شاركتكم في السراء والضراء هذه السنين الطوال، ولكنني لن أُسلِّم نفسي لجيسي، وإن كان أوروبياً؛ لأنّ الدناقلة محيطون به وهو مطواع لهم.

قبل أن ينهي رابح حديثه ذكَّر سليمان بالعداوة القديمة بين الطرفين، وأشار إليه بالانسحاب غرباً وفتح بلدان جديدة أو برفع شكواه إلى الحضرة الخديوية بمصر أو إلى غردون.

تبنى هذا الرأي من كانوا أقلية في المجلس، أما رأي

الأغلبيــة فقــد نــادى بالتســليم رضوخــاً لمشــيئة الوالــد الزبــير باشــا وتوجيهاتــه الواضحــة، لا ســيما وهنــاك وعــود إيجابيــة مــن جانــب العــدو ووعــد بالأمــان، واستشــهدوا بالآيتــين الكريمتــين: (وَإِن جَنَحُــواْ لِلسَّــلْمِ فَاجْنَــحْ لَهَــا وَتَــوَكَّلْ عَــلَى اللّهِ إِنَّــهُ هُــوَ السَّــمِيعُ الْعَلِيــمُ * وَإِن يُرِيــدُواْ أَن يَخْدَعُــوكَ فَــإِنَّ حَسْــبَكَ اللّهُ هُــوَ الَّــذِيَ أَيَّــدَكَ بِنَــصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِــينَ). صــدق الله العظيــم. لم يكــن ســليمان يــدري أنــه قــاب قوســين أو أدنــى مــن الوقــوع في براثــن المكــر وألاعيــب السياســة؛ وهــو ينصــاع لــرأي الأغلبيــة بالتســليم، فــودع زميــل الكفــاح رابــح وصحبــه الذيــن رفضــوا التســليم لجيسي، وبينــما أخذهــم رابــح غربــاً يقودهــم ويقــود نفســه نحــو صناعــة مجــد جديــد حفــل بــه التاريــخ، كان ســليمان يقــود نفســه وتوجــه ومعــه ثمانيــة مــن أقاربــه ونحــو ســبعمائة رجــل نحــو حتفهــم مســلمين أنفســهم لجيــسي، الــذي لم يفكــر في عهــده المكتــوب، ولم يتذكــر مواثيــق الــشرف العســكري، فأقــدم عــلى اغتيــال ســليمان ورفاقــه غيلــةً مــن وراء ظهورهــم.

(١١)

قبل ذلك كانت الحكومة المصرية قد أبرقت غردون ليرسل سليمان إلى القاهرة ولكنه علّق قائلاً:

- سأمنح جيسي ألف جنيه إذا نجح في القبض على ابن الزبير، وآمل أن يشنقه؛ لأنه لو أُرسل إلى القاهرة لرحبوا به..!

ظهر في أفق هذا الموت المأساوي صديق قديم للزبير باشا وهو قناوي بيك أبو عموري، وبكى سليمانَ كثيراً ودفنه ورفاقه في قبرٍ بذلك المكان. عندما وصل خبر إعدام ابنه الحبيب سليمان رمياً بالرصاص على يد الضابط جيسي، بتحريضٍ من غردون باشا مع ثمانية أو عشرة آخرين من أهله، كاد الأسى يقتل الزبير، وبدأ الحزن والغضب يتمازجان في دواخله، خاصةً عندما وصلته مرثية شاعرته بت مسيمس:

كم يا سليمان شدولك على المتبور
وإيدك يا اب نفل تفعل قدر ما تدور
كم كمَّلْ عيالاً تضبط الكبسور
كم كتل رجالاً فوقا الحرابة تدور

كانت أحزان الزبير باشا عميقة وعاصفة ليس على إعدام ابنه سليمان فحسب، بل على كل الشهداء الذين قتلهم جيسي غدراً وخيانةً، فأخذت وجوه أحبائه من القتلى الشهداء

تطـوف في مـدار أحزانـه، فيبكـي بـكاء الرجـال وزوجتـه التركيـة بعـد أن وضعـت لـه إبراهيـم تواسـيه وتقـول لـه:

- خُـذ قلبـي يـا زبـير واجعلـه منديـلاً لأحزانـك.

فيقول لها:

- فقـدتُ رجـالاً لا يمكـن تعويضهـم؛ حسـن الضقيـل، وحامـد ود مزمـل، وأبـا بكـر ود منصـور، وموسـى ود الحـاج، وأحمـد ود إدريـس، وإبراهيـم ود حسـن، والأربـاب محمـد ود ديـاب، ومحمـد عبـد القـادر ود الإمـام، وسـليمان محمـد، والقائـد برنـج. كانـوا إخـوتي، كانـوا أهـلي، كانـوا سـندي وعضـدي، واجهـوا الغـدر بشـجاعةٍ، والخيانـة بصـبرٍ، والمـوت ببسـالةٍ، فليرحمهـم الله جميعـاً مـع ولـدي، ولينزلهـم منـزل الصديقـين والشـهداء.

لم يخـذل الزبـير ابـن عمـه الشـهيد وأحـد قـادة جيشـه الأشـاوس حامـد ود مزمـل، الـذي أوصى قبـل أن يمـوت أن يسـتوصي الزبـير بزوجتـه بلتنـا بـت عمـر الناعمابيـة خـيراً، وبعـد أن صـارت بلتنـا أرملـة أرسـل الزبـير في طلبها زوجـةً لـه، فتزوجها وأنجبـت له حمزة وأسـماء، وهكـذا كان الزبير وفيـاً لأهلـه وأصدقائه ودماء الشـهداء.

(١٢)

كان لا بُدَّ أن يشتعل العداء بين الزبير وغردون بعد هذا الحادث المأساوي الذي اتسم بالخِسة، فحمَّل الزبير مسؤوليته لغردون الذي كان يأمل فيه خيراً، فإذا به كاذبٌ أشر وخصمٌ مبين. سعى جيسي ومن بعده غردون لتبرير ما فعلاه بروايات ساذجة، فقال جيسي وهو يتحرى الكذب:

- اضطررتُ لقتل سليمان بعد تسليمه؛ لأنه حاول أن يؤلِّب عليَّ رجالي، وأن يثير الفتنة في صفوف الجيش..! لن نصدق ما قاله جيسي؛ لأنه قول لا ينسجم مع الواقع الذي استمر حافلاً بالدماء المهدرة خِسةً وخيانةً، فقد طارد جيسي الذين لم يسلموا له وأمر مدير الفاشر الفرنسي مسداليه بتصفيتهم، فقام بإعدام كل من أهدر غردون دمه من الجميعاب، فقتل رمياً بالرصاص كلاً من موسى ود جلي، وإدريس ود سلطان، ومحمد ود فضل الله، والريس أبي القاسم، وعبد البين الأسود، واستمرت المجزرة لتشمل أسرة صباحي الجميعابية، فأُعدم رمياً بالرصاص كل من صباحي محمد حمد السيد، وابناه أحمد ومحمد، فانتشر الذعر وعمَّ الخوف، وأخذت شاعرة جيش سليمان تطلق أشعارها الحزينة، وتحذِّر من بطش رجال جيسي واستحلالهم للنساء، فنصحت أرامل الشهداء أن يهربن حفاظاً على شرفهن، فهمن على وجوههن سيراً على الأقدام وقطعن السهول والسهوب والمفازات والمسافات والوديان الموحشة بغير هدى، وهن يجتزن ديار النوبة وحمر والمسيرية والحوازمة، وأهلها يجيروهن بأخلاق الفرسان وقيم العربان،

وقبل أن يصلن إلى ديارهن ديار الجميعاب في الجيلي، كانت زوجة الزبير باشا وأم ابنه محمد الفضل الزبير باشا آمنة بت دبيسا قد فاضت روحها في الطريق أثناء هذه الرحلة القاسية. وكن قبل ذلك يرتدين لباس الحرب ويقبضن السيوف كالرجال ويستنفرن القبائل العربية ضد العدو الغاصب.

(١٣)

استشعر غـردون الورطـة التـي وجـد نفسـه فيهـا، فقـد كان مصرع سـليمان ورفاقـه غيلـةً ينـافي الأعـراف العسـكرية الشريفـة، وأن قتل الأسـير المستسـلم يناقـض الأخـلاق والمبـادئ الحربيـة، ويثبـت وحشـية وبربريـة غـردون ومخلـب قطـه جيـسي، لذا سـعى غـردون بكافـة الطـرق غـير الشريفـة لدفـع هـذا الوزر غـير الأخلاقـي وغير القانـوني عنـه، وتمـادى في ذلـك بغـير وازع مـن خُلـقٍ أو ضمـيرٍ، وهـو يسـعى لإلصـاق تهمـة التحريـض بالزبـير باشـا قائـلاً إنـه مـن حـرض ابنـه سـليمان عـلى الثـورة في وجـه الحكومـة، وحـاول زعزعـة مكانـة الزبـير باشـا لـدى الخديـوي وتجريـده مـن كافـة الامتيـازات التـي كان يتمتـع بهـا وحاشـيته في مـصر والسـودان. قـام غـردون بمصـادرة أمـوال وممتلـكات الزبير باشـا وإيـذاء عائلته وأقاربـه، والعمـل عـلى إشـانة سـمعته والقضـاء عـلى كل نفـوذ لـه أو أثـر في بـلاده وبـين مواطنيـه، وتسـليط الضـوء عـلى الاتهامـات الملفقـة ضـده، كالاتهـام الباطـل الـذي طالـه كأكـبر تاجـر رقيـق. في سـبيل ذلـك أرسـل غـردون للخديـوي مطالبـاً بالقبـض عـلى الزبـير باشـا ووضـع الحديـد في يديـه ومصـادرة أموالـه وبيعهـا لصالـح الحكومـة، وكان رد الزبـير داحضـاً هـذه التهـم والطلبـات بحجـج قويـة، ممـا جعـل الخديـوي يـرد عـلى غـردون قائـلاً:

- لا يؤخذ الأب بجناية ولده.

رغـم ذلـك قـام غـردون بمصـادرة أمـوال الزبـير في السـودان والتنكيـل بعائلتـه وأقربائـه، وقطـع شـوطاً بعيـداً في إشـانة سـمعة الزبـير، اعتـماداً عـلى ادعاءاتـه ودعـاوى جمعيـة إبطـال الـرق البريطانيـة.

(١٤)

بـدأ الإمـام محمـد أحمـد المهـدي ثورتـه في السـودان ولا يـزال الزبـير باشـا يـرزح تحـت وطـأة إقامتـه الجبريـة في مـصر، ونشـأ خـوف أن يتصـل الزبـير باشـا سراً بالمهـدي الثائـر، فبـدأت مراقبـة الزبـير باشـا ومراقبـة محـل إقامتـه حتـى فوجـئ بفرقـة تفتيـش تجـوب قـصره وتبحـث في كل شـبرٍ فيـه عـن أي مراسـلات بينـه وبـين المهـدي، فلـم يجـدوا شـيئاً ولكنهـم تركـوا في نفـس الزبـير كل الأسـى.
كان غـردون قبـل ذلـك الوقـت قـد قـدم اسـتقالته وعـاد إلى إنجلـترا، وعندمـا تحرجـت الأحـوال في السـودان وباتـت قريبـة مـن رؤيـة الزبـير باشـا بـأن مـصر سـتفقد السـودان في ظـل الفسـاد والمؤامـرات والضرائـب الباهظـة، تـم اسـتدعاء غـردون نتيجـة لضغـط الإنجليـز عـلى الحكومـة المصريـة لإخـلاء السـودان في الوقـت الـذي أخـذت فيـه الثـورة المهديـة تنمـو وتنتـشر بسرعـة حتـى عمـت كل أنحـاء السـودان، فأصـدرت حكومـة نوبـار باشـا في مـصر قـراراً عهـدت فيـه إلى غـردون مهمـة إرجـاع الجنـود والموظفـين الملكيـين والتجـار إلى مـصر، وذلـك مـع حفـظ النظـام في البـلاد بإعادتهـا إلى سـلالة الملـوك الذيـن كانـوا يحكمونهـا قبـل الفتـح المـصري.
لم يكـن قـرار الـوزارة المصريـة إلا صـدًى لسياسـة التخـلي عـن السـودان، وبموجبهـا أبـرق اللـورد قرانفيـل وزيـر الخارجيـة موصيـاً بإعـادة اسـتخدام غـردون في السـودان للاسـتفادة مـن خبرتـه ونفـوذه السـابق مـع القبائـل، لحراسـة حاميـة الخرطـوم والجاليـات المصريـة والأوروبيـة أثنـاء انسـحاب الجميـع منهـا إلى سـواكن.
كان غـردون لا يـزال عنـد رأيـه وخصومتـه للزبـير باشـا، وأنـه العنصر الخطـر الـذي يمكـن أن يزيـد مـن إذكاء ثـورة المهـدي في السـودان ويهب للتعـاون معهـا، وعندمـا وصلـت السـفينة المقلـة لغـردون إلى بور سـعيد

كان الزبير باشا حاضراً في ذهنه، وتذكَّر كيف أنه فشل في نفيه إلى جزيرة قبرص أو إعدامه، وبينما كانت تجول في رأسه هذه الخواطر وغيرها من المهام الجسيمة التي أُلقيت على عاتقه بإخلاء السودان، وصلته رسالة يحملها رسول من القنصل البريطاني بارنج يأمره فيها بالحضور فوراً إلى القاهرة، وهو أمر لا يملك له رفضاً، رغم أنه ما كان يرغب في الحضور للقاهرة بعد أن تقدم فيما مضى باستقالته من حكم السودان وغادر لإنجلترا مغاضباً ومتفوهاً بإساءات ضد توفيق باشا خديوي مصر، فاستقل قطاراً لوحده إلى القاهرة، وفيها رافق القنصل وقابلا الخديوي الذي قبل اعتذاره وثبته كحاكم عام من جديد على السودان، وحُددت مهام وظيفته وهي إخلاء السودان، وكان ذلك الوقت هو الوقت المناسب لإخلاء الحاميات وإلا تعذَّر إخراجها بعد ذلك، وكان لا بُدَّ من إيجاد نوع من الحكم هناك، ولم يكن إحياء الشياخات القديمة ونظام زعماء القبائل كافياً، وكان لا بُدَّ من إيجاد شخص يملك من السلطة ويتمكن من توحيد تلك الشياخات في ظل وحدة فيدرالية. عندها تقدم غردون باقتراح أذهل الجميع: لماذا لا يكون ذلك الرجل هو الزبير باشا..؟!

(١٥)

بدت الدهشة أكثر على وجه الخديوي توفيق وهو يسمع من خصم الزبير وعدوه اللدود غردون اقتراحه بأن يكون الحاكم في السودان هو الزبير باشا، بعد أن يصحبه في مهمة إخلاء السودان، فقال له والدهشة لا تراوح مكانها من وجهه:
- هل هو نفس الزبير الذي طالبت من قبل بنفيه ثم إعدامه ومصادرة أمواله؟ هل هو نفس الزبير الذي صادرت أمواله بالسودان واتهمته بتحريض ابنه سليمان الذي أعدمته؟
ردَّ غردون قائلاً:

- نعم سيدي الخديوي، إنه ذات الرجل الذي أعنيه.
أدارت الدهشة وجه الخديوي إلى وجهٍ آخر هو وجه جليسه الثاني السير إيفلين بارنج القنصل العام، فوجد ذات الدهشة تجلس عليه وهو يسأل غردون:

- لماذا هذا الرجل يا غردون؟

فقال غردون:

- شعورٌ صوفيٌّ غامض يساورُني حوله..!

فردَّ عليه قائلاً:

- أنا لا أثق في تلك الأدلة القائمة على الشعور الديني، فهل لديك أسباب واقعية تجعلنا نوافق على تعيين الزبير حاكماً على السودان؟

بعد صمتٍ قصيرٍ ردَّ غردون قائلاً:

- إذا كانت يا سيدي المهمة المطلوبة هي فقط إخلاء السودان بأسرع وقت مع المحافظة على سلامة المواطنين المصريين، فلستُ بحاجةٍ للزبير، أما إذا كان عليَّ أن أترك خلفي في السودان تسوية مُرضية للأمور، فإن وجود الزبير معي يصبح عندئذٍ بنداً مهماً لا غِنَى عنه. في ذلك الوقت كان الفريق الزبير باشا يعيش في رغدٍ من العيش كفله له مرتبه الكبير وهو بقصر (القللي) الذي أهداه له الخديوي توفيق دون أن يفرض عليه أية قيود تمس حريته الشخصية، غير أنّ قلبه كان يحمل كرهاً لغردون لا حد له. في ذلك القصر كان الزبير باشا يخضع طبياً لعلاج الآثار المرضية التي خلفها في جسده ذلك السم الذي دسه له إسماعيل باشا أيوب في دارفور، وما أُصيب به من اعتلال في حرب البلقان، وكانت ممرضته السستر مدام كوخ الفرنسية الإنجليزية الأصل تداعبه عند انتهاء جلسات العلاج وتقول له:
- خلاس يا زبير أنت زي الحصان.

كان يرى في عينيها الخضراوين حباً ومودةً دفعتاه أن يقول لها:
- تتزوجيني يا كوخ..؟!

تعثرت كوخ في مرطها وارتعشت خطاها وغادرت مسرعة دون أن تغادرها الفرحة، وعندما عادت له قالت:
- أقبل يا سيدي الباشا، ومن هي تلك المجنونة التي ترفض عرضاً كهذا من رجلٍ مثلك؟
فسألها الزبير:

- مسيحية أنت أليس كذلك؟

فقالت:

- نعم.

فقال لها:

- أرغب قبل أن أتزوجك أن تدخلي الإسلام.
صمتت مدام كوخ وقالت:

- منذ أن خُلقت وأنا مسيحية، وصعبٌ عليَّ أن أترك ديني، أنا أحبك وأحترم ديانتك، ولو لا ذلك لما قبلت بك زوجاً، وأعلم أن الإسلام دين عدل وسماحة ولا يرفض للمسلم التزوج بكتابية.
ردَّ عليها الزبير قائلاً:

- إنّ الإسلام والمسيحية يقفان ضد الإلحاد بناءً على حقائق جوهرية مشتركة بينهما، وهي أن لهذا العالم خالق واحد لا يموت ولم يكن وجود هذا العالم صدفةً وعبثاً، كلانا يؤمن بالقضاء والقدر وبالبعث والحساب بعد الموت، وبالجنة جزاءً للمحسن وبالنار عقاباً للمسيء.
صمت الزبير ثم أضاف قائلاً:

- لكل ذلك سمح لنا ديننا الإسلامي بالزواج من الكتابيات، لذا سأتزوجك على مسيحيتك، ولعل حياتي معك تقنعك بالدخول في الإسلام.

قالت:

- من يدري.

فقال:

- فقـط تأكـدي إن مِـتُّ عنـك فلـن ترثينـي فاختـلاف الديـن بيننـا يمنعـك مـن إرثـي.

فقالت:

- أعــرف ذلــك، وأنــا أقبــل بــك رجــلاً لا صاحــب مــال، أنــا أطمــع فيــك زوجــاً وحبيبــاً وأبــاً لأولادي فحســب.
فقال لها:

- لــن أتــركك نهبــاً للظـروف، بــل سأســجل باســمك مــا يؤمــن لــك العيــش الشريــف بعــد ممــاتي.
أرادت مــدام كــوخ أن تفعــل شــيئاً، غــير أنّ نظـراتِ الحاشــية وحياءهــا منعاهــا.

هكذا تزوج الزبير مدام كوخ وبقيت زوجة له لآخر العمر.

(١٦)

وفي صباح وردي يتوشح بنسائم باردة من عام جديد هو عام ١٨٨٤م في شهر يناير، أي بعد تسعة أعوام قضاها الزبير مُقيماً في مصر، حملت له زوجته مدام كوخ دعوة جاء بها أحد الرسل، وكان الزبير يظن أنها كسائر الدعوات التي كانت تصله من باشوات مصر ووزرائها وأعيانها لاحتفائيات وتشريفات ومشاريع دينية وثقافية، كان قد أنجزها أو بدأها، ولكنه عندما فضها وجد عليها خاتم وتوقيع رئيس وزراء مصر نوبار باشا، يدعوه من خلالها لاجتماع تفاكري.
كان غردون قد سجل رأيه رسمياً من خلال طلب تقدم به إلى السير إيفيلين بارنج قال فيه: (يخبرني شعوري أن تعاون الزبير معي سوف يحسم موضوع السودان، فأنا أثق في قدرته على حكم السودان والقضاء على ثورة المهدي باجتذاب أتباعه، لأنهم أصلاً كانوا قادةً لدى الزبير، وأثق في عظمته وقدرته القتالية، ومستعد لتحمل مسؤولية الاعتماد على الزبير؛ لأني مقتنع به رغم عدائي الشخصي معه، وعليه أرى تنظيم لقاء يضمني معه في حضوركم وحضور معالي رئيس الوزراء نوبار باشا).
بوصول رسالة غردون التي تحمل طلبه، اعتبر اللورد قرانفيل والسير بارنج أن تأييد غردون للزبير والتمسك به دليل على عدم توازن شخصيته، وكتب وزير الخارجية للقنصل العام يقول له: (إن خطابات غردون تثير قلقي، فتغيره نحو الزبير لا أستطيع أن أفهم كنهه).
ألحَّ غردون في طلبه مؤكداً من جديد أن الزبير هو الرجل الوحيد الذي يعادل نفوذه نفوذ المهدي، وسيجعل الزعماء

السودانيين المنتمين إليه يهجرونه، وأن السودان يحتاج للزعيم الزبير باشا قبل أن يحتاجه هو الجندي الإنجليزي، وأضاف: أنا أحتاج لرجل في قامة الزبير باشا ليحل محلي بعد إتمام الجلاء ليتولى السلطة بأي شكل، واسم الزبير ونفوذه سيفرضان ذلك على السودان وأهل السودان، فهو من أصلٍ شريفٍ، وينتسب إلى العباسيين، وقد تمكن بشجاعته وثروته أن يصبح من رجال السودان المعدودين.

(١٧)

استطاع غـردون أن يقنـع الإدارة العليـا في مـصر والبريطانية الممثلـة في وزير خارجيتهـا وقنصلهـا في مـصر بوجهـة نظـره، وأنـه عـلى اسـتعداد لطـرح مسـألة اصطحـاب الزبـير وتعيينـه حاكـماً عـلى السـودان عـلى المجتمعـين للتصويـت عليـه، لـذا وصلـت الدعـوة للزبـير باشـا التـي تسـلّمها مـن يـد زوجتـه مـدام كـوخ، وفي الموعـد المحـدد وقفـت عربـة التشريفـات لتقـل الزبـير إلى موقـع الاجتـماع، فأخذت العربة تشـق شـوارع القاهـرة، وعندما لم تتجـه لمقـر رئيـس الـوزراء سـأل الزبير باشـا مديـر المراسـم المرافـق، فأخبره أن الاجتـماع يخـص الشـأن السـوداني ويؤمـه قـادة عسـكريون وسياسـيون، ويضـم غـردون باشـا حاكـم السـودان والمكلـف بمهمـة إجـلاء السـودان، ومـا أن سـمع الزبـير اسـم غـردون حتـى أحـسَّ بفقـد ولـده، وأنّ جرحـاً بـين جنبيـه قـد تجـدد، إذن سـيلتقي خصمـه هـذا النهـار، في ذلـك الوقـت كان الحضـور منتظـماً في مقـر الاجتـماع وغـردون يقـول للسـير بارنـج:

- إنّ الزبير هو السوداني الوحيد المؤهل لقيادة البلاد، هذا إذا رغبنا في تهدئة الأحوال في تلك الديار المضطربة. إنه رجل استثنائي رائع. لكم كنت أود لو أنّ زوجتك الليدي بارنج رأته..!

إنّ الزبير يـا بارنـج سيعيد الأمن والاستقرار للبلاد خلال شـهرٍ واحـد، وإنّ محمد أحمدسيتوقف عن إطلاق كلمة المهدي عـلى نفسه. بقامتـه المديـدة، وجسـده الأقـرب للنحافـة، وبزتـه الشـديدة السـواد المطـرزة بالنياشـين، وطربوشـه الشـديد الحمـرة، وأكتافـه العريضـة التـي تحمـل شـارة الفريـق، وخمسـين ونيفـاً مـن السـنوات، دخـل الزبـير باشـا إلى الاجتـماع وبـدأت المواجهـة المثـيرة.

(١٨)

نهضت في نفس غردون باشا آمالٌ وأحلامٌ هجست له بصفح نبيلٍ من الزبير باشا، وأمنيةٌ عزيزةٌ بقبوله لعرضه ليرافقه إلى السّودان، وأن يكون حاكمه بعد ذلك رغم علمه بمدى غضب الزبير منه. والزبير باشا الذي وجد نفسه في مواجهة غردون وثلة من أكابر السياسيين والعسكريين، كان منتصب القامة على وجهه صرامة وأحزان عميقة، وفي جوفه أسىً وغضب يبحثان عن وجهه وشفتيه الصامتتين، أوعز ذلك للحاضرين أنّ عاصفة في طريقها لتثور، وبدا الموقف عصيباً على وجه رئيس الوزراء نوبار باشا والسير إيفيلين بارنج المعتمد البريطاني صاحب المنزل الذي ضم الاجتماع، كما كان واضحاً على وجوه كل من السير إيفيلين وود وجيرالد بورتال والميجور الأونورايل منتيج ستيورات ورتلي والكولونيل واطسون وجيلجر باشا وضابط المخابرات البريطاني السير ريجنالد ونجت، كانوا هم النخبة السياسية والعسكرية التي ترغب في إنقاذ السودان من الفوضى وحقن الدماء. بتلك المشاعر نهض غردون نحو الزبير موعزاً للمترجم أن يتبعه إلى حيث الرجل الذي لم يتقدم نحوه خطوة واحدة، وما أن أدركه ابتسم ومدَّ يده ليصافح الزبير، بيد أنّ الزبير لم يمد يده لمصافحته، فأثار هذا التصرف غردون فاستشاط غضباً، وسأل الزبير وهو يتميز من الغيظ عن سبب إمساك يده عن المصافحة. حينها بدأت العاصفة وردَّ الزبير على الفور قائلًا:

- لقد وقعت بيدك هذه على وثيقة إعدام ابني سليمان. كيف لي أن

أمسَّ اليد التي تلوثت بدم فلذة كبدي؟

أجابه غردون وبسرعة:

- يا زبير أنت الذي تسأل عن من قتل ابنك؟! لقد سطرت أنت لابنك هذا الذي تتحدث عنه خطاباً من القاهرة، تحثه فيه بالتمرد على سلطتنا. إن خطابك هذا موجود ضمن ملف القضية التي نظرتها المحكمة العسكرية، ويمكننا أن نجد الآن خطابك هذا في مكاتب وزارة الحربية بالقاهرة. ردَّ الزبير على ذلك الاتهام قائلًا:

- هذا ليس صحيحاً البتة، إنه محض كذب وافتراء ولن تجد هذا الخطاب أبداً، لأنه ليس موجوداً إلاَّ في مخيلة الوشاة والكاذبين. لم يحدث أبداً أن كاتبت ولدي في الشأن الذي تزعم، بل على العكس من ذلك، فقد كتبت له خطاباً أحثه فيه على التوقف عن عصيانه وقتال الحكومة، وإن كان لديك الخطاب الذي تزعمه دعني أراه. هنا أمر غردون السير ونجت بالذهاب إلى وزارة الحربية، وأن يبحث في المحفوظات عن محاضر المحكمة العسكرية تلك ويعود بها كلها فوراً، فهي تتضمن ذلك الخطاب.

(١٩)

كان الزبير في قرارة نفسه يتمسك بسذاجة هذا الاتهام ونسيجه الكاذب، موقناً أن رسول غردون لن يعود بشيء لغردون الذي كان يسيطر عليه الغضب من الإهانة التي وجهها له الزبير برفضه مصافحته، وهو لا يدرك حتى تلك اللحظة أنه كان ضحية للأكاذيب وجهله باللغة العربية، وكان الزبير غاضباً أيضاً وهو يتذكر تلك المحاكمة الغيابية التي أجراها ضده هذا الغردون في الخرطوم بتهمة تحريضه لابنه على الثورة وقضت بإعدامه، وهو حكم رفضه الخديوي، وها هو غردون الآن يجهد نفسه لعرض ذلك الدليل المتمثل في الخطاب المزعوم الذي استند إليه في إصدار الحكم بإعدامه. لقد خدعوه وقالوا له إن هذا الخطاب وجده جيسي عند سليمان قبل إعدامه، فصدق قولهم بعد أن استغلوا جهله باللغة العربية. رغم تلك الخواطر التي تدعو للغضب إلاّ أن الزبير وبمنطق عالٍ قال للاجتماع دون أن يفقد وقاره وسيطرته على نفسه:

- حدثوني كيف أحرض ابني على الثورة في وجه الحكومة وأنا أعلم جيداً نتائج ذلك، وهو القضاء عليه من قبل قواتها، خاصة وأن الكثير من أتباعي تخلوا عنه واستحالوا أعداءً له، يحيكون له المكائد والوشايات لدى غردون هذا ولدى جيسي الذي يجهل شرف الملوك أمثال الخائنين إدريس أبتر والسعيد بيك حسين، وهل من مصلحتي أن أقوم بمثل هذا التحريض فأفقد احترام الحكومة لي، وأعرض ما تبقى لي من أموال للمصادرة؟ وكيف يتبادر لذهن غردون أن أقوم بمثل

هـذا العمـل ضـد حكومـة الخديـوي التـي أنزلتنـي منـزل الراحـة، ووثقـت بي وأوكلـت لي قيـادة إحـدى فرقهـا لحـرب الـروس في البلقـان، وأنعم عـليَّ سـلطاننا العثماني بالرتـب والنياشـين، وأهدتني القصـور، هـل لي بعـد كل ذلـك يجـوز لي أن أنحـدر لـدرك الخيانـة. سـاد الصمـت الجميـع وهـو صمـت لم يقطعـه سـوى غـردون الـذي قـال:

- بينـي وبينـك الدليـل المسـتندي القاطـع الـذي سـيأتي بـه السير ونجـت بعـد قليـل.

لأول مـرة تغـزو شـفتي الزبير ابتسـامة خرجـت من مواقـع التهكم، وحطـت باهتـةً فوق ثغـره، غير أنّ ونجـت روى ترقـب الجميع وهو يدخـل حامـلاً بـين يديـه كافـة ملفـات تلـك المحاكمـة العسـكرية. امتـلأ قلـب غـردون حماسـةً واندفـع إلى تلـك الملفـات يصحبـه المترجمـون، ففضـوا أختامهـا وأزالـوا شـموعها الحمـر التـي أُغلقـت بهـا منـذ خمـس سـنوات، عقـب انتهـاء المحاكمـة التـي قضـت بإعـدام الزبـير الـذي قـال لهـم إن وجدتـم مـا قـال بـه غـردون فأنـا عـلى اسـتعداد لتقبـل حكـم المـوت الصـادر، وإلاّ إعـلان بـراءتي واسـتحقاقي لطلبـي دم ابنـي وإعـادة أمـوالي التـي صادرهـا هـذا الرجـل. بـدأوا يبحثـون عـن الخطـاب التحريـضي الـذي زعـم غـردون أن الزبـير باشـا قـد أرسـله إلى ابنـه سـليمان، واسـتمر البحـث والتقليـب في تلـك الملفـات ملفـاً ملفـاً، وورقـة ورقـة بدقـة شـديدة، وأُسـقط في يـد غـردون، التـي قبضـت الريـح وارتـدت خائبـة عـن العثـور عـلى الخطـاب المزعـوم، فامتقـع وجهـه وأحـسَّ بحـرج بالـغ، وأدرك أنـه كان ألعوبـةً في أيـدي أعـداء الزبـير مـن الوشـاةً والحاقديـن الحاسـدين.

حالـة مـن الإحباط أصابـت غـردون، وضعفأمله باصطحـاب الزبير إلى السـوداناإذ أن قبـول الزبـير باشـا بعرضه قد أصبح الآن محل شـكٍ كبيرلكـن هـذا لم يمنـع غـردون مـن الاعتراف بأسـفه العميـق فقال:
- إنّ الأمــر كان مأســاةً..! حقــاً إنّ العــدل قــد انحــرف عــن مجـراه، وعــليَّ الآن أن أعمــل مــا في وســعي لترضيــة الزبــير..! نعـم، أعـترف بـما وقعـت فيـه مـن خطـأٍ فـادح يـا سـادتي بحـق الزبـير، وأعتـذر عـن ذلـك وأطلـب موافقتـه ليرافقني إلى السـودان لإنجـاز مـا كُلِّفـت بـه مـن مهمـة، ويخلفنـي في حكـم السـودان.
هكـذا وبـكل شـجاعة اعتـذر غـردون وطلب مـن الزبـير أن يرافقه، غـير أنّ الزبـير لم يوافـق عـلى ذلـك إلا بعـد أن جـادل غـردون مجادلـة عنيفـة أوقعـت في نفـس أغلـب الحاضريـن معنًـى لم يقصـده الزبـير، الـذي لم يكـن يقصـد إلا تصفيـة النفـوس مـن غِلهـا. كانـوا يتداولـون ذلـك المعنـى بقولهـم: همـا طرفـا نقيـض، وأن السـماح للزبـير باشـا بالعـودة للسـودان مغامـرة غـير مضمونـة العواقـب، رغـم أن الزبـير صافـح غـردون بعـد ذلـك وقبـل عرضـه، إلا أنّ المجلـس طـرح الأمـر للتصويـت، وبفـارق ضئيل فـاز الـرأي الذي يعـارض عـرض غـردون، غـير أنّ ذلـك لم يـزد غـردون إلا حماسـةً لرأيـه وتمسـكاً بـه، مـا جعلـه يكثـر مـن طلباتـه وحججـه الداعمـة لوجهـة نظـره الخاصـة بالزبـير وتعيينـه حاكـماً عـلى السـودان، حتى وصـل الأمـر لمجلس العمـوم البريطـاني والـرأي العـام البريطاني..!

(٢٠)

كانت عربة التشريفات تفترق خطاها عن بقية عربات العسكريين والسياسيين الذين أمُّوا الاجتماع، وهي تحمل الزبير باشا لتعود به إلى مقر إقامته بقصر القللي، شاقة شوارع القاهرة المزدانة بالمصابيح، فقد غابت الشمس بعد انتهاء ذلك الاجتماع الطويل الذي انتهى برفض طلب غردون باصطحاب الزبير ومن ثم تعيينه حاكماً عاماً على السودان، ولم تكن مشاعر الأسى التي خلفها وقع رفض اقتراح غردون على الزبير أثراً من آثار حبه للسلطة التي أكل منها حتى شبع، أو الجاه الذي شرب منه حتى ارتوى، ولكن إشفاقه على السودان الذي بات على باب قوسين أو أدنى من الفوضى والدماء كان يحزنه.

بهذه المشاعر عاد الزبير باشا لمقره وغردون باشا يحاول ما في وسعه للإجابة إلى طلبه، ولكن دون فائدة، فمجلس العموم والحكومة البريطانية كانا تحت تأثير جمعية مكافحة الرق البريطانية التي كانت تعد الزبير باشا بناءً على معلوماتها المغلوطة، أكبر تاجر رقيق عرفه التاريخ، ولا شك أن مثل هذا الرأي كان له تأثير كبير على الرأي العام، فسقط اقتراح تعيين الزبير باشا حاكماً على السودان، وكان الزبير باشا ينفي عن نفسه هذه التهمة ويفنِّد تفاصيلها بحجج قوية، ويعزو أسبابها لأولئك الحاقدين والحاسدين من أعدائه في الداخل والخارج.

(٢١)

بقـصره كان يحـاول معالجـة أسـاه بالنظـر إلى طفلـه سـعد الديـن الـذي أنجبتـه زوجتـه المصريـة السـيدة عطيـات، ومداعبـة طفلـه الآخـر محمـد الجميـل ابـن زوجتـه المغربيـة خديجـة عمر السـنوسي.

لاحظـت السـيدة خديجـة السـنوسي الأسـى يرقـد في وجـه زوجهـا الزبـير باشـا، فسـألته عـن السـبب فأجابهـا:

- رفـض الإنجليـز تعيينـي حاكـماً عـلى السـودان بسـبب اتهامهـم الباطـل لي بـأني تاجـر رقيـق. إنّ الأوروبيـين هـم أول مـن ألصـق بي هـذه التهمـة لدفعهـا عنهـم، ولأننـي صرت تاجـراً ميسـوراً ومرموقـاً، وقائـداً فاتحـاً وحاكـماً لمناطـق في السـودان، مـا جعلهـم ينظـرون إليَّ كأفضـل مـن يلصـق بـه هـذا الاتهـام، وأبرزهـم كان غـردون الـذي يريـد أن يسـتنجد بي الآن، فقـد كان عـدوي ومـن تسـبب في مقتـل ابنـي سـليمان، وأتحداهـم جميعـاً أن يثبتـوا أننـي قـد بِعـتُ رقيقـاً واحـداً، وهـم يتحدثـون عـن أننـي أكـبر تاجـر رقيـق.

فسألته خديجة:

- مـا الـذي يسـندهم في ذلـك وأنـت تقـول إنـك لم تبـع رقيقـاً واحـداً؟

قال لها:

- يـا خديجـة إن تجـار الرقيـق كانـوا يسـتخدمون اسـمي زوراً وسراً،

حينما يتم القبض عليهم واعتراضهم من الجهات الرسمية.

فقالت له:

- ولكنك أهديت ألفَ رجلٍ للخديوي إسماعيل.

ابتسم الزبير ابتسامة هازئة، وقال لخديجة:

- لا بُدَّ أن تعلمي أن أولئك الرجال ليسوا عبيدي، إنهم جزء من جيشي (البازنقر) أحضرتهم معي من السودان إثباتاً لحسن النية والتسامح، وبث روح الصلح، وقد تم ضمهم إلى جيش الخديوي كجنود مهرة. أنا يا خديجة لم أكن أستهدف اصطياد الرجال في حروبي كرقيق، وإنما كنتُ دائماً إما فاتحاً أو مدافعاً عن نفسي وتجارتي وتأمين طرقها، وكنت أطلق سراح أسراي بعد هزيمتهم.

لم يكن الزبير باشا موقناً بأنه قد ترك الأثر الكافي في نفس زوجته خديجة فقال لها:

- أريد منك أن تفهمي عني أنني كنت تاجراً، وأنني قمت فعلاً بشراء عدد كبير من العبيد لأجندهم، ولكني لم أكن تاجر رقيق قط في أي يوم من الأيام. ربما يظن بي ذلك، ولكنني لم أكن كذلك إطلاقاً، ولقد حاولت أن أجعلك تفهمين أنه بالنسبة للموقع والموضع الذي كنت أحتله، سيكون ذلك أمراً مستحيلاً. إن المهم في الأمر هو رأيي عما إذا كانت تجارة الرقيق عملاً صحيحاً أم خطأ؟ أو إن كنت أتحدث لكِ عن الحقيقة بصدق أو غيره، ولو أنني تاجرت بالرقيق إذاً لكان ذلك سيفضي إلى أن يدمرني تماماً، وقد كنت

على رأس تجارة واسعة ومتنوعة سبق لي أن تحدثت إليكِ عن فروعها المختلفة، تجارة يتوقف نجاحها كليةً على الأمن وتوفُّر الاستقرار في جميع المناطق المحيطة بي، وكان رخائي ونعيمي الاقتصادي شخصياً؛ ورخاء الأهالي المحليين يرتبطان كأمر واحد، فالمواطنون المحليون إن كانوا ممن اصطيدوا أو من الذين يخشون أن يباعوا فلا يمكن أن يتاجروا معي، وإذا هم لم يتاجروا معي فلن أستطيع المتاجرة بدوري مع القوافل. كما يجب أن تعلمي أن اتخاذ الجواري واستجلاب العبيد لخدمة النساء أمرٌ يحرمه القرآن، وهو دستورنا الذي نحترمه وننفذ أوامره ونتجنب نواهيه.

صمتت خديجة قليلاً ثم سألت الزبير:

- ألم يكن بإمكانك محاربة هذه التجارة المحرمة؟

ردَّ عليها بتحسُّر:

- إنّ تجارة الرقيق من أكثر ضروب التجارة البشرية فظاعةً وظلماً وقسوةً، وإن كانت لسوء الحظ هي في نفس الوقت أكثرها عائداً وربحاً، ويؤسفني أن أقول لك إن الجمع بين محاولات إبطال الإتجار في الرقيق مع السماح في الوقت ذاته بجواز تملك العبيد، هو أمر مستحيل، وما دام العبيد يُشترون في القاهرة وإسطنبول فسيستمر إرسالهم من منابع ومصادر الإمداد، ومن الصعب أن تقوم بأي شيء في مناطق ليس بها حكومة مسؤولة، فليس ثمة من أحد يمكن أن تعالج معه الأمور.

عادت وسألته:

- إذاً ماذا فعلت؟

ردَّ عليها والحسرة تتملكه أكثر:

- كنت أحاول أن أغيّر من عادات أولئك البدائيين بتعليمهم وهدايتهم وأخذهم تدريجياً لطريق العمل الزراعي والتجاري، وقد كان السبيل الوحيد هو أن يُغزوا وأن يمدنوا بالتدريج، وكل حرب خضتها كانت من أجل تأمين طرق التجارة الشريفة؛ لأن في حريتها وتأمينها تعزيزٌ للأمن والنظام، وتوفير للخبرات والمعارف، ومن أجل هذا الهدف حاربت الرزيقات وفتحت دارفور ولم تكن لي مشاكل أخرى مع العرب، ولم أُرِد من سلاطين دارفور شيئاً إلاّ أن يُقلعوا عن اصطياد البشر من الطريق، وأن يسمحوا للقوافل أن تمر بسلام. فعلت الكثير في نطاق المديرية التي كنت أتولى حكمها، غير أنّ كل ما قمتُ به في ذلك التمدين قد نُقض وتقوَّض وصار مُضاعاً وهباءً منثوراً، وأصبح الآن كله نهباً للضياع.

(٢٢)

اضطر غـردون للسـفر بحملتـه للسـودان ولا يـزال اسـم الزبـير باشـا يـتردد عـلى لسـانه وفي برقياتـه، والزبـير باشـا في القاهـرة يحـاول أن يُصحـح وجهـة النظـر التـي قصفـت برغبـة غـردون دون طائـل، فانـصرف لنشـاطه الدينـي والاجتماعـي والثقـافي في القاهـرة حتـى فاجـأه غـردون بتلغـراف مـن الخرطـوم مسـتنداً فيـه عـلى سـلطته كحاكـم عـلى السـودان، قـال لـه فيـه: (سـعادة أفنـدم الزبـير باشـا بمـصر، نحـنُ عيَّنـا سـعادتكم وكيـلاً لحكمداريـة عمـوم السـودان، فيكـون معلومـاً سـعادتكم بذلـك) في هـذا التلغـراف المفاجـأة أبـدى غـردون اسـتعداده لإرسـال وابوريـن ليقـلا الزبـير مـن القاهـرة إلى الخرطـوم، غـير أنّ الزبـير باشـا ردَّ عليـه بتلغـراف قـال لـه فيـه ضمـن مـا قـال: (نعـرف سـعادتكم أننـا في غايـة التشـكر ونهايـة الممنونيـة مـن حسـن التفـات سـعادتكم، وجميـل توجهاتكـم، ويسـوءني أن أعـرِّف جنابكـم مـع غايـة الأسـف بـأن الحالـة الحـاضرة لا تسـعف بالمرغـوب، وأرجـو الله تعـالى أن يديـم سـلامتكم ويتـم نجاحكـم بـما فيـه الخـير والصـلاح العمومـي أفنـدم)

نظـر غـردون لـرد الزبـير باشـا وكاد الأسـى يقصـف بـه، فأمسـك ورقـةً وأخـذ يكتـب فيهـا رسـالةً رقيقـةً لأحـب شـقيقاته في إنجلـترا، قـال لهـا في ختامهـا: (قـد تكـون هـذه آخـر رسـائلي إليـك) وقـد كان..!

(٢٣)

عـدم الأخـذ باقـتراح غـردون بشـأن الزبـير الـذي تمسـك بـه حتـى وهـو في الخرطـوم، أنبـأه بـأنّ النهايـة قـد اقتربـت، وهـي النهايـة التـي كتـب فصولهـا عنـاد الحكومـة البريطانيـة رغـم تأييـد الكثـير مـن الإنجليـز أنفسـهم والمصريـين لاقـتراح غـردون بتعيـين الزبـير باشـا حاكـماً للسـودان بعـد خروجـه واسـتيوارت مـن الخرطـوم، غـير أنّ الزبـير باشـا نفسـه رفـض اسـتدعاء غـردون لـه لفـوات الوقـت، ولمـا آلـت إليـه الأمـور. كـما رفـض الزبـير باشـا أيضـاً اقتراحـاً آخـر للاسـتعانة بـه في القضـاء عـلى تمـرد عثـمان دقنـة في شرق السـودان، لتقـوى بعـد ذلـك الشـكوك حـول تعـاون الزبـير باشـا واتصالـه بالمهدويـين في السـودان، لتصـدر الأوامـر إلى قـوات البوليـس لمحاصرة قـصر الزبـير في القلـلي ومهاجمتـه لتفتيشـه والبحـث عـما يثبـت اتصالـه بالمهديـين، وبعـد عمليـة تفتيـش دقيقـة لم يعثـروا عـلى شيء يؤيـد شـكوكهم، فعـادوا ولكنهـم كانـوا يضمـرون شـيئاً ضـد الزبـير باشـا، وتشـاء الأقـدار بعـد خمسـة أيـام أن تـرد الوقائـع الدمويـة عليهـم عندمـا فشـل غـردون في مهمتـه بالخرطـوم، بعـد أن تُـرك وحيـداً مـع مسـاعده اسـتيوارت يصارعـان المهـدي وجيوشـه، فـصرع اسـتيوارت أثنـاء توجهـه إلى مـصر لاسـتعجال حملـة الإنقـاذ، وعندمـا تمكنـت جيـوش المهـدي مـن دخـول الخرطـوم قُتـل غـردون عـلى عتبـات القـصر، وترتـب عـلى ذلـك أن أشـاع أعـداء الزبـير باشـا أنـه يمهـد للهـروب مـن مـصر كـي يشـارك المهـدي في ثورتـه وقيادتهـا، ومـن ثـم الهجـوم عـلى مـصر، فصـدرت الأوامـر سراً بالقبـض عـلى الزبـير باشـا، ولكـن الخديـوي توفيـق رفـض فكـرة القبـض عـلى الزبـير. لم يفُـت عـلى الزبـير باشـا ذلـك الحـزن الـذي ارتسـم فـوق وجـه

زوجته مدام كوخ، وقد كان الحزن مُسيطراً عليها إلى الحد الذي كبَّل لسانها، فسألها الزبير باشا عن سبب حزنها فقالت:
- لستُ حزينةً فحسب، إنما غاضبة أيضاً، فالسودانيون الدراويش يا باشا قتلوا غردون باشا وقطعوا رأسه.
ردَّ عليها الزبير قائلاً:

- غردون لم يقتله السودانيون يا مدام كوخ، لقد قتله الإنجليز، وقد تذكرين أن السير بيرنج عندما جاءني وفي معيته ثلاثة من الجنرالات الإنجليز، ونصحتهم بأن اللجوء للحرب خطأ كبير وسينجم عنها تخريب للبلدان وتدميرها وتخويف الناس وترويعهم، بل ومن المحتمل أن يذبحوا غردون قبل الوصول إليه، فإذا ما صدقتموني فاتركوا لي أن أقوم بتدبير هذا الأمر ليتم بدون إراقة دماء، وإنّ عائلتي وأطفالي موجودون معي هنا، فاحتفظوا بهم كرهائن ودعوني أذهب إلى هناك ولن أطلب منكم أي عون مالي ولا سلطان، سأذهب بمفردي وعلى حسابي الخاص، ولن يقع بينكم وبين السودان دم، وسأتعهد بأن أعيد غردون بسلام. قلتُ لهم ذلك يا كوخ مراراً وتكراراً، حاثاً على قبوله، لأنني كنتُ أوقن بأن السير بالجيش إلى السودان أمر لا يفيد، ولكنهم لم يصدقوني وظنوا بي الظنون، فإذاً هم من قتل غردون بجهلهم وجبنهم ونفوسهم التي لا تُصغي إلاَّ للشر.
هكذا نجحت خطة الإنجليز في إبعاد المصريين عن السودان، وحدث كما توقع الزبير باشا أن فقدت مصر السودان، وكان على الزبير باشا أن يبقى بمصر مُحاطاً بمخاوف الإنجليز، وأن يفعل ما كان يفعله (أنشطته المختلفة) حتى مات المهدي في الخرطوم بعد خمسة أشهر من سقوطها على يديه، لتتواتر بعدها إلى الزبير باشا الأخبار عن حملات التنكيل التي قادها خليفة المهدي عبد الله

التعايشي ببشاعةٍ وقسوةٍ ضد قواده جيش البازنقر السابقين الذين حاربوا مع المهدي، فأبو عنجة مات مسموماً، والزاكي طمل قُبر حياً، والنور عنقرة سُلخت رجلاه تعذيباً وإذلالاً، وأبو قرجة أُودع سجن الرجاف، وحتى السعيد بيك حسين الذي انسلخ عن الزبير باشا في وقت مبكر، رغم أنه كان يمت إليه بصلة القرابة، قد قُتل شر قتلة بعد أن قُطعت أطرافه، وهناك في منطقة يقال لها الجنيد كان بطران شقيق الزبير باشا الأكبر يشرف على مشروع الزبير باشا الزراعي ويحتفظ بأسلحة شقيقه الزبير تحت الأرض، فهي أمانة من بطل عزيز لا يمكن التصرُّف فيهاوعندما علم بها الخليفة التعايشي أرسل وفداً وطلب منه تلك الأسلحة فرفض، ولكنهم عادوا إليه وبحثوا عن الأسلحة والذخائر في المطامير حتى وجدوها فأخذوها وقيَّدوا بطران بالسلاسل وحملوه معهم على ظهر بعير للخليفة الذي أودعه السجن.

(٢٤)

أيقن الزبير باشا أنّ السودان من بعده يسير في طريق الفوضى تحت قيادة رجلٍ فلت عُنقه من سيفه ذات يوم، ولكن هكذا هي الأقدار، وهذه هي مشيئة الخالق، والزبير كعادته يتقبَّل ما يخطه له القدر، ويؤمن بأنّ كل شيءٍ هو بتقدير المولى العزيز، ولكنه لم يكن ينقطع عن التفكير أبداً في شؤون بلاده وأهلها وشؤون مصر موطنه الثاني. وبينما كان في دوامةٍ من التفكير ذات مساء؛ حضر إليه محمد الحبيب ابن أخيه من عمومته وقال له:
- عمي الزبير باشا هل تسمح لي بخطبة ابنتكم آمنة؟
فقال له الزبير باشا:

- إنها ابنة عمك، ولك أن تتزوجها، فقط لا تنسى يا محمد أنها ابنة الأميرة رانبوه وحفيدة الملك تكمة ولد زنقابور سلطان النمانم ببحر الغزال.

فقال محمد الحبيب:

- أعلم ذلك يا عمي، وقد أدركت قصدك، أنها ملوكية وتستحق معاملة الأميرات.

ضحك الزبير باشا وانطلقت الأفراح في قصره تنبئ بزواج الأميرة آمنة من ابن عمها محمد الحبيب. وعندما بدأت شهور الصيف رافق محمد الحبيب بصحبة زوجته آمنة عمه الزبير باشا إلى مدينة الإسكندرية التي قرر أن يقضي فيها شهور الصيف، تلبيةً لدعوة صديقه وصهره الشيخ

عمر السنوسي العالم المغربي في قصره بتلك المدينة الساحلية. كان الزبير باشا وعائلته ومن معه من الحاشية والأهل سعداءَ بكرم وضيافة الشيخ السنوسي، رغم ما خلَّفه الحكم الجديد في السودان بأنفسهم من مرارات، غير أنّ الاحتفاء بالزبير وما لقيه في الإسكندرية من ودٍّ وتقديرٍ ودعواتٍ، كان كفيلاً بمحو بعض تلك الآثار، ومن تلك الدعوات كانت دعوة من قائد السفينة (أنديانا) التي رمت مراسيها على ساحل البحر المتوسط، وقد أبلغه بهذه الدعوة بكل رقةٍ ولطفٍ أحدُ الضباط الإنجليز، ولم يتردد الزبير باشا في قبول دعوة قائد السفينة لحفل شاي على ظهر سفينته؛ لأنه كان قد تعرَّف عليه من قبل في دار المحافظة التي زارها من قبل. شكر الزبير باشا الضابط الإنجليزي ثم قال له:

- سنكون هناك عند الرابعة بعد الظهر تماماً.

قبل أن يستدير الضابط الإنجليزي حيَّا الزبير باشا تحيةً عسكريةً صميمةً وانصرف.

بعد صلاة الظهر بدأ قصر السنوسي يشهد حركة الحاشية والأهل وهم يستعدون لمرافقة الباشا لهذه الدعوة، والعروس الأميرة آمنة تتخيَّر أفضل ما لديها من ملابس، ليبدأ بعد ذلك موكب الزبير باشا في التحرك، وبوصولهم شدَّ قواد العربات ألجمة خيولهم المزينة، وتقدم الزبير باشا الركب فأفسحوا له حتى دخل السفينة، فحياه قائدها تحيةً ودودةً ورافقه إلى سطحها، لتبدأ وقائع حفل الشاي الراقي والجميع ينظرون للمدينة التي بدت كعروس البحر، ولكنهم لم يكونوا ينظرون للمفاجأة الصاعقة التي كانت في انتظارهم. أنديانا السفينة الرائعة من مظاهر الحضارة، والتقدم الذي كان يصبو إليه الزبير باشا ويعمل لأجله ويتمنى أن يتحقق

في بـلاده السـودان، فقـد كان مـن أهـم أهدافـه التمديـن، فـكل الشـعوب تسـعى نحـو الرفاهيـة والحضـارة بالعمـل والإنتـاج والابتـكار، رأى ذلـك في مـصر وتركيـا ومـا سـمعه مـن الخديـوي إسـماعيل باشـا عـن فرنسـا وغيرهـا مـن الـدول الأوروبيـة، ومـا حدثتـه بـه معرفتـه وثقافتـه، فيتحـسر وينظـر للأفـق حزينـاً وهـو يقـارن كل هـذا بأحـوال موطنـه العزيـز السـودان، الـذي أرهقتـه الحـروب ودمـره الجهـل والتخلُّـف، وهـو يـرزح تحـت وطـأة الجهـل والفاقـة والظلـم والفسـاد والاسـتبداد.

واقـعٌ تمنـى لـو اسـتطاع أن يغيِّرهويغـيِّر واقـع أهلـه الذيـن صاهـر أغلـب قبائلهـم مـن أجـل الوحـدة والمسـاواة، ومـن أجـل أن يكـون مقبـولاً لديهـم، ولكنهـم هـل يعلمـون الآن أيـن هـم مـن الشـعوب؟ لـو علمـوا ذلـك لقضـوا حُزنـاً وإشـفاقاً..!

(٢٥)

بينما كانت هذه الخواطر تدور في رأس الزبير على سطح السفينة (أنديانا) وهو ينعم بكرم قائدها الإنجليزي، كانت زوجته المصرية ماريام خضر عطية تتآنس مع ضرتها الست زينب بنت منصور، وهي تنظر إلى بطنها المتكورة وتقول لها:

- مُش كان لازم تيجي معانا يا زينب، دا إنتي على وش ولادة.
نظرت إليها قائلة:

- الزبير ده ما بخليهو ليك براك كلو كلو..!

ثم تضحكان.

عدالة الزبير الدائمة بين زوجاته كانت تفرض عليهن احترامهن المتبادل لبعضهن بعضا.

الفرحة كانت تسيطر على العروس الأميرة آمنة الزبير باشا وعريسها محمد الحبيب، وهما يضعان أيديهما على سياج السفينة أنديانا، وينظران إلى زُرقة البحر ويستمتعان بمشاهدة أسماكه المتقافزة. وفي مكان آخر من السفينة كان محمد الفضل ابن الزبير باشا يمسك بيد أخيه علي فائق الزبير باشا ويتمليان جمال السفينة، بينما تنظر إليهما في مودةٍ قريبتهما آمنة بنت أحمد ود رحمة الناعمابية التي كانت سعيدة بمرافقة الباشا إلى هذه السفينة، وتقول لنفسها: (والله خوتهم أخير من الشقاقة..!)

حـول الجميـع كانـت تطـوف ضحـكات الحاشـية والأهـل والعشـيرة مـن الذيـن رافقـوا الزبـير باشـا إلى هـذه الدعـوة الراقيـة، وبعـد أن فـرغ الجميـع مـن تنـاول الشـاي وقضـوا وقتـاً ممتعـاً، كان الزبـير باشـا عـلى سـطح السـفينة ينهـي أحاديثـه الـودودة مـع مضيفـه قائـد السـفينة (أنديانـا) ويتأهـب للمغـادرة. هـي ذات اللحظـة التـي اهتـزت فيهـا أكـواب الشـاي وبقايـا الكيـك الإنجليـزي في أطباقـه، فقـد رفعـت فيهـا السـفينة مراسـيها وبـدأت تتحـرك ماضيـة نحـو عـرض البحـر، بطريقـةٍ لا تُفسَّر، اندهـش لهـا الضيـوف، ولكـن الزبـير باشـا فهـم كل شيءٍ، غـير أنـه التفـت إلى قائـد السـفينة وكأنـما يسـأله تفسـيراً لهـذا الإقـلاع المفاجـئ، فرنـا إليـه قائـد السـفينة وقـال لـه في رقـةٍ متناهيـةٍ:

– لقـد صـدرت لي الأوامـر يـا سـيدي الباشـا أن أنقلـك إلى جبـل طـارق، ومنـذ هـذه اللحظـة أنـت أسـيري..!

(٢٦)

أمر الزبير باشا الجميع بالهدوء وصمت مذعناً لواقعه الجديد، والسفينة تمخر عباب البحر نحو معتقله في جبل طارق، في مؤامرةٍ دبرها السير بارنج بعد أن رفض الخديوي فكرة اعتقال الزبير باشا لاتهامه بالاتصال بالمهديين في السودان، وعزمه غزو مصر بعد أن يقود مع المهدي ثورته، فانتهز بارنج وجود الزبير باشا في مدينة الإسكندرية تلبيةً لدعوة صديقه وصهره الشيخ عمر السنوسي لقضاء شهور الصيف معه، فأمر الضباط الإنجليز هناك بالقبض على الزبير ونفيه إلى جبل طارق، الواقع بين النقطة الأوروبية وخليجكالالاس المطل على المضيق بالجزيرة الإسبانية التي كانت محمية بريطانية.

كانت السفينة تمخر عباب البحر وثبجه العالي والنفوس تمور بمشاعر لا يمكن وصفها، والزبير الأسير يقول لنفسه: (إذن فقد نجح الإنجليز في استدراجي وإبعادي عن مصر بهذه الطريقة التي تنم عن المكر والخِسة، بعد أن فشلوا في مواجهتي بما يثبت اتهامي أو يبرر نفيي، فهم ليسوا شجعانَ بالقدر الكافي، وما كان لرجل مثلي أن يلقى ما لقيته من هؤلاء الجبناء، بالفعل هم جبناء)

عادت الذكريات تفرض على الزبير نفسها بقوةٍ، وتذكَّر كيف تحركت به مركب أبي عموري بغتةً في أعوام ماضية وهو نائم دون إرادته التي جاءت به لإعادة ابن عمه محمد عبد القادر إلى موطنهما بالجيلي. يا إلهي أين محمد الآن؟ لقد قتله جيسي

رمياً بالرصاص مع ابني سليمان وبعض العشيرة، فذهبوا شهداءً في سبيل الأولين والآخرين.

لا تني الذكريات المحزنة تتوالى على الزبير، فقد أبقاه الخديوي إسماعيل جبراً في مصر، وفي ذلك الخضم المثقل بالذكريات كان يقول لنفسه: (ها أنا الآن أغادر أوطاني مثل الطريد، فما ودعتُ خِلاً ولا أدركت ثاراتي..!)

(٢٧)

حطت السفينة على الساحل بجانب الجبل، والست زينب بنت منصور تصرخ بآلام المخاض، لقد كان ألمها مضاعفاً هذه المرة، وقائد السفينة يقول للزبير:

- تفضَّل يا باشا فقد وصلنا.

نظر إليه الزبير وقال:

- قدَّر الله وما شاء فعل.

فعلَّق القائد:

- ستقيم هنا كما كنت تقيم دائماً، ستقيم في قصر الملكة فيكتوريا، ولك حريتك في هذا المكان، وسيكون معك من تشاء، وسنحضر لك من تشاء من قومك وأصدقائك وأحبابك.

سأله:

- وكم سأقيم هنا؟

ردَّ قائلاً:

- لا أدري يا سيدي الباشا.

فقال الزبير:

- إذن دعنا نصادق قدرنا الجديد.

هبط الزبير ومن معه وأخذ يتملى الجانب الغربي من صخرة جبل طارق، وينظر إلى الساحل الذي تُحدِّق به أشجار الفلفل والصنوبر، وأشجار النخيل تتفرَّق هنا وهناك في الحدائق وكأنّها أكاليل تزيِّن مفرق المدينة المزدحمة القاصية بحشودها وشوارعها البيضاء، وزرقة البحر من تحتها وزرقة السماء من فوقها، فتبدو مرتعشة ومتوهجة في ألقٍ من النور، ومن ورائها يطل الجبل المشمخر صاعداً في خطوطه وتعاريجه الحادة صوب السماء، بينما تنبسط تلال الساحل الإسباني متدحرجة لتسترخي في نعومةٍ ورخاوةٍ ولينٍ تحت بساتين البرتقال والكافور وأشجار الفلين، والمدن البيضاء الأخرى تومض على طول حافة البحر.

كانت تحين من الزبير التفاتة إلى الميناء، فيرى السفن غادية ورائحة، فيكتظ ويمتلئ كامتلاء الشوارع. كانوا يحدثونه أن هذه النقطة هي نقطة التقاء المسافرين من الهند والمغرب وإسبانيا. وعندما يستدير يرى الصخرة الرخامية تسمق بعتوٍ وعلى مدىً بعيدٍ مكونةً حائطاً عالي المرتقى نحو البحر، حيث ينكسر تحت القمم الصخرية المنتصبة عمودياً على الساحل.

وضع الزبير رجله في الكوخ الملكي الذي بُني على ارتفاع مائة وخمسين متراً من البحر، في موضع به صخور ناتئة وغائصة تحت الماء، وعندما تسوق الرياح الشرقية الأمواج المتلاطمة وتدفعها، يتصاعد رشاشها المالح متواثباً فوق السقف، بينما

الصبَّار والماريقولد يلتصق بجدار الصخر، وقد انمحى كل أثر لأي خُضرة إلى ما بعد الأكمة، وكأنها تخلص نفسها من ربطة وثاق البحر وقبضته. وعندما ارتحلت عينا الزبير شرقاً رأى امتداداً منبسطاً لا يحده شيء سوى خط التقاء البحر بالسماء على مدى الأفق. ولم يجد الزبير بين منزلته الجديدة وبين خليج جبل طارق الهائج سوى كُتلٍ من الصخر. عندما يهدأ المكان ويلفه الصمت والسكون تتعمق العُزلة في ذاته، ويغمره الأسى رغم ما لقيه من تقديرٍ واحترامٍ في منفاه. غير أنّ هذا الصمت وذلك السكون فلقته صرخةُ القادمةِ الجديدةِ إلى الحياة، فتخلَّصت الست زينب من آلامها، وقرر الزبير أن يطلق على طفلته اسم رُقية، التي سجل التاريخ قصتها مع ملكة

(٢٨)

كان خبر ونفي وأسر رجل بحجم الزبير باشا خبراً في غاية الإثارة، فالرجل يعرفه العالم أجمع، لذا دارت المطابع سريعاً فخرجت الصحف وهي تحمل هذا النبأ العاصف في كل من مصر وتركيا وبريطانيا وأستراليا ونيوزلندا وأمريكا، ولا تني تلك الصحف والإعلام العالمي يتناول بإثارة قصة الزبير باشا من زوايا مختلفة ورؤى متباينة، فاكتسب لقب أُسطورة القرن العشرين، وكان كل ذلك تقع عليه الكاتبة الصحافية البريطانية بعينيها الزرقاوين، فأثارتها سيرة الرجل، وبعد أن تأكدت أنّ الزبير مسموحٌ له بمقابلة زواره في جبل طارق، طرقت باب مديرها في مقر مجلة المراجعات المعاصرة التي تصدر في لندن عن صحيفة (بول مول) وقالت له:

– سيدي أفكِّر في زيارة زبير باشا في منفاه، أريد أن أسمع من الرجل قصته الحقيقية، أريد أن يرويها لي بنفسه، ينتابني إحساس بأنّ الرجل قد ظُلِم.

نزع المدير عن وجهه نظارته السميكة العدستين، وبانت الدهشة أكثر في عينيه ووجهه وهو يقول لها:

ـ فلورا ماذا تقولين؟ أحقاً تُريدين السفر إلى تلك الصخور الجرداء؟

ـ نعم سيدي، وآمل أن أعود لك منها برواية حقيقية ومثيرة.

ـ فلورا شو أعلم أنك بارعة في الكتابة، وتملكين أسلوباً ناصعاً،

وبياناً مشرقاً، وإفصاحاً مبيناً، وأنّ هذا الأمر لو تم سيكسبنا صيتاً، ولكن أخشى من فشل مهمتك وأنت توثقين لتاجر رقيق، مما سيدفع علينا اللعنات.

ـ لو كنتُ أفكر في الأمر بهذه الصورة، لما فكرت في عبور البحار لقضاء وقت طويل في مهمةٍ تافهةٍ، فنصب عيني يا سيدي تحدي الرجل لكل العالم، أن يثبتوا أنه قد باع رقيقاً واحداً. من تحداهم يا سيدي فشلوا جميعاً في الإتيان ببرهانٍ واحدٍ عليه، فأنا أصر على إنجاز المهمة لنرى ماذا سيقول لنا الرجل.

لم يكن أمام مدير فلورا سوى أن يأمر لها بنثريات الرحلة، وبوصولها إلى هناك التقت بحاكم مستعمرة جبل طارق السير جون آدي، وشرحت له مهمتها وطلبت إذناً للالتقاء بالزبير باشا. قال لها: الزبير باشا ضيفٌ مكرّمٌ أكثر من أنه معتقل، ومسموحٌ لكِ ولغيركِ بزيارته، أتعلمين أنه صار صديقي؟

ـ واو.. حدثني عن ذلك. قال: حسناً سأحدثك الآن، فعند حضور الزبير باشا واكتمال وصول مرافقيه وحاشيته التي وصلت أعدادها لأكثر من ألف شخص، عملت ما في وسعي أن أُخفف عنه وطأة الحجز والنفي، لمعرفتي بتاريخه البطولي ولإدراكي لمكانته السامية في نفوس المصريين والسودانيين على حدٍ سواء، بل هنالك قسمٌ من الإنجليز أرادوه حاكماً على السودان، إذن فلديَّ معتقل من وزنٍ خاصٍ، أمروني بوضعه في قصر جلالة الملكة الصيفي، فكلفت من يدير له شؤون هذا القصر، وهو بكلِّ أسفٍ يجهل الإنجليزية، فعينت له مترجمين وسمحت أن يُرسِل ويتلقى الرسائل، وأن تُنفَّذ رغباته في حدود الممكن وحدود إمكانياته، وبدأت أزوره بانتظام وأقضي

معـه أوقاتـاً ممتعـةً، فالرجـل يتسـم بالبسـاطة والـروح الطيبـة وروح الفكاهــة، نلعــب الشــطرنج والطاولــة والدومينــو التــي تعلمــتُ بعضــاً منهــا عــلى يديــه، فهــو تعلمهــا مــن الضبــاط الأتــراك والشراكسـة أثنـاء اشـتراكه في حـرب البلقـان ضـد روسـيا.

(٢٩)

بعـد أن أعـادت فلـورا شـو فمهـا الصغـير إلى وضعـه الطبيعـي، وخفضـت حاجبهـا مـن أثـر دهشـتها، قالـت للسـير آدي: الآن يـا سـيدي الحاكـم أنـا في حالـةِ تـوقٍ أكثـر للقـاء الباشـا، فدعنـي أذهـب لـه، فقـط مُـرْ مـن يجـري بيننـا الترجمـة ورتـب لي معـه المواعيـد.

ـ لكِ ذلك يا سيدتي.

كانـت فلـورا شـو فتـاةً جذابـةً مشرقـةَ الوجـهِ والعينـين، تميـل للبدانـة، وعندمـا وضعـت قدميهـا في قـصر الزبـير باشـا وبـدأت في إجـراء لقاءاتهـا الأسـبوعية معـه، التـي امتـدت إلى أربعـةِ أشـهرٍ؛ بـدأت الغـيرة تغـزو قلبـي السـت زينـب والسـيدة ماريـام خـضر زوجتـي الزبـير:

ـ إنتـي يـا بـت خـضر حكايـة الخواجيـة دي شـنو، كل أسـبوع ناطـة عـلى الباشـا..؟!

ـ ياختي دا نا متخضة زيك، إمكن يعملها يا زنوبة ولا رايك آيه..؟!

ـ الله يكفينـا شر الخواجـات ديـل، هـم بلاهـم الجـاب الباشـا لي هنـا شـنو، الله يقطـع خيتـم.

ـ بقولكِ ننده على حامد.

ـ حامد المترجم؟

ـ أيوه عليك نور.

كان واضحاً بعد ذلك لحامد الغرض الذي لأجله تم استدعاؤه، فقال لرسولها: السيدة فلورا شو متزوجة من السيد فريد ريك جون لوقارد؛ حاكم نيجيريا.

ببلوغ الخبر لها قالت مريام خضر لزينب: اطَّمني يا ستي طلعت متجوزة.

ـ أحمدك يا ربي حمداً يصل لا عندك..!

عندما أكملت السيدة فلورا شو تحقيقاتها الصحفية تحت عنوان (قصة الزبير باشا كما رواها بنفسه) نشرتها بمجلتها، فأماطت اللثام بصورة واضحة عن أُكذوبة تجارة الرقيق التي ألصقها أعداء الزبير به، وتلقفتها جمعية إبطال الرق ونفخت فيها وضخمتها حتى أصبحت عقيدةً راسخةً لدى الحكومة والمجتمع الإنجليزي خاصة، والأوروبي عامة، وبدأت أوساط الرأي العام البريطاني تتعاطف مع الزبير باشا وتنقِّب في التهم الأخرى التي أسندها إليه الإنجليز، مما مهَّد لقرار إطلاق سراحه من المنفى الذي كان يحسُّ به الزبير إحساساً مؤلماً، فيقول مع الشاعر:

سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها** تفك الأسارى دونه وهو موثقُ..

فما هو مقتولٌ وفي القتلِ راحةٌ** ولا هو ممنونٌ عليه فيطلقُ..!

في ذلك المنفى وذات مساءٍ وصل إلى قصر الزبير باشا حاكم جبل طارق السير آدي جون، وقال لصديقه الزبير باشا: سيتم عقد اجتماع في الغدِ هنا بقاعة الاجتماعات في قصركم هذا، هي ذات القاعة التي تعقد فيها الملكة اجتماعاتها عند قضائها لفصل الصيف هنا، وهو اجتماعٌ في غاية الأهمية أرجو أن تكون حاضراً. في الموعد رأى الزبير باشا في قاعة الاجتماعات الحاكم العام لمستعمرة جبل طارق و(ياور)

خـاص بجلالـة الملكـة فيكتوريـا وبعـض الضبـاط الإنجليـز والمترجمـين، وكان حديثهـم يـدور حـول تـولي الزبـير باشـا حكـم السـودان منفصـلاً عــن مـصر..!

كان الزبـير باشـا يسـتمع لذلـك المؤتمـر الملكـي وشـبه العسـكري ويفهـم ما يـدور بواسـطة المترجمـين، حتـى ألقـوا عليـه باقتراحهـم لحكـم السـودان. نهـض الزبـير باشـا ثائـراً وقـال قبـل أن يغـادر الاجتـماع غاضبـاً: اقتراحكم غريــب يملــؤني بالاشــمئزاز والغضــب، فقــط انظــروا إلى أنفســكم فسـتجدون أنكـم مـن اتهمتمـوني يومـاً عنـد خديـوي مـصر بالعمـل عـلى اسـتقلال السـودان عـن مـصر، لقـد فتشـتم قـصري ليـلاً بالقاهـرة كـما تُفتـش منـازل الخونـة بحثـاً عـما يثبـت اتصـالي بالمهديـة، لقـد صادرتـم أمـوالي بالسـودان وقتلتـم ابنـي سـليمان غـدراً، وهـذا الاقـتراح في غايـة الوقاحـة، تريـدون بـه أن تجعلـوني أجـيراً لمصلحتكـم لأحكـم السـودان عـن طريقكـم، أنـا لسـتُ عميـلاً، أنـا صاحـب نـوازع وطنيـة، وخـادمٌ للدولـة الإسـلامية، ومرتبـطٌ بفكـرة وحـدة وادي النيـل ولا يسـعني الآن سـوى أن أرفـض اقتراحكـم جملـةً وتفصيـلاً..!.

رغـم ذلـك أصـدرت الحكومـة البريطانيـة قـراراً بإلغـاء قـرار نفيـه والسـماح لـه بالعـودة إلى القاهـرة بعـد عامـين ونصـف العـام؛ قضاهـا في منفـاه، وقبـل أن يغـادر زارتـه الملكـة فيكتوريـا بالقـصر بجبـل طـارق، ومنحتـه وسـاماً بريطانيـاً، في إشـارة لاعتـذار بريطانيـا وسـعيها لإرضائـه وتعويضـه عـما لحـق بـه، وعندمـا أرادت تقليـده الوسـام كان البروتكـول الملكـي يلـزم الزبـير باشـا بالانحنـاء للملكـة فرفـض، وقـال إنـه لـن ينحنـي لغـير الله، فقامـت الملكـة بتقليـد الوسـام لطفلتـه رُقيـة، مـا أكسـبها فيـما بعـد لقـب الملكـة فيكتوريـا..!

(٣٠)

عندمـا تخلَّـص الزبـير مـن معتقلـه ومنفـاه تمـت إعادتـه لمـصر، وكان هـذا أخـف القدريـن، وكان يقـول لنفسـه وهـو يتنسـم هـواء مـصر: بعـد هـذه الشـهور الطويلـة في الأسر تأكـدوا مـن بـراءتي، أو زال السـبب الـذي أخافهـم مـن بقائـي في القاهـرة، ولكنـي لـن أتركهـم حتـى يعوضـوني عـلى كل أذًى ألحقـوه بي. كان في ذلـك الوقـت قـد بلغـت الثـورة المهديـة أوجهـا، ممـا أيقـن معـه الزبـير باشـا أن مـصر لـن تسـمح لـه بالعـودة إلى السـودان، غـير أنَّ الخديـوي محمـد توفيـق اسـتقبله وأهـداه عربـةً فاخـرةً تجرهـا الجيـاد، وسـيفاً أثريـاً رُصِّـعَ مقبضـه بالذهـب والمـاس، وأعـاده لقـصر الجيـزة الـذي أهـداه لـه الخديـوي إسـماعيل مـن قبـل، ورغـم أن الزبـير قـد تـرك خلفـه ثـلاث أسر وعـشر سـنوات مـن الذكريـات في مـصر، إلاَّ أنـه كان تواقـاً للعـودة إلى السـودان، ولكنهـا رغبـة لم تتحقـق إلاَّ بعـد مُـضي ثلاثـة عـشر عامـاً كاملـة، فقـد كانـت الحكومتـان المصريـة والإنجليزيـة تخشـيان عواقـب عودتـه، ورغـم مـا كان يحيط بالزبـير مـن أجـواء الأُبهـة والثـراء التـي وصفهـا ونسـتون تشرشـل حينـما كان ضابطـاً صغـيراً في القاهـرة، إلاَّ أنـه كان مُـصرَّاً عـلى موقفـه بالمطالبـة بتعويضـه تعويضـاً مجزيـاً، بإعـادة كل مـا صـادره غـردون مـن أموالـه في السـودان، ومـا صرفـه مـن حُـرِّ أموالـه عـلى فتـح دارفـور، ومـا نجـم عـن تدمـير تجارتـه وبضائعـه. وعندمـا لقـي تسـويفاً أوكل المحامـي الإنجليـزي السـير ماريـوت ليقـوم عنـه برفـع دعـوى تعويـضٍ مدنيـةٍ ضـد الحكومـة المصريـة.

لم تُوقـف إجـراءات رد الاعتبـار التـي اتخذتهـا الحكومتـان البريطانيـة والمصريـة لصالـح الزبـير باشـا سـيره في دعـواه وإثنـاءه عنها، ولم يشـفع لهـما في ذلـك زيـارة الملكـة لـه في جبـل طـارق قبيـل عودتـه واعتذارهـا

الضمني أو عرض الإنجليز له حكم السودان منفصلاً عن مصر، أو قرار الحكومة المصرية بمنحه راتباً مدى الحياة يتوارثه أبناؤه من بعده، أو قرار اللورد كرومر حاكم عام السودان الإنجليزي المصري بإعادة أمواله المصادرة، أو ما قرره خلفه الجنرال ونجت باشا عن تعويضه بنحو ثمانين ألف فدان زراعي بمشروع الجزيرة ومشروع دلتا القاش بمنطقة طوكر بشرق السودان، وإطلاق اسمه على أهم شوارع الخرطوم، وما قرره بمنح تعويضات مالية لأسر ضحايا مجازر جيسي وغردون من قبيلة أهله الجميعاب، الذين رفضوا هذه التعويضات وأعادوها إلى الجنرال ونجت، معلنين أنهم لا يبيعون دماء شهدائهم ويحتسبونهم في سبيل مبادئ الزبير والوطن، وظل الزبير باشا متمسكاً بدعواه ومطالبته بمبلغ مليون جنيه عن فترة النفي التي قضاها بجبل طارق ظلماً وبدون مسوغ، وغير ذلك من الأسباب التي أوردها في الدعوى. ورغم أن الخلاف الطويل والحاد بينه وبين الحكومة المصرية بسبب هذه المطالبة، لم ينتهِ إلاَّ بعد وفاة الزبير باشا، إلا أنّ ورثته سكتوا بعد ذلك عن هذه المطالبة.

(٣١)

عندمـا عـاد الزبـير باشـا إلى القاهـرة مـن جبـل طـارق كان محـل حفـاوةٍ واحـترام، وظـل مقيـماً فيهـا لثلاثـة عـشر عامـاً مندمجـاً في تيـار الحيـاة الاجتماعيـة والعامـة، واسـتمر في اتصالاتـه وعلاقاتـه بكبـار رجـال الدولـة والمجتمـع والمشـاهير مـن العلـماء والأدبـاء ورجـال الحكـم والجيـش، وأضحـت ديـاره مـزاراً للأهـل والأصدقـاء ومنتـدًى أدبيـاً وفكريـاً لأصدقائـه الكُثـر مـن المصريـين والأوروبيـين، وكثـيراً مـا كان يقـضي نهاراتـه في زيـارة الإخـوان وقضـاء حاجاتهـم أو المشـاركة في الاحتفـالات والمناسـبات الرسـمية أو ممارسـة رياضـة الفروسـية والمـشي بـين المنتزهـات أو شـاطئ النيـل، وفي بعـض الأحيـان كان يقابـل الخديـوي عبـاس حلمـي الثـاني في قـصر عابديـن، فيلقـاه الخديـوي بالبِـشرِ والترحـابِ، ويقـضي معـه أوقاتـاً في أحاديـث الذكريـات عـن أجـداده وعـن التاريـخ المشـترك والعديـد مـن الشـؤون العامة. هـذه الحيـاة الباذخـة التـي كان يعيشـها الزبـير باشـا في مصر لم تنسـهِ أهلـه ولا سـودانه، بـل كان تواقـاً للعـودة، فعندمـا أطلقـوا سراحـه مـن معتقـل جبـل طـارق، ودَّعـه حارسـه الإنجليـزي، سـيدني لـو، بحـزنٍ عميـقٍ قائـلاً لـه:

ـ سـأفتقدك يـا باشـا ويحزننـي أن يكـون الجبـل خِلْـواً منـك، ومـا يخفـف مـن ألمـي أنـك عائـدٌ إلى ديـارك.

ـ شكراً لك ولمعاملتكم الطيبة لي طوال فترة إقامتي بينكم.

ـ تسـتحق ذلـك يـا باشـا، ولكـن قـل لي مـاذا سـتفعل عنـد عودتك لوطنـك بعـد كل هذه السـنوات؟

كانـت أبـواق السـفينة تزمجـر وأهـل الزبـير باشـا وحاشـيته انتظموا

بداخلها، وحاكم جبل طارق ينتظره على مدخل السفينة ليودعه، وفيكتوريا أو رُقية ابنة الزبير باشا الطفلة التي لم تبلغ الثالثة من عمرها، تتمسك بكف والدتها الست زينب بنت منصور، وتتشبث بوسامها الملكي وهي لا تدري لماذا ولدت في هذا المكان وإلى أين ستسير بهم هذه السفينة، والزبير باشا يضع كفه على كتف حارسه الحزين ويرد عليه قائلاً:

ـ لقد أضحيتُ رجلاً عجوزاً، وأصبحتُ الآن أترقَّب الموت، ولكنني قبل أن أموت أحب أن أرى بلادي التي شهدت أيام صباي تنعم بالسكينة والسلام، وأن أرى التجارة تزدهر عبر النيل من أقصاه إلى أدناه. قد لا أعود إلى وطني ولكن إذا ما تيسر ذلك، فإنني سأعمل على تقديم النصيحة التي أعطيها الآن لشعبي الذي سيبارك ويذكر اسمي بكل ما هو طيب؛ لأنني لا أرغب أن أكون عظيماً، فسوف أنال ما أستحقه من دعوات في قبري بعد موتي بزمنٍ طويلٍ، ولو أن أهلي استخدموني لعمل أي شيء، فإنني سأكون مسروراً وسيكون ذلك شيئاً طيباً، وإذا لم أعد ذا فائدةٍ فسأذهب إلى إحدى المدن المقدسة مكة أو المدينة، هكذا أقضي بقية أيامي.

ـ إذاً الوداع يا سيدي، وسأحتفظ بذكرياتي معك نوراً ينهض في أيامي الماضية.

جوقة الحاكم بدأت تموسق لحنها الحزين والزبير باشا يتخلَّص من أحضان سجانه السابق، حاكم جبل طارق، وتتحرك السفينة متوخية ذات النقطة التي تحركت منها السفينة (أندايا) بغتةً قبل ثلاثين شهراً.

بحلول عام ١٨٩٦ أنذرت الحكومة البريطانية فرنسا من

الزحـف في اتجـاه السـودان، وسـيَّرت بعثـةً عسـكريةً مشـتركةً مـع مـصر لإعادة احتـلال السـودان، وكان قائـد الحملـة اللـورد هربـرت كتشـنر الـذي هـزم قـوات الخليفـة التعايـشي في معركـة كـرري بـأم درمـان في سـبتمبر ١٨٩٨، وسـقطت الخرطـوم في يـد القـوات الغازيـة وانتهـت الدولـة المهديـة، فهـرب الخليفـة عبـد الله التعايـشي وتـم اللحـاق بـه وقتلـه في موضـع يقـال لـه أم دبيكـرات. بنهايـة عـام ١٩٠٠ اكتمـل بسـط السـيطرة عـلى كامـل كردفـان، وتُركـت دارفـور تحت حكـم السـلطان عـلي دينـار الـذي احتفـظ بعلاقـات طيبـة مـع الحكومـة المركزيـة حتـى قـرب قيـام الحـرب العالميـة الأولى.

كل ذلـك كان إرهاصـاً لعـودة الزبـير باشـا إلى بـلاده السـودان، فقـد باتـت الحكومـة الإنجليزيـة والمصريـة وهمـا تسـتعيدان السـودان عـلى قناعـةٍ بـأن الزبـير الـذي تجاوز السـبعين مـن عمـره أصبـح لا يقـوى عـلى التفكـير في أي جهـادٍ سـياسي أو عسـكري، فبـات المسـتعمر لا يخشـى بأسـاً للشـيخ الهـرم، وسـمح بعودتـه إلى السـودان، فأخـذ الزبـير باشـا يسـتعد لهـذه العـودة والفرحـة لا تسـعه، وفي عـام ١٩٠٣م تـرك مـصر خلفـه واتجـه صـوب السـودان.

(٣٢)

كانت الذكريات والأشواق تتآمران على قلب الزبير باشا تآمراً قاسياً، وهو في طريق عودته للسودان، وعندما وصل إلى أول نقطة عند حدود السودان الشمالية أمر مركبه بالتوقف وهبط إلى الأرض التي أحبها وأسند إليها جبهته مُصلياً لله شاكراً له، وقبضت كفه حفنة من تراب سودانه، وسمح لشميمها أن يعبر أنفه ودمعة حرى لتسقط عليها، واستمر موكبه في السير عابراً الفيافي ملتقياً بالقبائل مبتهجاً بحفاوة الاستقبال، وخبر العودة يطير إلى موطنه الجيلي ويرجها رجاً، فأخرج أهلها النحاس والطبول وأخذوا ينتظرون خارجها بترقّبٍ احتشد بالقلق والأشواق، وعندما توغَّل ركب الزبير العائد متجهاً إلى وسط السودان، تلقاه شابٌّ متحمس يحمل سحنات قبيلة الشكرية، وقال للزبير باشا بشيءٍ غير قليل من الفرحة:

ـ يا الباشا نحمد الله على سلامتك، ونحمده أن زاح عنا كرب سنوات التعايشي الماضية، ضقنا فيها الويل لكن ربك كريم ولطيف. كان الزبير يعلم أنه عندما دانت السلطة للإمام محمد أحمد المهدي بعد قيام الثورة المهدية، تخلّص زعماء قبيلة الشكرية في لباقةٍ وهدوءٍ من ولائهم للعهد التركي، وبذلك تفادوا أيةَ خسائر في أيام المهدي، غير أن خليفته عبد الله التعايشي نكَّل بالشكرية تنكيلاً شديداً، قتلاً واعتقالاً، على خلفية حدث قديم تقول وقائعه إن قبيلة الشكرية وقفت إلى جانب الأشراف، إبان الخلاف الذي كان قائماً بين الأشراف وأتباع الخليفة عبد الله قبل وفاة المهدي.

نظر الزبير باشا إلى ذلك الشاب وقال له: لا تنظروا إلى الوراء، ذلك عهدٌ مضى بخيره وشره، افعلوا الآن ما يرضي الله وما

يُصلـح الوطـن.
ـ والله يـا الباشـا مـن شـدة مـا لقينـا اتمنينـا رجـوع الإنجليـز، إت مـا سـمع قـول الحاردلـو:
ناساً قُباح من دار غرب يوم جونا..
أولاد ناس عزاز متل الكلاب سوونا..
يابا الدفس يا الإنجليز إلفونا..
ابتسـم الزبـير ابتسـامة غامضـة، وقـال لذلـك الشـاب الشـكري: يـا ولـدي المـا بتعرفـو بتجهلـو، نـاس الغـرب ديـل مـا ناسـاً قبـاح، ديـل نـاس مسـلمين وفرسـان وأمـراء، بـس ربنـا سـلط عليكـم بذنوبكـم مـن لا يخافـه فيكـم ولا يرحمكـم..!
– أهلنـا الشـكرية يـا الباشـا مـا سـلموا منـو، هـو كان بقـول أنحنـا في حيـاة المهـدي وقفنـا مـع أولاد البحـر ضـد أهلـو، عشـان كـدا لمـن جيـش كتشـنر قـرب مـن أم درمـان قلوبنـا كانـت بتسـوي بـق بـق، وود تورشـين بقـول نبـي الله الخـضر قـال لـو أرواح جيـش كتشـنر تحـت فروتـو..! بـس لامـن الـضرب بـدا في كـرري زولـك هـرب وخـلى ناسـو والحاردلـو قـال:

تكضب في الخضر من الكضب ما بتروى

ما قلت الترك أرواحا تحت الفروة

درب السبعتين سويتو ليلة وسروه..!

شـعر الزبـير باشـا بالأسـى عـلى الدولـة المهديـة، فقـد فتـت العنصريـة تماسـكها الداخـلي وأحبـط التهميـش رجالهـا، ونخـر اليـأس أرواحهـم وزعـزع إيمانهـم بدولتهـم الرسـالية التـي بـدأوا فيهـا زاهديـن، نُسـاكاً قيمـين لا تلهيهـم الحيـاة ولا يخيفهـم المـوت.

لم يكـن الزبـير باشـا يؤمـن بالفكـرة التـي قامـت عليهـا المهديـة وهـي ظهـور المهـدي المنتظـر الـذي يقـود النـاس للصـلاح ويمـلأ الدنيـا عـدلاً، بعـد أن مُلئـت جـوراً، وقـد سـاءه أن تبطـل المهديـة العمـل بالمذاهـب الأربعـة وتحـرق كتبهـا وتحـارب مشـائخ الطـرق الصوفيـة، فقـال لذلـك الشـاب: كنـت أعتقـد تمامـاً أن المهـدي يكــذب فيــما ادعــاه مــن أنــه مبعــوث الله إلى الأرض ليتخلــص مــن فســادها، ليعيـد للإسـلام مجـده وقوتـه، حقـاً كان الله يرسـل الرسـل الذيـن يتحـدث عـن طريقهـم إلى عبـاده، موضحـاً لهـم سـبل الرشـاد، راسـماً لهـم طريـق السـعادة في الداريـن، غـير أننـي مـع هـذا كنـت أؤمـن إيمانـاً لا يتطـرق إليـه الشـك بـأن عهـد الأنبيـاء قـد مـضى وزال، وأن أولئـك الذيـن يدعـون النبـوءة عـلى الرغـم مـن أن هـذه الحقيقـة التـي يعلمهـا كل مسـلم لم يكفـوا عـن الظهـور في مختلـف العصـور منـذ أن بُعـث محمـد عليـه الصـلاة والسـلام، فكانـوا يأتـون ويمضـون كالفقاقيـع التـي تذهـب مـع الريـح هبـاءً، بينـما تبقـى كلمـة الله كـما جـاء بهـا محمـد خاتـم الأنبيـاء هـي الكلمـة العليـا، وكلمتهـم هـي السـفلى دائـماً. لقـد سـقط محمـد أحمـد في براثـن أحابيـل التعايـشي الـذي أراد في يـوم مـا أن يغرينـي بـأن أكـون المهـدي ليسـير في ركابي، ويتسـقط عيشـه مـن حيـاة كهـذه، فأوشـكت أن أضـع السـيف عـلى رقبتـه، ولكـن العلـماء أوقفـوا هـذه الخطـوة، فذهـب بعـد ذلـك ولعـب الـدور الـذي فشـل فيـه معـي مـع محمـد أحمـد، فأغـراه بـه وجعلـه يتـمادى في ادعـاء المهديـة.

(٣٣)

ذُهل الشاب من حديث الزبير وقال له: والله يا الباشا كلامك كلام علماء وكلام تاريخ، والمعنى الكلام القالو الحاردلو في ود تورشين كلو صاح مو؟

ـ أسمع يا ابني ما أقوله لك؛ الحاردلو أراه ود تورشين هولاً عندما سجنه تسع سنوات وجعله بعد ذلك تابعاً له يحمل له إبريق الوضوء وفروة الصلاة، ويسير خلف دابته أنَّى ذهب، بعد أن جرَّده من المال والسلطة، فأسلمته هذه الشدائد إلى مشاعر تحن إلى أيامٍ مضت وعهودٍ انقضت، فتناوحتها عنادل شعره بغناءٍ حزينٍ وشجوٍ أليم، فقد تبدل يسره عسراً، واستحالت سلطته وقوته إلى حسرةٍ وضعفٍ، وعشقه إلى نثارٍ من الأطياف وهشيم من الذكريات. وعندما هرب التعايشي بعد هزيمته بدأ يهجوه. ورغم أن التعايشي نكَّل بأهلي وسجن شقيقي واستولى على أسلحتي، إلاَّ أنني لا أقبل أن تُردد مثل هذه الأشعار في حق سوداني لصالح المستعمر، ودعني الآن أذهب فأهلي وعشيرتي يترقبون وصولي.

في أواخر عام ١٩٠٣م وصل الزبير باشا إلى الخرطوم، فوجد بها استقبالاً رائعاً وعيناه تعانقان ربوع الوطن ومسارح طفولته ونشأته ونجاحاته المظفرة، كتاجر وقائد عسكري وسياسي فاتح وحاكم لا متسلط ولا متجبر، وهناك على مشارف الجيلي كانت الخيول والجمال والنحاس والطبول والدفوف والزغاريد والأناشيد في انتظاره، وبعد الاستقبال الحاشد زار أهله وعشيرته، ووقف على أحوالهم واستعاد

الكثـير مــن ذكريــات الأعــوام الماضيــة.

عامـان قضاهمـا الزبـير باشـا بـين أهلـه وعشـيرته في السـودان، يبني المنــازل والقصــور في الجيــلي والســقاي وأم درمــان والــسرورراب، ويؤسـس المـزارع ويسـتقبل زواره وهــوًى في نفسـه يدفعـه للعــودة إلى مــصر التــي تــرك فيهــا أسراً وذكريــاتٍ ومشــاريعَ قائمــةً وأخــرى بحاجــةٍ إليــه لتكتمــل، فــودع الجميــع وعــاد إلى مــصر عــودة اختياريــة، وابتنــى لــه قــصراً خاصــاً بمدينــة حلــوان بعــد أن علـم أن آخـر القصـور التـي كان يقيـم فيهـا قبـل عودتـه للسـودان وهــو قــصر أحمــد حشــمت قــد شــبَّ فيــه حريــق، وكان وقــعُ ذلـك أليـماً عـلى نفـس الزبـير باشـا، الـذي أفقـده هـذا الحريـق مـا كان يحتفـظ بـه في ذلـك القـصر مـن تحـفٍ ووثائـق ونفائـس. في قـصره الجديـد بحلـوان أنشـأ الزبـير خلـوة لتعليـم الصغـار القـراءة والكتابـة والدراسـات الدينيـة وتحفيـظ القـرآن الكريـم، وسـاحة يعلمهـم فيهـا الرمايـة وركـوب الخيـل. سـبعة أعـوام قضاهـا الزبير في قـصره بحلـوان، أكمـل خلالهـا شراء اسـتراحة بالمدينـة المنـورة وأوقفهـا كنُـزلٍ مجـاني لراحـة الحجيـج السـوداني، واسـتأجر بيتـاً كبـيراً بالقاهـرة لإيـواء وراحـة حجـاج المغـرب العـربي في رحلتـي الذهــاب والإيــاب، وخصــص حصصــاً مــن معاشــه الشــهري لصالــح كســوة الكعبــة الشريفــة، وإرســالها إلى الهيئــة الســعودية المسـؤولة عـن كسـوة الكعبـة، وطبـع سـيرة ابـن هشـام عـلى نفقتـه الخاصـة بمطبعـة بـولاق بالقاهـرة ووزعهـا عـلى قطاعـات واسـعة مــن المســلمين، كان يكســو الطلبــة الســودانيين بالأزهرالشريــف، ويدفــع لهــم الإعانــات الماليــة، وأنشــأ مضــماراً لســباق الخيــل بمدينـة حلـوان المصريـة، وكتـب مذكراتـه كاملـة ضمّنهـا سـيرته وكافـة وقائـع مجاهداتـه المدنيـة والعسـكرية، لتبـدأ بعـد ذلـك رحلـة عودتـه النهائيـة إلى السـودان.

قرر الزبير باشا أن يقضي ما تبقى من عمره في السودان بين أهله وذويه، بعد أن بلغ الحادية والثمانين من عمره، وأفصح عن أمنية عزيزة وهي أن يُوارى جثمانه ثرى وطنه السودان، فطلب من الحكومة المصرية إعداد قطار خاص يقله وحاشيته البالغ عددها ثلاثمئة شخص إلى السودان، فلم تتأخر الحكومة المصرية في الاستجابة لطلبه، فتحرك الزبير من حلوان مسقط رأس الخليفة الصالح عمر ابن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين، وألفى القطار الخاص في محطة السكة حديد بالقاهرة في مساء العاشر من أغسطس ١٩١٢م، فودعته هناك حشود هائلة من الشخصيات الرسمية والشعبية، شملت كبار رجال الدولة والجاليات الأجنبية في مصر، وبينما كان القطار ينهب الطريق كانت الرؤى والذكريات والخواطر تنهب كيانه، وعندما وصل إلى الخرطوم تنقل بين دُوره وقصوره في أم درمان والسقاي والسروراب، وقضى الخمسة أشهر الأخيرة من حياته في بلدته الجيلي، بعد أن قلَّتْ حركته كثيراً، واعتلت صحته بسبب الوهن وتقدم السن والحُمى التي لازمته زمناً طويلاً، حتى أرسل له الحاكم العام طبيب القصر، فوصله من الخرطوم إلى الجيلي، وأخذ عينةً من دمه تم إرسالها إلى معامل لندن الطبية بإنجلترا، ليتسنى لطبيب القصر معرفة أسباب الحمى وتشخيص المرض ومن ثم وصف الدواء، وظهرت أخيراً نتيجة الفحص المعملي وأبانت أن الزبير باشا مصابٌ بالملاريا الطور الحلقي، ولكن قضاء الله كان أسبق، فقد تُوفي الباشا قبل وصول نتيجة الفحص بيومين.

(٣٤)

ما أن طار خبر وفاة الباشا حتى نكست دواوين الحكومة أعلامها وأعلنت الحداد والاستعداد للتشييع الرسمي للجثمان إلى مثواه الأخير بمقابر الجيلي. في السادس من يناير ١٩١٣م تاريخ الوفاة وضع الجثمان فوق عربة مدفع عسكرية لتبدأ مراسم التشييع المهيب، فحفت بالعربة المقلة للجثمان الأورطة الثالثة عشرة السودانية بموسيقاها الجنائزية الحزينة، ومن خلف النعش مضى كبار رجال الدولة في السودان والأعيان وممثلو القبائل وكبار رجال الجاليات الأجنبية في السودان، الذين تحرك بهم قطار خاص من الخرطوم إلى الجيلي للاشتراك في مراسم تشييع البطل القومي الزبير باشا رحمة منصور العباسي، وعلى أنغام الموسيقى العسكرية الحزينة وبعد الصلاة وصل النعش بالخطوة البطيئة لطابور الجنازة، وحينما أُنزل النعش إلى القبر أطلقت البنادق إحدى وعشرين طلقة لم تكن زخاتها أعلى صوتاً من أصوات الحزانى الباكية الذين سالت دموعهم تبكي هذا الأسطورة والبطل العظيم، وارتفعت الأصوات بالترتيل والدعاء والتكبير والتهليل والتراب يُهال على اللحد، فووريت الثرى حياةٌ حافلةٌ بالبذل والمجاهدة والمعاناة والظلم والصبر على المكاره. نعته الدولة الإسلامية وأبرزت صحيفة الأهرام القاهرية خبر وفاته ببيان مؤثر، ورثاه الشعراء ومنهم شاعر النيل حافظ إبراهيم الذي ابتدر مرثيته العصماء بقوله:

يا روضة النيلين جئت مسلماً** فعليك من لدن الإله سلامُ

لي في ربوعك من رجالك معشرٌ**شمٌ إذا جار الزمانُ كِرامُ

أين الزبيرُ أبو الفوارس والندى**قد غيبته عن حماكِ رجامُ

قد كان فخراً للبلاد وذكره**باقٍ بها ما كرتِ الأعوامُ

مات الزبير وكل حيٌ راحلٌ سننُ الحياة ما لهن بدائلُ، ولكن بقيت أعماله الجليلة تصون ذكراه وتقف على عظمته، فهو من فتح مناطق كانت عصية على الدولة الإسلامية؛ بحر الغزال وشكا ودارفور، وأقام دولة موحدة في جنوب السودان، وطبق أحكام الشريعة الإسلامية في مناطق نفوذه وأسس جيشاً حديثاً لم يعرفه السودان من قبل، وأمن طرق التجارة وعقد الاتفاقيات الأمنية وعمل على تمدين وتحضر القبائل وتشجيع التزاوج بينها، وأنشأ عدداً من الخلاوي في مراكز نفوذه ببحر الغزال وغيرها، وأقام المعاهد العلمية وجلب لها العلماء من داخل وخارج السودان، واهتم بالزراعة حيث استجلب المعدات الزراعية والمزارعين المهرة من مصر، ونظَّم الأسواق التجارية ونظَّم أوقات الصيد للمحافظة على الحيوانات البرية، وشجع الأهالي على نبذ الحروب الأهلية وأدخل نوعاً من التصنيع الزراعي البسيط، كتجفيف بعض المحصولات الزراعية وصناعة وبناء المراكب، واستجلب عدداً من الفنيين للعمل في مجال التعدين بحفرة النحاس لاستخراج النحاس والذهب، وأنشأ وحداتٍ طبيةً تستخدم مهارات العلاج بالأعشاب والرقية الشرعية، واستجلب الأطباء من شمال السودان ومصر لعلاج الجرحى والمرضى، وكان رحيماً بمواطنيه متدرجاً معهم في فرض الزكاة، وطالب بإلغاء الضريبة التركية الباهظة، وأنشأ المحاكم العدلية في كل جهات المناطق المحكومة من قبله والمجالس الاستشارية وتحريم

العـادات الوثنيـة والمتخلفـة، وعمـل عـلى تأسـيس وتمديـن المناطـق المفتوحـة حتـى وصـف المسـتر تشرشـل رئيـس الـوزراء البريطـاني حكـم الزبـير فقـال: لقـد كان حكمـه في الحقيقـة لبنـة واضحـة في بنـاء التقـدم الـذي أعقـب عهـده في السـودان.

(٣٥)

بعد سنواتٍ طويلةٍ من وفاته، وقف أحد أحفاد الزبير باشا على قبره دامي القلب باكياً، فسقط عليه ظل رجل بانَ في ملامحه المصرية وقارٌ وعلمٌ وهو يسأله: أقبراً تناجي أم تسائلُ فانياً..؟! فالتفت ناحيته وقال له: المقبور هنا هو جدي العظيم الزبير باشا. فقال المصري: كان عظيماً حقاً. بدهشةٍ واستغراب سأله: هل لي أن أعرف من أنت؟ فرد مبتسماً: أنا باحث مصري اسمي عز الدين إسماعيل، وأعد رسالة علمية تاريخية عن جدك الزبير باشا. فقال الحفيد: يسرني سماع هذا، ولكن ما الذي أغراك بهذه الدراسة؟ أجاب عز الدين قائلاً: أولاً لأثبت أن استهداف الوجود العربي الاسلامي في القارة السمراء من قبل القوى الاستعمارية له أوجه متشابهة فحكاية الزبير باشا تتماثل في كثير من تفاصيلها بحكاية «حمد تيبو تيب» فقد مثلت شخصية حمد تيبو تيب حلقة من سلسلة الشخصيات العربية التي أسهمت بشكل واضح في كتابة التاريخ الأفريقي الحديث في أفريقيا غير العربية وتحديداً في شرق ووسط القارة فكان مكملاً لما مثله البوسعيديون في سلطنة زنجبار من إشعاع حضاري وفكري، وكانت حياة تيبو تيب مليئة بالتحديات كالتي واجهها الزبير واستطاع خلالها وبجهود حثيثة إقامة كيان سياسي عربي في وسط أفريقيا والذي كان مجهولاً من قبل الكثيرين وتمكن من وضع الأسس الرئيسة التي ارتكز عليها ذلك الكيان العربي الفتي وسط مجتمعات افريقية بدائية، لتكون تلك الأسس فيما بعد نقطة الارتكاز التي قامت عليها دولة

الكونغـو الحـرة والتـي أفـادت كثيراً من تنظيمات حمـد تيبـو تيـب علـى الـصعيدين الـسياسي والاقتصادي. مـا تعرضت له سـلطنة زنجبـار هـو عينـه مـا تعرضـت لـه دولـة العـرب في الكونغـو إذ إن كلتاهمـا ضحيـة لتطلعـات الاسـتعمار الراغـب بشـدة في فـرض الـسيطرة والوجـود الأوربي والقضـاء عـلى النفـوذ العـربي وكان ذلـك تحـت مسـميات عديـدة عـلى الرغـم مـن المسـاعدة التـي قـدمها العـرب لهـم سـواء عـن طريـق مسـاعدة المستكشـفين وتقـديم الدعـم لهـم أو الدخـول في تحالفـات مـع هـذه القـوة الأوربيـة أو تلـك اعتقـاداً منهـم بـأن ذلـك سـيكون كافيـاً لـدرء الخطـر لكـن يبـدو أن ذلـك لم يكـن كافيـاً مـن وجهـة النظـر الأوربيـة فالهـدف هـو القضـاء عـلى الوجـود العـربي نهائيـاً في القارة السـمراء. التشـابه المذهـل بـين قصتـي الزبـير وحمـد وتزامنهـما تقريبـاً هـي أحـد الأسـباب التـي جعلتنـي أفكـر في كتابـة بحـث عـن الزبـير باشـا لأن هـذا التشـابه يقـف دليـلاً عـلى أكاذيـب دعـاوى المسـتعمر بإلصـاق تهـم الإتجـار بالـرق عـلى الأبطـال القوميـين دعـماً لسياسـتهم الراميـة لإبعـاد العروبـة والإسـلام عـن نطـاق القـارة السـمراء .وهـل تصـدق أن مـا جـرى لحمـد مـن مؤامـرات هـو بالضبـط مـا حـدث للزبـير فكليهـما تـم اسـتدراجه إلى الخـارج وكـما قتـل سـليمان الزبـير فقـد قتـل سـيف بـن حمـد الـذي خلـف والـده في المقاومـة أمـام البلجيك. ولكـن ليـس هـذا كل مـا أغـراني لكتابـة بحـث عـن الزبـير ولكـن لأن أعـداءه وأحبـاءه شـهِدوا بعظمتـه، فخديـوي مصر قـال عـن جـدك الزبـير إنـه رجـلٌ مؤمـن، واللـورد كرومـر قـال إنـه رجـل ذو عـزم ووفـاء ومضـاء، وغـردون باشـا قـال إنـه رجـل بحـق وهـو أقـدر رجـل بالسـودان ويفـوق بمـدى غـير محـدود الرجـال الآخريـن الذيـن تولـوا حكـم السـودان مـن قبـل، وتشرشـل قـال لقـد امتـدت

شـهرة هـذا الرجـل إلى مـا وراء حـدود القـارة التـي كانـت مسرحـاً لفتوحاتـه، وامتـدت إلى الأمـم البعيـدة شـمالاً وجنوبـاً، وقـد كان حكمـه في الحقيقـة لبنـة واضحـة في بنـاء التقـدم الـذي أعقـب عهـده في السـودان. وعـالم النباتـات والمكتشـف الألمـاني شـوون فريـث قـال عنـه: خُلـق الزبـير ليحكـم النـاس، ولـو كان في أوروبـا لـكان لـه شـأن غـير هـذا الشـأن، ولـترك في تاريخهـا أثـراً بعيـداً. ومؤلـف كتـاب العـاج الأسـود جاكسـون أنصفـه حينـما قـال: إن أولئـك الذيـن اتهمـوا الزبـير بأنـه كان تاجـراً للرقيـق لم يسـتطيعوا أن يسـوقوا دليـلاً واحـداً لذلـك، فهـو لم يكـن بحـق مغامـراً أو قاطـع طريـق، بـل كان محاربـاً شـهماً يحفـظ للقتـال حرماتـه. هـذا بعـض الـذي أغـراني لأنجـز حولـه دراسـتي.

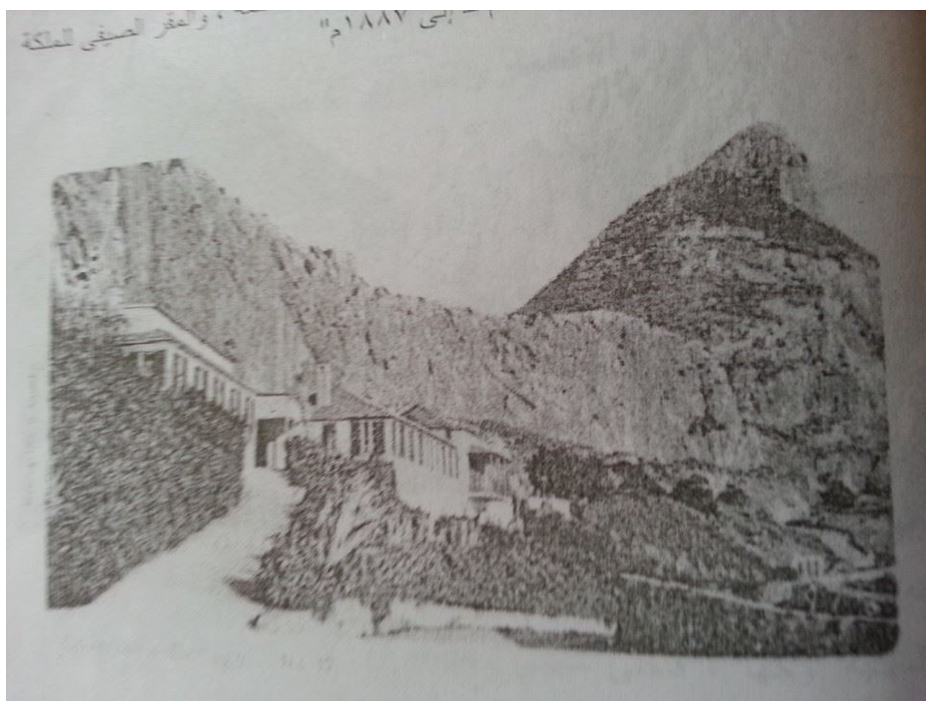
نظـر الحفيـد إلى عـز الديـن المـصري تـاركاً القـبر قائـلاً لـه: هـل يمكننـي أن أناديـك بصديقـي، وهـل تقبـل دعـوتي إلى منزلنـا بالجيـلي، إنهـا ليسـت بعيـدة مـن هنـا لـترى فيهـا سرايـا الزبـير باشـا وبعـض آثـاره، ولأطلعـك عـلى مذكراتـه التـي خطهـا بنفسـه. بانـت في وجـه عـز الديـن فرحـة وسـعادة، وقـال للحفيـد: أقبـل دعوتـك بـكل سرور يـا صديقـي. في الطريـق قـال لـه: إن جـدك الزبـير باشـا كان يمتلـك الكثـير مـن الرقيـق، ولكـن لم يتخذهـم يومـاً مـن الأيـام مـادة لتجارتـه، بـل سـلحهم وكـوَّن منهـم جيشـاً انتـصر بـه في حروباتـه التـي فُرضـت عليـه، ولـولا حسـن معاملتـه لهـم واعتـزازه بهـم، مـا تفانـوا في خدمتـه والانتصـار لـه طـوال هـذه المعـارك، وهـذا مـا يثبـت براءتـه مـن التهمـة التـي ألصقوهـا بـه كتاجـر رقيـق، وأدت لرفـض اقـتراح غـردون بتعيينـه حاكـماً على السـودان. بوصولهـما بـدأ عـز الديـن يقـرأ بشـغف مذكـرات الزبـير باشـا، وأسـقط دمعـة وهـو يقـرأ مـا كتبـه الزبـير قائـلاً: إننـي أحسُّ اليـوم وقـد نيفـت عـلى الثمانـين بأننـي أسـير نحـو القـبر، نحـو

النهايـة المحتومـة. ويومـاً مـا بعـد أن يغيبنـي الثـرى سـوف يحلـو للبعـض أن يتحـدث عنـي، وأن يتنـاول سـيرتي بالتحليـل والتفنيـد، ولـن أعـدم المـادح أو القـادح، ولـن أسـتطيع يومئـذٍ أن أرد عـلى كليهـما بعـد أن أكـون قـد انتهيـت إلى حفنـة مـن العظـام البيضـاء. غـير أني أحـب أن أقـول للاثنـين - المـادح والقـادح - إننـي قـد قدمـتُ لهـما حيـاتي في صفحـات مذكـراتي الشـخصية، وقـد يكـون فيهـا مـن الأخطـاء مـا يقـع لـكل البـشر ولسـتُ إلاَّ واحـداً منهـم، ولكـن كيفـما كانـت فقـد عشـتها لأرضي خلالهـا حـق الله عـليَّ وحـق الوطـن.

(النهاية)

ملحق



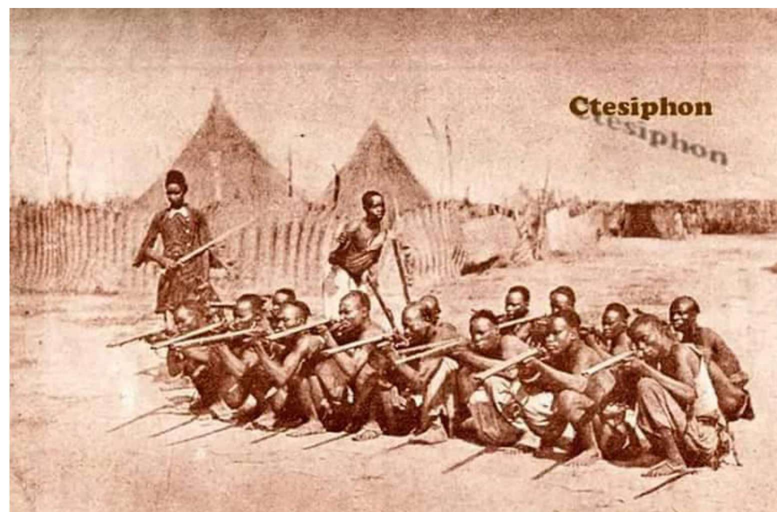

١٨٨٧م"
والمقر الصيفي للملكة




176






Ctesiphon



الزبير باشا في المنفى - جبل طارق






Karim Saad ElDin Elzubair







النور عنقرة

